استفتاء "الآداب" الكبير

المثقفون والهزيمة

لا شك في ان الهزيمة التي لحقت بالأمة العربية من جرّاء العدوان الصهيوني على الشعبين اللبناني والفلسطيني، جدير بها أن تدعو المثقفين العرب، والكتّاب منهم بخاصة، الى مراجعة أفكارهم وإعادة تقييم دورهم في مسيرة النضال العربي ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية والتخلّف.

كيف ترون الى الثقافة العربية الجديدة والى الدور الذي ينبغي أن تضطلع به للإسهام في الخروج من الهزيمة، وتجنيب الجيل العربي القادم اليأس والاستسلام؟

المهزومون يتكلّمون!

الدكتور شاكر مصطفى

تسأل «جيل الهزيمة» كيف الخروج منها؟ نحن جيل الهزيمة. لنعترف أولا بهذا الواقع. صحيح أننا فتحنا الاعين على الدنيا ومن ورائنا صراخ ميسلون وبلفور وثورة الخطابي والمختار والأطرش وهزات سعد زغلول، وركضنا الشوارع بالسروال القصير وفي آذاننا ثورات ١٩٣٦ وهزيم الحرب الثانية، وكانت رؤى الاستقلال والوحدة والحرية عرائش الجن في أحلامنا والبساط المدود حتى «سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى...» صحيح كل هذا، ولكننا كنا نبني الغد بأدوات القرن الماضي وبعقلية القرن الماضي ذات البعدين. وكان العصر يتراكب ويتعقد بأدوات أخرى وعقليات ذات ألف بعد. الجيل كله سقط في هذا المنعطف الخطر، منعطف التلاقي غير المتكافىء بين تسارع العصر، وتعقده المفترس، وتجبّر قواه العلمية والتقنية والامبريالية وبين جماهير شعبية كانت بناها في مرحلة انتقال شامل وطلائع هشة التجربة، والثقافة عجزت عن أن تحمل المصباح أو تضرب للوعي الشعبي الجذور أو تحدد معالم الطريق!

ليس هذا بجلد مازوخيّ للذات. ليس اعتذاراً ولكنه اعتراف. إقرار بواقع فاجع هو أننا كنا، كطلائع، أحد أسباب الكارثة. وأقول كارثة لأن ما نحن فيه اليوم ليس هزيمة فقط ولكنه يدخل في باب الكوارث الكبرى التي تضع في الميزان المعادلة الشكسبيرية القديمة: أن نكون أو لا نكون!

أول هزائمنا أننا ارتضينا، في اللهفة العمياء لحرق المراحل، أن نسلم مصائرنا «للجزمات» العسكرية التي تركت ثكناتها للرياح ونزلت قصور الحكم تعلّم الناس حتى التخطيط والوطنية والسياسة والعلم أيضاً!

ثاني الهزائم أننا ارتضينا طائعين أن تتسلم الأنظمة والحكومات النضال بدل الشعوب. أن تحل أجهزة الحكم وجيوشها «الجرارة» محل التحرك الجماهيري الواسع.

ثالث الهزائم أننا ظللنا نؤمن – وإن لم نعلن – بأسطورة المستبد العادل. بالفرد وقدرته على التغيير، بالانقلاب من أعلى. فجاء المستبدّ ولم يأت العادل، وجاء الفرد فكانت عبقريته الكبرى تغيير معالم الوجوه. وكان الانقلاب من أعلى ولكن ليتداوله الانقلابيون عقيداً عن لواء ثم مقدماً عن عقيد ثم ملازماً عن مقدم... وكانت نتيجة كل ذلك أن من كان بيده القرار لم يكن بصاحب رأي ومن كان صاحب رأي لم يكن بيده القرار.

رابع الهزائم... خامس الهزائم... السادسة... السابعة! أستطيع أنا وتستطيع أنت أن تمضي في التعداد إن شئت، وأن تقدم هذه وتؤخر تلك، وأن تجعل هذه سبباً وتلك نتيجة، وأن تحلل وتقوِّم وتتّهم. ولكن ثمة حقيقة واحدة تبقى ساطعة في النهاية لا اختلاف عليها هي أننا في زمن الظهر المكسور!

في زمن تستطيع فيه الآلة العسكرية الصهيونية أن تعربد ما شاءت على الارض العربية، وأن تذبح حتى الأطفال، وتلقي عشرات ألوف الاطنان من القنابل على المدن ثلاثة أشهر بساعاتها ولياليها وذلها الطويل فلا يتحرك نظام واحد من الأنظمة العربية الاثنين والعشرين بهزة نخوة (بارك الله الأمم المتحدة!!) ولا يستطيع عربي واحد من المئة والستين مليون عربي أن ينزل الى الشارع ويصرخ! أن يبصق كل ما في صدره من عواصف وجنون!

وما أتحدث حين أتحدث عن الهزائم أمام الصهيونية. نحن لم نهزم مرة واحدة أمام اسرائيل. أقولها بكل تحدٍّ وثقة. لم نهزم مرة واحدة. إنما هزمت النظم. هزمت القيادات العمياء. هزمت الأبنية الفاسدة التي يبنون في القوة العسكرية والفكر التافه، والتنظيم الكرتوني الكسيح! أبداً لم يسمح للجماهير العربية بالحرب

(استعداداً وممارسة ووعي مصير)، أبداً لم توحّد قوى العرب (روحاً ومادة) في وجه العدوان. أبداً لم تقف حتى ولا عشر معشار القوى العربية الحقيقية في جبهة المواجهة. كانت حروبنا دوماً بالنيابة. أو كانت بالتوكل، أو للدعاية ودعم الجبهة الداخلية. أو كنا نحارب بالخطب أو نحارب ونحن نضمر عدم الحرب. أبداً ما كان العدو من همّ النظم، ولكن قوى الشعب هي الهمّ. ولقد كبلوها بعبقرية غريبة. النظم ما أخذت من تقنية الغرب ووسائله المتقدمة في التخطيط والعمل الا العملية الارهابية. أتقنتها حتى الكمال تجسساً وإخبارات ومخابرات وسجوناً سوداء وتعذيباً مدهش الفنون واغتيالات هي القمة في تمام التخطيط والتنفيذ. أما البناء الاقتصادي والتكوين الثقافي والتجديد الروحي فتستطيع أن تنتظر... ريثما يتحول الانسان العربي، على أيدي الأنظمة، مسخاً من المسوخ أو بعض القردة... وعند ذلك فلا حاجة به الى كل اولئك...

وإذا كانت النظم وكان الاعداء معها يريدون أن يحملوا علينا نتائج مواقف انهزامية لا علاقة لنا بها حتى ولا بمقدماتها فلأنهم يعرفون أن هذا الانسان العربي هو الخطر إذا تحرك. هذا الغول المرعب الحذر، النائم على البترول والغاز والثروات، في منطقة هي سرّة العالم بين القارات، والذي يختزن قوى وإمكان ١٦٠ مليون إنسان يجب أن لا يصحو وأن لا يتوحد. كل القوى الداخلية والخارجية تضرب معاً كل مكامن القوة فيه لكي لا يقف على رجليه. يجب أن يضيع في تيه تمزقاته الطائفية والاقليمية والسياسية وأن تقف فوق رأسه العصا الغليظة في الداخل ومن اسرائيل.

وامريكا. إن كان ثمة هزيمة حقيقية فهي ها هنا بالضبط.

هزيمتنا الفاضحة، نحن جيل الهزيمة، هي في أننا لم نكن مع الجماهير ولكن خارجها. لم ندخل في ضمائرها وبقينا على الهامش المسكين. لم نستطع أن نكون جبهة رفض لهذا القدر الذليل المفروض عليها من علُ ومن الخارج. لم نناضل بما فيه الكفاية لبناء الوعي، لحمل المصابيح، لتعليق «الجرس»!

واستطاعت الهزيمة أن تعشش وتفرخ...
بالتصفية الجسدية فرضوها.
بإعادة تركيب الرؤوس وما في الرؤوس من المبادىء والأفكار فرضوها.
بالنظم العميلة أو الغبية أو الرجعية أو القروسطية فرضوها.
بكل تكنولوجيا غسل الأدمغة فرضوها
بالإرهاب المدمر للذات حتى الجنون فرضوها.

ودُمّر الانسان العربي، تسطّح حتى صار ذا بعدين. وحدها الأفواه الجائعة فيه تتحرك للطعام والأرحام الحبلى دفاعاً عن البقاء!

نحن موتى وشرّ ما ابتدع الطغيان
موتى على الدروب تسير!!
نحن موتى يسرّ جار لجار
مستريباً متى يكون النشور؟

لقد نجحوا... بلى نجحوا ولو الى حين...

المنطقة التي كانت لها من الخمسينات الى الستينات مثل كبرى ترتبط بها في ثلاثي الوحدة والحرية والاشتراكية، لم يعد لها اليوم أي مثل ترتبط به. ردّوها كبعض الحيوانات الشرسة المروضة بالسوط في السيرك: تقف على الكرة الدوارة، أو تقفز، مع الموسيقى عبر الحلقات المهتزة! لم يعد لها اليوم أي موطىء قدم في الميزان السياسي العالمي. دخلت مرحلة انعدام الوزن. أضحت ذيلاً وذيلاً طويلاً ذليلاً للعم سام! المنطقة التي كانت ترفض حتى معونة مؤسسة روكفلر لمؤسسة علمية جعلوها كبغايا الأرصفة، يطلب زعماؤها «الكبار الكبار» من السيد الأمريكي ان يرضى النزول والتدخل، ويرجونه الرجاء الرخيص قبول القواعد والاحتلال... شعار «ارفع رأسك يا أخي فقد مضى عهد الاستبداد» حل محله شعار: اركض وراء الرغيف الهارب. إنهم يقتلون الخيول، كل الخيول!

ولقد نجحوا.. بلى نجحوا ولو الى حين!

الوحدة؟ من ذا الذي يذكرها اليوم حتى همساً؟ من ذا الذي يقف ليعتبرها الطموح القومي القدسي؟ أليسوا يبيعون اليوم تراب الاجداد باسم «السلام»؟ ويعتبرون حياة أي طفل أفضل من أي أرض في الوقت الذي يتقاتلون فيما بينهم على أشبار الأرض؟

الحرية؟ ولو أنها صرخة كل المقهورين، صرخة كل هذه الجماهير من الماء الى الماء، من ذا الذي يسمع صراخها الآن؟ إن دونها ألف جدار سجن وألف قفل حديدي وألف ألف سوط... النخاسون الجدد لم يبقوا على شفة تصرخ! قطعوا كل الشفاه! قمة ما يأملونه أن يصل الصوت الحر الرافض الى لحظة الانتحار. وبشراهم ألم يبدأ السلسلة خليل حاوي؟

أين حريتي؟ فلم يبق حراً
من جهير النداء «حتى»الاذان!!

الاشتراكية أو العدالة الاجتماعية؟ لقد تكفل بتدميرها الجانبان: وأعداؤها وأهلها على السواء. هي عند الاولين بضاعة مستوردة. نرفضها لأنها مستوردة. ولكنا نستورد السيارات الفارهة والخمرة المعتقة والجواري وكل رفاه «الكفار»، ولا نقدم للأفواه المسحوقة أي بديل! أما أهلها فقد دمروها بالتشويه الكامل، بنهب الناس والكفايات والثروات والحريات على اسمها، لإقامة رأسمالية الدولة وهيئة المنتفعين!...

حتى الدين، هذه الشعلة القدسية لا تنطفىء في الروح، جرّوه الى الوحل، والى عفن الطائفية والقشور. جعلوه هجرة عمياء الى القرون الأولى، ولحى تطول في غير طائل! وظفوه لا للسموّ وبثّ العنفوان وللصلة القدسية بالله، ولكن للتضليل عن الثورة، ولمقاومة الشيوعية، ولترويض الجماهير المسحوقة باسم الرضى والقدر.

إنه عهد التتر الجدد، وزمن الظهر المكسور، هذا الذي يفرض علينا العيش فيه والتعامل معه!

قوى المنطقة العربية كانت في الخمسينات واضحة اللون والتحرك والتطلع. المصابيح، كل المصابيح كانت أمامها لا وراء. وكانت المنطقة تعرف قواها الكتلة البشرية المتجهة الى الوحدة، الثروة النفطية والمالية التي تفتح الامكان، الخبرات البشرية المتزايدة في الكم والكيف، ولها فوق كل ذلك الطموح القومي للعطاء الكبير... خطوة خطوة مزقوا هذه القوى. سيذكر التاريخ ان فترة السنوات العشرين الأخيرة كانت السنين السوداء في تاريخ العرب. الكتلة البشرية التي كانت تعتبر الوحدة مصيرها المحتوم نقلوها منذ سنة ١٩٦١ (بعد فصم الوحدة بين مصر وسورية) من الوحدة الى الاقليمية، ثم من الاقليمية الى الطائفية، فهي مجاميع من البشر الاعمى يأكل بعضه بعضاً! جعلوا من عمليات الوحدة المكرورة العوبة مسكينة وموضوع تندر وهزء... حتى أتى يوم لم يعد يصدقها أحد، أو يؤمن بجديتها أحد... الثروة النفطية ـ المالية، تفجّر خطرها سنة ١٩٦٧ سلاحاً قاتلاً ممكناً... وما أسرع ما وضعت الخطط ثم وزعت الأدوار وأعمال التنفيذ فإذا هذا السلاح يتحول حراباً في نحورنا... وألجمة ومهاميز. المنطقة كلها أضحت كليلة المعري:

... عروساً من الزنج عليها قلائد من جمان!

هـرب النـوم عن جفـوني فيهـا
هـرب الأمن عن فؤاد الجبـان!

أضحينا أسرى الأرصدة التي تراكمت ولا نملك منها حتى تحريكها، والسائل الأسود الذي أعيد حقنه في الارض او طفحت به الخزانات أو سيطرت عليه القواعد العسكرية، فنحن عليه مجرد حراس أمناء حظّنا منه النظر وبعض الأرغفة، وبعض المتع الفاسقة لسكان الطوابق العلوية...

الخبرات البشرية؟.. هذه الثروة المسفوحة على كل أفق، سلوا بلاد الله عن مئات الالوف من العقول العربية التي تعمل لغير أهلها وتصب عطاءها في كؤوس لآخرين. حتى من صمد منها للإغراء واستقر يخدم في البلاد سحقناه بالاضطهاد والعطالة حتى يلحق بالركب... ركب الهاربين!!

الطموح القومي الكبير؟.. لقد انتحر أخيراً بالصمت العربي الكبير ثلاثة أشهر أمام كارثة بيروت، وبتحوّل القبلة من بيت الله، بيت العزة، الى بيت اللات في واشنطن!

... ويسألونك، بعد هذا عن مراجعة الأفكار وعن الثقافة العربية الجديدة والدور الذي ينبغي أن تضطلع به. لا مراجعة أفكار. في المبادىء والمثل القومية ليس ثمة بدائل. لا بديل للوحدة ولا للحرية ولا للعدل الاجتماعي...

ويسألونك عن الثقافة الجديدة بعد هذه الهزائم. قل لا ثقافة جديدة. ولكن تفجير القوى الثقافية الشلاء. تدمير الارهاب الفكري. تعرية المسرح كله بما فيه من ممثلين وأزياف وأصبغة ومهرجين... لا بديل ثقافياً جديداً ولكن مزيد من الفهم للعصر، ومن التعامل مع قوى العصر بمستوى العصر. اعادة الاعتبار للقيم القومية الحضارية وللطموحات التي خنقت. أعرف أنها معركة. ومعركة مريرة مريرة مع جميع قوى الشر. ولكني لا أرى طريقاً آخر. الثقافة ليست معلومات تقتنى ولكنها مواقف حية متحركة. نضال دائم من أجل انسانية الانسان. ولقد كان لهذه الأمة دوماً دورها الرائد في هذا النضال.

في الحديث النبوي المعروف أن ناساً ركبوا سفينة في البحر فانتبذ كل منهم مكاناً قال هذا موضعي أفعل به ما أشاء. فإن أخذوا على يده نجا ونجوا وإن تركوه هلك وهلكوا... طغاة الوطن العربي قد انتبذ كل منهم ناحية قال هذا موضعي أفعل به ما أشاء. إنهم سجناء حتى في قصورهم. يرتعدون خوفاً وهم في علياء القصور. فإن تحركت طلائع الانقاذ للضرب على أيدي الاستبداد الأعمى والطائفية وسحق الطغيان الامبريالي نجا المركب ونجوا، وان تركوا هلك وهلكوا... فمتى تراها تتحرك الطلائع؟...

الكويت

في وجه التيئيس

حنّا مينه

اكـرر ما قلتـه سابقـاً: المناضـل الحقيقي، في زمن الهـزائم العـربيـة، زمن التيئيس العـربي، المخـطط، المدروس، المموّل بـالبتـرو دولار، هـو من لا ييأس، والمثقف مناضل على الجبهة الفكرية، ومن كرامة النضال والفكـر معاً، الا ييأس المثقف، ويصـدق، وان يتسلح بـالوعي التـاريخي، وبعمق، ليكون قـادراً على مكـافحـة اليأس الذي يبشر به بعض الكتاب والشعراء الذين تفتح لهم مجلات وصحف عربيـة، مقيمة ومهـاجـرة، صـدور صفحاتها، وتدفع لهم أجوراً خيالية.

اني لا اتهم بل أذكر بالواقع، اشدد عليـه، فليس للثقافة العربية ان تتجدد مع كل حدث جديد، وهذا غير ممكن طبعاً، ولا ان تلهث وراء الاحداث وهي تتسـارع، واللهاث لا يفيد، بل ان تعي دورها، مسؤوليتها، شرف مهمتهـا، وعنـدئـذ لا يكـون دورهـا ان تبـدي رأيـاً فيـما جرى، بل ان تسبق فتكون نذيراً بما سيجـري، وتتخطى موقف المتفرج على المعركة، او الشاهد عليها، الى مـوقف الفاعل فيها، المغير لمجراها.

وليس للمثقف ان يخرج من مسـوح الثقـافـة الى رادنجوتات السياسيين، وان يجعـل الخطاب الثقـافي بيانـاً سياسياً، بل ان يمتلك مفهوماً عن العالم، وان يؤمن هـو به أولاً، وفي ضوئـه، يمكن ان يرى الى حـركـة التـاريخ، ويرصد صيرورتها، ويناصر كل ما يدفع هـذه الحركـة الى أمـام، لا في آنيتها، التي قـد تبدو ثـابتة، بـل في رحـابـة مداها، حيث كـل شيء يتغير، وكـل قديم يـزول، وكل جـديد يبقى، ليسلم نفسـه، في المآل، الى جـديد آخـر، أفضل وأرقى.

ان مراجعة الافكار واعادة تقييم الدور، والتجددية الثقـافيـة لا تتم نتيجـة الهـزيمـة، او بـانفعـال مـوقت منها، أو أخذا بالرجة العصبية، او لحاقا بالموضة المازوشية المتولدة عنها، فالمثقف المسؤول، الصادق، الواعي لمهمته النضـاليـة عـلى جبهة الثقـافـة، ينبغي ان يكـون ابن وطنه حقـاً، ابن شعبـه حقـاً، ابن عصـره حقـاً، وان يكـون مستعداً للاسهام في النقلة الفكرية بين الماضي والحاضر، بـين ما صـار باطـلاً بحكم الزمن، وبـين ما هـو صحيح بحكم الـزمن أيضـاً، وان يعـرف، عن طـريق النـظرة العلميـة، من هم أعداء وطنـه وشعبه، وبـالتـالي أعـداء جميع الاوطان وجميع الشعوب، ومن هم اصـدقاء هـذا الوطن وهذا الشعب، ويتخلى عن دور الواقف عـلى حد السكـين، باسم الحيـاد الكاذب، وينتمي بكـل طـاقـاتـه الابـداعية الى صف الكفـاح الوطني، القـومي، العالمي، وينبـذ الـلامبـالاة، والتهـريـج، والارتـزاق عن طـريق الحـرف، وبـذلـك يحقق المـراجعـة، واعـادة التقييم، والتجديد الثقافي، لا باسلوب البيـانات والشعـارات، بل بأكثر الاساليب الفنية جودة وأصالة وتعبيراً عن الواقع في صراعاته، تناقضاته، تطلعاته، حسه التاريخي، وحركـة تغيره الدائمة.

مثـل هـذا المثقف، وخـاصـة المثقف الكـاتب، لا يأتي، أولا يكون، وليد الهزات، او النكسات، أو الهزائم وحدها. هذه تفجر فيه طاقـات جديـدة، لكنها لا تخلقـه خلقاً جديـداً، اذا لم يكن قـد خلـق نفسه منـذ البدء، وفهم التنـاقض الطبقي، والصـراع الطبقي، وتحـالفـات القوى، وحدد موقفه منها، وانحاز الى صف قـوى التقدم الذي يأتي اليه جميع المثقفين الشرفاء، من كل الطبقات.

وعندما يفعل المثقف ذلك، يجد طريقته في القول، وفي الابداع، وفي التوصيل، ويبلغ قلوب الناس، ويؤثـر فيهـا، ويلعب دوره الصحيح، الكـامل، مستمـداً نسـغ شجـرته الفنيـة من عصب الحيـاة، لا من عـروق المـوت البـاردة، المتفسخة.

ان معـركـة بيـروت لم تكن هـزيمـة. والعـدوان الاسـرائيـلي عـلى الشعبـين اللبنـاني والفلسـطيني لم يكن

عدواناً، كان حرباً كاملة، خططت لها اميركا ونفذتها اسرائيل، وما زالت اللعبة قائمة بينهما لجعل لبنان محمية اميركية اسرائيلية، وقد أفدنا من هذه الحرب دروساً ثمينة، في رأسها انه يمكن محاربة اميركا واسرائيل كما جرى في لبنان، ويمكن للمدن العربية ان تصمد كما صمدت العاصمة اللبنانية، ويمكن لدولة عربية واحدة ان تخوض الحرب ضد اسرائيل كما خاضتها، ولو لأيام، سورية، وان وحدة مصالح الامة اكذوبة، فمصالح الملوك والرؤساء العرب غير مصالح الشعوب العربية، وان المعركة طويلة، لخمسين سنة مقبلة على الاقل، وان علينا أن نبني ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً، ونفرز بعد كل معركة، اشياءنا على هدى معطياتها، وان يكون لنا بُعدُ نفسٍ صمودي، فلا نمضغ المرارة، ولا نقتات اليأس، ولا نضيق دائرة رؤيتنا فنقصرها على منطقتنا، بل نرى الى العالم، وما يجري فيه، وما يتصاعد من قوى التحرر والتقدم، وما يتضامن من قوى الاستعمار والتخلف.

هذا يعني ان أكتب رواية جيدة، صادقة، أصيلة، فنية، اذا كنت روائياً، وقصة بالشروط نفسها اذا كنت قاصاً، وشعراً اذا كنت شاعراً، وبحثاً اذا كنت مفكراً، والا نخشى على الفكر التقدمي من الانكسار، ومن الاقتلاع، فهذا الفكر ليس خزفاً، ولم يهبط من فوق بل نبت من الارض، وهو أقوى وأرسخ مما يظن الذين يشحذون السكاكين لذبحه وذبح أصحابه.

لا أقول إن كل شيء جيد، لكني أؤكد ان كل شيء سيكون جيداً، فمنذ اربعين عاماً والامبريالية والصهيونية والرجعية تحاول تصفية القضية العربية، وحتى الآن ما زالت هذه القضية حيّة، وستبقى كذلك، لانها قضية الشعب العربي لا الحكام العرب، وحتى لو نجح هؤلاء في تآمرهم لتصفيتها، فانها ستظل حية كما الضمير العربي، كما النضال العربي، كما الانسان العربي؛ وستطرح نفسها من جديد، في مناخ جديد، وفي صداقات وتحالفات أقوى فأقوى.

المهم الا نيأس..

والمهم الا يخيفنا يأسَ البعض منا،

والمهم ان نفهم التاريخ، العصر، المستقبل، ونكتب في ضوء هذا الفهم.

دمشق

إنطلاقاً من الواقع الجديد

أنطوان مقدسي

صار من الواجب علينا أن نقول الحقيقة بصراحة فجة، مهما كلّف الثمن:

ان المعارك الكثيرة التي تخوضها الأمة العربية على جبهاتها الداخلية والخارجية، منذ سنوات، ومنها بالدرجة الاولى معارك لبنان منذ ١٣ نيسان عام ١٩٧٥، وذروتها الغزو الاسرائيلي الأخير، هذه المعارك هي مجموعة هزائم للقوى والمنظمات والايديولوجيات التقدّمية. ويكفي أن نذكر في معارك لبنان هذه الظاهرة التي ألفناها الى حد صارت تبدو معه وكأنها طبيعية، مع أنها أكثر الظواهر انحرافاً - وايلاماً للنفس - وهي أن العدو لم يكتف بجرّ القوى التقدمية الى المعركة في المكان والزمان اللذين اختارهما، بل وأعطى هذه القوى الشكل الذي يريد، أقصد أنه صاغها على صورته ومثاله إذ جعل منها قوى طائفية تنادي بالتقدم. أجل قوى طائفية تقدُّمية، كأن تقول: هذه دائرة مربعة.

فكل الأمور تجري وكأن لبنان الذي كان منذ أواسط القرن التاسع عشر وحتى سنوات قليلة خلت، نقطة انطلاق العروبة - والوحدة العربية - سيكون نقطة انطلاق تشرذم القوى العربية وتحوُّل الدولة العربية الواحدة، أمل المناضلين العرب منذ قرن ونيف، الى دول اقليمية: هنا تأخذ شكلاً طائفياً، وهناك شكلاً عرقياً أو ثقافياً أو ما شئت من ألوان التجزئة والتفرقة والتنابذ فالتناحر على البقاء..

هذا الوضع العربي معروف، يعرفه الحاكم والمواطن، العالم والجاهل، الغني والفقير،... كلنا نعرفه، كلنا نرفضه.

وكلنا يسأل: ما السبيل الى تجاوزه؟

فمن واجب المثقف ان يسائل عن دوره هو - وبما هو مثقف - في عملية التجاوز هذه. وأقول مسبقاً ان هذا الدور كبير. كان في الماضي كبيراً وسيكون في المستقبل، بعدُ، أكبر إذا كان المثقفون بمستوى مسئولياتهم. فالمثقفون في بلد متخلف قوة هائلة يحسب حسابها الحاكم فيسعى الى وضعها بجانبه، كما يحاول الأجنبي تحييدها وعزلها بوسائل شتى لا مجال لذكرها الآن.

لنلاحظ على سبيل المثال أن الحركات الثورية الكثيرة والانقلابات الاجتماعية والسياسية والعسكرية التي توالت على هذا الوطن منذ قرن (ثورة عرابي) الى أيامنا كانت بنتيجة عاملين متكاملين ومتلازمين:

الأول: بروز قوى شعبية جديدة.

الثاني: دخول هذه القوى ساح المعركة بفضل فئات مثقفة تمكنت من تنظيمها وتوجيهها.

ذلك شأن المنعطفات التاريخية كلها، تحصل من التلاقي فالتلاحم بين طاقة وعقل.

فالكلمة الاولى والأخيرة لقدرة العقل على القراءة.

والذي يسترعي الانتباه حقاً في الوضع الفكري العربي هو أن فكرنا ما يزال يعيش حتى الآن على ايديولوجيات وضعت في أواسط الأربعينات وتبلورت بخطوطها الكبرى أو بمفاهيمها الأعم في أوائل الخمسينات، في حين أن ميزان القوى تبدل، على الساحة العربية، مرة، مرتين، ثلاث مرات... وربما أكثر، خلال الثلاثين سنة الفائتة.

ان الافكار تتحول في مرحلتنا - مرحلة تسارع التاريخ - من تقدمية الى رجعية بأسرع مما يتحول البشر، افراداً وجماعات، وما أكثر ما يتحولون!

فمفاهيم الأربعينات والخمسينات كانت في حينها تقدمية بدليل أنها مكنت القوى الشعبية من أن تلعب دورها الحاسم في تحرير الأرض وايقاظ الجماهير وطرح المسألة الاجتماعية، الخ...

أما الآن فهي شهادات حسن حال وبراءة ذمة تعطى لكل من يدفع الثمن، وتستخدم في أحسن الحالات لسدّ فراغات الصحف والمجلات.

المفاهيم رصيد.

فعندما تنفصل عن الواقع تصبح كالعملة التي فقدت تغطيتها.

فلا تستغرب إذا لاحظت أن الايديولوجيات الرجعية أخذت تستهوي الشباب أكثر بكثير من الايديولوجيات التقدمية.

الثقافة في البلدان المتقدمة مهنة.

وفي البلدان المتخلفة رسالة.

فعندما تتردى لتصبح أداة تزلّف لهذا الحاكم أو ذاك، أو أداة ارتزاق، يفقد ابن الشعب ثقته بذاته ويكفر بها وبكافة القيم.

وتفقد بذلك الجماعة قدرتها على قيادة ذاتها فتتشرذم. وعندها يفتش الشباب المتعطش الى المغامرة والبطولة عن مثل عليا يسيرون على هديها فلا يجدونها الا في الماضي.

بهذا تنتقل المبادهة من التقدم الى الرجعية

ان المثقف هو أول وخير من يعرف تقصيره.

وهو الذي يبادر الى الحديث عنه، ليشدّد على اسبابه، وهي معروفة جداً، كُررت بكافة الألسن وفي كافة الأزمنة والأمكنة، وتتلخص في انعدام الشرط الأول والأساسي والوحيد لنشوء الفكر، ألا وهو حرية الرأي والتعبير عنه التي تكاد تكون معدومة في كافة الأقطار العربية.

هذا صحيح.

ولكن استمعْ الى الحاكم وهو يشرح لك الأسباب التي دفعته مرغماً الى تقليص فسحة الحريات ترَ أن الحق بجانبه أيضاً. أو يمكن أن تتعدد الآراء وتتناقض وتتصارع في نقاش لا ينتهي والبلد محاصر والعدوّ على الأبواب؟ أولاً تقتضي الضرورة الملحّة في ظرف كهذا توحيد الآراء والصفوف في جبهة واحدة تتصدى للعدو؟

هذا أيضاً كلام معقول.

فالدائرة مفرغة.

وستبقى كذلك إلى أمد طويل على ما يبدو: المثقف يتهم الحاكم، والحاكم المثقف. والحاكم أدرى باسباب الاتهام من المثقف وأبرع في ادارتها..

والدائرة هذه، والاتهام هذا قديمان في عالم الانسان، قدم هذا العالم، قدم الصراع - الحوار بين المثقف والحاكم، تارة ترجح كفة الصراع وطوراً كفة الحوار.

فمن واجب المثقف أن يحوّل باستمرار الصراع الى حوار.

وليس هذا بالأمر الممتنع، إذا كان المثقف يؤمن حقاً بأن الثقافة رسالة، لا مكاسب فردية صغيرة يمنُّ بها عليه هذا الحاكم أو ذاك. وكل المكاسب مهما كبرت بمقياس الرسالة صغيرة. وبتعبير أوضح، فإن روح التضحية هي التي تجعل الحاكم ينظر الى المثقف نظرة الندّ للندّ. ومتى طغت روح الكسب على التضحية تحوّل المثقف الى رعاع في نظر الحاكم.

ليس المطلوب في المرحلة الراهنة من المثقف العربي التقدمي - إذا كان يؤمن حقاً بالعروبة والتقدم - بالأمر السهل. فثمة صعوبتان كبيرتان متلازمتان تعترضان سبيله.

الاولى ذاتية، وتفترض تعليق الايديولوجَيات الموروثة كلها، فقد صارت في واد والواقع في واد.

الثانية موضوعية وهي اعادة قراءة الواقع العربي بدون أية فكرة مسبقة واستنباط المفاهيم التي تقوله، هو كما هو.

يعز على المرء أن يحطم ما آمن به حياته كلها. يعز عليه أن يعترف بأن الآلهة التي عبدها أصنام.

فمثلاً مفهوم الأمة الواحدة الذي يبدو لنا للوهلة الاولى واضحاً كل الوضوح تفرّغ في الواقع من كل مضمون وفقد بذلك قيمته الاجرائية لأن القوى التي تتجابه على الساحة العربية (وهي مضمونه الحقيقي) تبدلت جذرياً عما كانت عليه في الستينات وحتى في السبعينات. وعقلنا ما يزال يحاكم الأمور وكأننا على ليالي الوحدة بين مصر وسورية. فما هي هذه القوى؟ ما دور كل منها؟ كيف تتلاقى وتتصارع، فتهادن وتستأنف الصراع؟ كيف ينفذ اليها الأجنبي ويحركها؟ إنما الجواب عن بعض من هذه الأسئلة - في مجال الأمة وفي المجالات الأخرى الكثيرة - يحتاج الى دراسات طويلة يفضل عقلنا اختزالها باحلال الكلمات الكبيرة (ومنها الواقعية والالتزام بالواقع!) محل الواقع.

والنتائج ما علمت! في لبنان وفي غير لبنان.

ان دراسات كهذه، وحدها، تستطيع أن تقوّم اعوجاج السياسة والسياسيين والأحزاب السياسية، على الخصوص إذا تراكمت وشكلت تراثاً، على الضبط كما جرى في الأربعينات والخمسينات.

ولا أعتقد أن سياسياً، كائناً من كان، سيتنكر لها كلياً الا اللهم إذا كان من سلالة ابليس!

دمشق

تشبُّثاً بالحُلم الحضاري...

جبرا ابراهيم جبرا

عزيزي الدكتور سهيل،

لقد طرحت قضية كبيرة وخطيرة في زمن لحقنا منه آلام وجراحات، وفقدنا فيه أرضاً وشهداء وآمالاً وأحباء. لكن يدهشني أنك تتوقع مني ان أستطيع الإجابة بسرعة عن اسئلة تثيرها هذه القضية بقينا قرابة الاربعين عاماً في غمرة منها: تفكيراً وتمرداً، وصراخاً، وعذاباً.

لست أدري كيف يتسنى للمثقفين الذين كان لهم شرف الريادة في تطلّعات الأمة، الذهنية، والاجتماعية والتاريخية، وفي تطلعاتها السياسية والنضالية - كيف يتسنى لهم ان يعيدوا تقييم دورهم بأسطر قليلة يكتبها الواحد منهم في هذه الظروف العاتية جواباً عن سؤال عليه إن يسلّمه للبريد في غضون يوم او يومين؟

الثقافة العربية الجديدة لا يمكن أن نحقق، او نخطط، لها مساراً ارتجالاً بفقرتين من كلام حلو أو غضوب. علينا ان نختلي بأنفسنا، ونقارع عقلنا، ونعيد النظر في حضارتنا بأجمعها، ونقضي في هذه المهمة أشهراً كثيرة، نتقرّى فيها الأبعاد والنتائج التي تحققت - أو لم تتحقق - لكل مسعى عربي في نصف القرن الأخير. وهذه مهمة تتطلب أيضاً، فضلاً عن الوقت، كثيراً من وضوح الذهن وصفاء التفكير والسيطرة على الذات (في زمن يكاد يخلو منها جميعاً) لكي نأتي بفكر ربما لم نفلح بالإتيان بمثله فيما مضى.

ومع ذلك فإنني أرى في هذه اللحظة، وعفو الخاطر، أن الدور الذي ينبغي ان تضطلع به الثقافة العربية للاسهام في الخروج من الهزيمة لا يختلف في جوهره ومداه عن الدور الذي حاول عدد كبير من مثقفي الأمة من الخليج الى المحيط ان يعطوه لهذه الثقافة التي وصلوها بعرقهم ودمائهم، بعشقهم وعبقريتهم، بخيالاتهم وأحلامهم كلها.

غير أن الأوضاع السياسية التي نشأت في اثناء ذلك في اثنين وعشرين قطراً عربياً (اللهمّ زد وبارك!) راحت تجزّىء، بل تهشّم، وباستمرار، كل مسعى يقوم به المثقفون، وراحت بهذه الصيغة او تلك تتضافر باستمرار عنيد لتبديد الحلم العربي هذا، بحيث رأيناه يخيب عام ١٩٤٨، ورأيناه يخيب مرة أخرى عام ١٩٦٧، ورأيناه يخيب مرة ثالثة عام ١٩٨٢ - لولا فئة رائعة استطاعت ان تحمي هذا الحلم بدمها، ووقفت في بيروت مانعاً صخرياً غالبت به شراسة الصهيونية لأكثر من خمسة وسبعين يوماً على نحو عجزت عنه أنظمة تقود أمة قوامها ١٥٠ مليون نسمة.

وما نراه اليوم من مواقف اللامبالاة من معظم هذه الانظمة بملايينها البشرية (دع عنك مواردها) مرة أخرى تجاه العراق في وقفته البطولية الصامدة في سبيل الابقاء على تماسك هذه الأمة وتوقها الحضاري، يدلّل مرة أخرى على اغفالها - او تغافلها - جوراً وجنوناً عن كل ما يقوله ويسعى الى تحديده فكراً مثقفو الأمة العربية في كل مكان.

لذا، يخيّل إليّ ان الفجوة الكبيرة القائمة بين رؤية المثقفين وبين نوازع أصحاب السلطة، ستجعل دور الثقافة يصاب بمثل الاحباط الذي أصيب به فيما مضى، لولا أنه يبقى فاعلاً في دواخل المجتمع عن وعي او لا وعي، ولولا أن هناك أملاً في ان تجعل مآسي الأمة وفواجعها من هذه الثقافة شيئاً اكثر امتلاءً بالحياة وأشدّ إصراراً عليها - شيئاً يكون في توثّبه رفض حاسم لليأس الذي يغري الآن الأمة ويهدّدها في مستقبلها، ما دام ثمة فئة رائعة تتشبّث بحلمها كتلك التي قاومت في بيروت بدمها وحلمها، وما دام ثمة من يقف شامخاً على البوابة الشرقية للوطن العربي ببطولة أسطورية تعيد الثقة الى النفس العربية وتعيد الثقة بالتالي الى حلمها الحضاري الذي لن تتنازل عنه.

بغداد

ولكننا... لا نبدأ... من فراغ!

محمود أمين العالم

ما أكثر ما جلست ـ منذ عام ١٩٦٧ حتى اليوم ـ لأردّ على استفتاء مشابه لهذا الاستفتاء! فمنذ ذلك التاريخ بل ومن قبل ذلك التاريخ بكثير، ونحن نتدحرج من هزيمة الى أخرى، ونجلس ـ نحن المثقفين العرب ـ عقب كل هزيمة، لنتساءل: «ما هو الدور الذي ينبغي ان نضطلع به للاسهام في «الخروج» من الهزيمة؟» . . . ثم لا نلبث ان «ندخل» في هزيمة جديدة!

ـ لا . . . لست متشائماً على الاطلاق، ولست استنكر جلوس المثقفين للتأمل وابداء الرأي عقب كل حدث كبير، هزيمة كان أم انتصاراً. على ان المهم أن نتعرّف وان نتعارف موضوعياً على حقيقة ما حدث، ما يحدث، وان نحاسب أنفسنا حساباً أميناً عن حقيقة ما فعلناه في مواجهة هذا الحدث، وماذا كان ينبغي ان نفعل، ولماذا لم نفعل ما كان ينبغي ان نفعل، ثم ماذا علينا أن نفعل. وألا يكون الأمر مجرد «فك مجالس»، كما يقال، او نوعا من التطهير والتطهر الذي يخلصنا من عبء ما نحمل من مسؤولية، ثم لنواصل بعد ذلك «ريمة عادتها القديمة»، تعيد انتاج كل الممارسات الفكرية السابقة التي تدحرجنا ونتدحرج بفضلها الى الهزيمة . . . المتصلة.

● ولهذا فقد يكون الجديد في هذا الاستفتاء الجديد الدعوة الى «مراجعة الفكر واعادة تقييم الدور» في مسيرة النضال العربي ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية والتخلف». ولكن اتساءل: ما هو معيار المراجعة والتقييم؟ فلو استبعدنا قلة من المثقفين الذين يجهرون بتخلّيهم عن مسيرة النضال العربي، فما أكثر المثقفين الذين يسهمون بمحتوى فكرهم ومنهج ممارستهم في عرقلة النضال العربي او حرفه عن مسيرته.

○ ما هي اهداف النضال العربي؟ من هم أعداء هذه الأهداف، ومن هم حلفاؤها واصدقاؤها؟ وما هو الطريق لتحقيق تلك الاهداف؟

هل يتفق المثقفون العرب جميعاً في اجاباتهم على هذه الاسئلة الأولية؟ انهم يختلفون، ومن الطبيعي ان يختلفوا. على أن هناك فارقاً بين اختلاف الاجتهادات لتحقيق الهدف، وتناقض هذه الاجتهادات مما يؤدي الى تناقض الاهداف.

حقا، ان مسؤولية الهزيمة التي نعانيها لا تقع مباشرة على عاتق المثقفين العرب. إنما تقع أساساً وعملياً على عاتق قيادات أنظمة الحكم العربية، وعلى الهياكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية السائدة في البلاد العربية. على أن بين المثقفين العرب من كانوا جواهر حقاً في قلب اللهيب المحتدم، في قلب بيروت، شجاعة ووعياً وفاعلية. وكانوا ـ مع غيرهم من آلاف المناضلين الفلسطينيين واللبنانيين والعرب ـ انتصاراً عربياً بطولياً برغم الهزيمة. غير ان للهزيمة مثقفيها، أو بتعبير أدق، لصانعي الهزيمة ومريديها مثقفوهم ومفكروهم ومبررو سياساتهم وممارساتهم، بوعي او بغير وعي، بشكل مباشر او بشكل غير مباشر.

○ إن للهزيمة وجهين، وجه نظري ووجه عملي. اما الوجه العملي فله بُعْدان: بعد مباشر تكفلت بتنفيذه الاسلحة الامريكية وجيوش الدولة الصهيونية، وتواطؤ الانظمة العربية، وبُعد غير مباشر هو الحرمان من الديمقراطية وسيادة القمع البشع للتحركات الجماهيرية واهدار حقوق الانسان الذي تمارسه مختلف الأنظمة العربية. أما الوجه النظري، فهو القيم الايديولوجية السائدة في العالم العربي عبر وسائل الاتصال الجماهيري إذاعة وتلفزيون ومجلات وجرائد ومسرحيات وافلام وهي

في أغلبيتها الساحقة تملكها وتحتكر ملكيتها أنظمة الحكم العربية، ويغذيها عدد هائل من أهم وأكبر المثقفين العرب بانتاجهم الاعلامي والسياسي والفكري والاقتصادي والأدبي، هذا الانتاج الذي قد لا يتناقض في مضمونه مع ضمائر منتجيه، على أنه مشروط بالا يتناقض مع سياسات من يملكون هذه الوسائل الاتصالية والثقافية وممارساتهم!! وهكذا كلما زاد هذا الانتاج روعة ورفعة كلما كان جسراً لتمرير أشد السياسات والممارسات تخلفاً وتعارضاً مع «مسيرة النضال العربي»!!

○ عندما كتب الاستاذ محمد حسنين هيكل منذ فترة بعيدة عن أننا نعيش في «حقبة سعودية» كان محقاً وموفقاً، ولكن جانبه الحق وخانه التوفيق عندما قال في ذلك الوقت «إن ما لم تستطع الثورة ان تحققه، سوف تحققه الثروة»!! ذلك انه لم يدرك الدلالة الطبقية والاجتماعية للثروة السعودية التي هي بممارساتها وبطبيعة من يسيطرون عليها نقيضة للثورة العربية. وحسناً فعل جزئياً في حديث له أخير في جريدة «الأهالي» المصرية، عندما قال إن الحقبة السعودية انتهت لأنها فضلت المصلحة الاجتماعية على المصلحة الوطنية. [كأنما لها مصلحة وطنية!] وقال ان الحقبة السائدة اليوم هي الحقبة الاسرائيلية. ولا أدري لماذا يرى الاستاذ هيكل «البرذعة» ويخفي «الحمار»!؟ فاذا صح ان نتحدث عن حقبة سائدة، فهي بغير شك الحقبة الامريكية. وليست اسرائيل الا «برذعة» هذا «الحمار بوى» الامريكي. أما الحقبة السعودية فالحق أنها ما انتهت. ذلك أنها جزء من الحقبة الأمريكية. ولكن دورها ليس تحقيق ما لم تستطع الثورة العربية ان تحققه وانما دورها هو ضرب هذه الثورة مستخدمة في ذلك الثروة. وكل ما استطاعته هذه الثروة ان تحققه أخيراً هو أن تسهم في اخراج الفلسطينيين من بيروت!! ـ والاستاذ هيكل يستقل هذا الدور، ولهذا يرى ان حقبتها قد انتهت ـ والحق انها حقبة متآزرة متعضونة متناسجة متصلة مع المشروع الامريكي الصهيوني في المنطقة العربية ـ وجرائدها ومجلاتها الواسعة الانتشار، المفتوحة لها الأبواب في اغلب البلاد العربية، هي منابر دعوة وأبواق دعاية لما يسمى «بالرؤية الامريكية» للحياة، بل للمخطط الامريكي عامة في المنطقة العربية. سياسة واقتصاداً وثقافة.

○ أكاد أجزم بأن الوجه النظري للهزيمة يتمثل فكرياً في اشاعة الوعي الزائف، بل افقاد الوعي الموضوعي، وسيادة اللاعقلانية، والنظرة التجزيئية، والذاتية النفعية، والروح الاستهلاكية بغير رصيد انتاجي، فضلا عن روح التسطح والتعالي الفردي والسلبية واليأس والاغتراب وكراهية الفكر العلمي او تقديمه تقديماً اسطورياً أو إجرائياً، وتشويه المفاهيم والقيم الاشتراكية. كما يتمثل هذا الوجه النظري للهزيمة سياسياً في تغييب الطبيعة الامبريالية العدوانية الاستغلالية للولايات المتحدة الامريكية وإبرازها باعتبارها مجرد دولة كبرى صديقة في يدها الاوراق الاساسية الحاسمة للعبة السياسية؛ نعم قد تكون في سياستها أخطاء ونواقص ولكنها أخطاء ونواقص جزئية، او بسبب ضغط «اللوبي» اليهودي ليس الا، ويمكن بضغطنا ان نغير او نقلل من هذه النواقص والأخطاء وكذلك الامر بالنسبة لاسرائيل، فهناك تغييب لطبيعتها الصهيونية، وإبراز الصراع معها كأنما هو مجرد صراع مع حكومة متشددة فيها هي حكومة بيجن وشارون. فضلا عن محاولة التضخيم الوهمي للخلاف بينها وبين الولايات المتحدة الامريكية الى حد التناقض الحاد! اما في الطرف الآخر، فهناك الاتحاد السوفياتي، الذي يصوَّر دائماً في صورة العدو «رقم واحد» والخطر الاساسي، أولا لإلحاديته، وثانيا لتطلعه لبسط نفوذه!؟ وهكذا تصبح القضية الافغانستانية فضلا عن البولونية التي من أبرز المعارك الاعلامية تغذي العداء للاتحاد السوفيتي وتشكك في نواياه ومواقفه المساندة والمؤيدة للنضال العربي عامة والفلسطيني خاصة. وهكذا الشأن بالنسبة لبقية البلاد الاشتراكية وللقوى الديمقراطية والثورية في العالم.

حتى المفهوم القومي لم يسلم من تشويه وتزييف نتيجة للممارسات العلوية البيرقراطية الخالية من الديمقراطية، والزاخرة بشتى الوان التسلط واهدار كرامة الانسان الوطنية والقومية والثقافية، بل اتخاذ القيم القومية ستاراً لإخفاء وتحقيق اهداف اقليمية شوفينية ضيقة.

○ إن هزيمة الهزيمة ينبغي ان تتم في وجهيها العملي والنظري في آن واحد. ولسنا نبدأ من فراغ، أو من نقطة الصفر. ان ما تم في مصر، أو في لبنان، وما يتم على مستوى الوطن العربي كله، ليس نهاية مرحلة تستدعي بداية مستجدة، بل هي حلقة من حلقات معركة متصلة. ففي قلب ما حدث ويحدث في مصر ولبنان وفي مختلف انحاء وطننا العربي كانت وما تزال تحتدم صراعات وتتألّق بطولات. المهم أن نفهم حقيقة

هذا الصراع، وان ننخرط فيه فكرياً وتنظيمياً. إن الهزيمة التي نتحدث عنها هي — رغم كل شيء — تعبير عن احتدام وتفجّر في الصراع الطبقي والنضال الوطني العربيين اللذين يتناسجان معاً في معركة حاسمة من ان الثورة العربية تخوض منذ سنوات مرحلة حاسمة من مراحلها، هي مرحلة استكمال انجاز ثورتها الوطنية الديمقراطية في طريق التحول الاشتراكي. لقد أثبت صراع العشرينات والثلاثينات من هذا القرن فشل الفئات الاقطاعية — البورجوازية في قيادة حركة التحرر الوطني العربي. كما اثبت صراع الخمسينات والستينات عجز البورجوازيات الصغيرة العربية عن مواصلة حركة التحرر الوطني العربية بثبات وحسم، وليس ما نشاهده اليوم ارتداداً في حركة الثورة العربية بقدر ما هو تعبير عن هجمة شرسة للقوى الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية، نتيجة لبداية بروز قيادة طبقية جديدة لحركة الثورة العربية هي الطبقة العاملة العربية — التي اخذت تنخرط في عملية النضال. ولهذا اخذت وعياً وتقديماً الفئات الريفية والطفيلية من الرأسمالية العربية ترتبط ارتباط تبعية وولاء بالامبريالية الامريكية حماية ودفاعاً عن مصالحها المشتركة، في مواجهة النضال والوعي الصاعدين لقوى الثورة العربية وفي مقدمتها الطبقة العاملة العربية وأحزابها الشيوعية.

وهكذا يحتدم الصراع احتداماً لا مثيل له في وطننا العربي، ولهذا تتجاوز بعض الشرائح من البورجوازية العربية كل حد في خيانتها السافرة وعمالتها المباشرة للامبريالية والصهيونية. لكن ما تزال بين صفوف البورجوازيات العربية فئات وشرائح تتناقض بمستوى او آخر مع هذا المشروع الامبريالي الصهيوني الرجعي، وهي تشارك بفاعلية في النضال الثوري الدائر. ان انتهاء تفردها بالدور القيادي للثورة العربية، لا ينهي دورها النضالي في الثورة العربية. وقيادة الطبقة العاملة لهذه الثورة ليست قيادة تفرض فرضاً بانقلابات علوية كما فعلت البورجوازيات الصغيرة في الاربعينات والخمسينات. وانما تنمو هذه القيادة بالجدارة النضالية وبالعمل الديمقراطي الدؤوب، والكفاءة في خدمة الجماهير العربية العربية وحل مشاكلها وتحقيق اهدافها.

والمعركة بين هذه الكتلة الثورية الجديدة المتحالفة الصاعدة في قلب النضال العربي وبين الكتلة الامبريالية الصهيونية الرجعية تتم على الوجهين او المستويين العملي والنظري. ولعل الجانب النظري او الايديولوجي ان يكون أخطر الجوانب في المعارك المحتدمة اليوم، بين قوى الثورة وقوى الثورة المضادة. فالامبريالية والصهيونية والرجعية العربية لا تنتصر على الثورة، ولا تسود بالعدوان المباشر، او القمع فحسب، وانما بتسويد واشاعة الوعي الزائف والايديولوجية الفاسدة بين الجماهير. وهنا يبرز دور المثقفين الثوريين العرب في أشدّ المراحل الحاحاً وحاجة الى فاعليتهم ونضالهم.

O إن الدعوة الى ثورة ثقافية مباشرة — كما يحلو للبعض ان يفعل — دعوة باطلة. لا سبيل الى ثورة ثقافية قبل سيطرة القوى الثورية على السلطة. ان الثورة الثقافية هي تغيير للهياكل والأبنية التشريعية والفكرية والثقافية والسلوكية والذوقيّة.. الى آخر ذلك. وهذا لن يتم عملياً إلا من خلال سلطة ثورية. ولكن المطلوب اليوم وغداً — وهو ما هو متحقق بالفعل، ولكن المطلوب مضاعفة الجهود من أجله — هو إشاعة الثقافة الثورية وهزيمة الفكر التبريري، اللاعقلاني، الاستسلامي، واشاعة العقلانية، وتأصيل الفكر العلمي نظرياً وتطبيقياً على واقعنا. ولسنا نبدأ كذلك من فراغ. بل لعل الثقافة العربية الراهنة عامة عنصر من اشد العناصر فعالية في النضال العربي الوطني والقومي والاجتماعي المحتدم اليوم. بل أكاد استشعر — كما اشرت في حديث قديم لا أدري أين — اننا في بداية عصر نهضة جديد. هناك ملامح لنضج وابداع فكري في مختلف المجالات السياسية والفلسفية والاقتصادقة والادبية، يتواكب مع بروز ونضج مرحلة نضالية جديدة.

على أن المهم هو ربط هذا الابداع الثقافي الجديد بالوعي الجماهيري، ارتفاعاً بالوعي الجماهيري وتعميقاً للابداع الثقافي نفسه.

O ترتفع بعض الكتابات هذه الايام بالدعوة الى نقد العقل العربي.. انها دعوة مجردة غير موضوعية وغير تاريخية، فماهو المقصود بالعقل العربي؟

فليس هناك عقل عربي واحد، بل هناك تيارات فكرية متعددة مختلفة. ينبغي بالفعل ان نمارس النقد ضد التيارات اللاعقلانية والتجزيئية والهامشية خلال نقد موضوعي علمي للواقع الاجتماعي نفسه. ولكن ينبغي ان نجمع بين هذا النقد النظري والنقد التطبيقي في سياق النضال الجماهيري نفسه كذلك، فلا نكتفي بتجريدات نظرية معلقة.

ـ فلترتفع ولتعمق ممارساتنا ممارساتنا النقدية والابداعية والنضالية فكراً وممارسة.

ـ وليرتبط فعلنا الثقافي باحتياجات النضال الشعبي والوطني والاجتماعي والقومي وممارساته العملية.

ـ وليكن نضالنا من اجل الديمقراطية،من اجل حرية التعبير، حرية الابداع،

حرية النضال السياسي، على رأس ممارساتنا، بل مصادماتنا.

ـ ولتتنوع اجتهاداتناالفكرية والسياسية كمثقفين، ولكن تتوحد في اطار العداء للامبريالية الامريكية والصهيونية والرجعية ومن اجل وطن عربي متحرر متقدم ديمقراطي موحد.

لا يأس مع الوعي الموضوعي، ولا استسلام مع النضال الجماعي، ولا سبيل للخروج من الهزيمة الا بهزيمتها فكرياً وعملياً، بالانخراط في الفعل السياسي الاجتماعي الثوري. في الفعل التاريخي.

لا... اننا لا نبدأ من فراغ ايها الزملاء الاعزاء، وانما نواصل نضالات وابداعات المثقفين العرب في مختلف المواقع والمواقف، والساحات السجون في وطننا العربي.

ولكن ما أحوجنا مع ذلك الى لقاء كبير، لقاء ديمقراطي حي يجمع المثقفين العرب في مؤتمر عام بعيداً عن وصاية الانظمة، لتبادل الرأي وتجديد العهد، وتحديد الخطوات الجديدة في المسيرة المستمرة...

وشكراً.. «للآداب»

باريس

... إلا بالديموقراطية!

أحمد عبد المعطي حجازي

اذا كانت هزيمة ١٩٦٧ قد اضطرتنا الى ان نعيد النظر في الناصرية وفي الافكار التي قامت عليها أو تحالفت معها، فمن الطبيعي ان تضطرنا الهزيمة الاخيرة الى أن نعيد النظر في الافكار التي سادت خلال السنوات الماضية. لقد كنا في الناصرية ننطلق من المبادىء الثلاثة الآتية:

١ ـ أن ما يراه المثقفون هو الواقع وهو ما تريده الجماهير.

٢ ـ أن الجماهير مستعدة للثورة ولا تنقصها الا القيادة.

٣ ـ ان الزعامة الفردية قادرة على اصلاح ما افسده الدهر وتجاوز مراحل الزمن.

ولقد جابهتنا الهزيمة بالاسئلة الآتية:

١ ـ من أين لنا الادعاء بأن ما نتصوره أهدافاً للجماهير هو أهدافها فعلا، طالما نحن بعيدون عن هذه الجماهير او مبعدون عنها؟

٢ ـ هل هناك وحدة فعلية قائمة بين العرب رغم التجزئة السياسية بحيث لا يحتاج الامر الا لإعلان الوحدة؟ ام ان الواقع العربي مجزأ في كل شيء، ولا يوجد من مظاهر الوحدة الا الرغبة في قيامها، وهي لن تقوم بالاعلان وانما بعمل مبرمج؟

٣ ـ هل قضيتنا الأولى في الاقتصاد هي الاشتراكية ام أنها التنمية قبل كل شيء. فقيام القطاع العام ليس هو النهاية وانما هو البداية. وحين يفشل القطاع العام في تحقيق التنمية فقد فشل في كل شيء؟

٤ ـ هل أعلنّا الجمهوريات لنحرر ارادة الجماهير من أية ارادة فوقها، أم كنا نقصد تغيير الاشكال فحسب، ليكون لنا ملوك بألقاب رؤساء الجمهوريات؟

٥ ـ هل افادنا تقديس الذات ومقاطعة الآخرين واحتقارهم؟ وهل يتفق تنزيه الماضي مع السعي لدخول المستقبل؟

تلك بعض الاسئلة التي واجهتنا بعد هزيمة ١٩٦٧. فماذا فعلنا لنتجاوزها ونصلح ما أفسدته الناصرية؟

لقد تحولنا الى العكس تماماً، فلم نبرح المكان:

١ ـ أعلنا أهدافاً للثورة أكثر جذرية، وتحدثنا بصوت أعلى عن صراع الطبقات وعن سلطة الحزب، وعن الحرب الشعبية. وكنا لا نزال في تصاعدنا بعيداً عن الناس.

٢ ـ ظهرت القصائد والكتب والدراسات تسخِّف التراث العربي وتتهم العقل العربي بالرجعية والغيبة والتخلف.

٣ ـ تخلينا مرة واحدة عن تصلّبنا ازاء الاخرين، وبدل أن نحترمهم ونحترم أنفسنا معهم، أصبح تخلفنا ميزة لهم وأصبح تقدمهم دليلاً ضدنا.

٤ ـ انقلب إعجابنا بعضنا بالبعض الى اتهامات متبادلة وتوالت اعلانات الانفصال قبل ان تبدأ الوحدة.

٥ ـ تبادل رجعيو الامس وتقدّميّو أماكنهم.

٦ ـ انسحب العمل الوطني من الشوارع الى مقاهي النخبة وصالوناتها، ومن المؤسسات العلنية الى الأحزاب السرية والجماعات المسلحة.

٧ ـ استمرت درجة التجزئة في الانخفاض، فبدل ان كانت تجزئة بين الأقطار، صارت تجزئة داخل الأقطار، وبدل ان كنا نستنكر الكلام عن شعوب عربية اصبحنا نتكلم عن الطوائف الدينية ونقسم المدينة الواحدة الى شرقية وغربية.

وها نحن نجد أنفسنا مرة أخرى في المكان ذاته. انها ليست هزيمة أخرى، بل هي الهزيمة نفسها. لأننا لم نغير شيئاً بعد ١٩٦٧. لقد غيرنا الأسماء او الالوان، لكننا لم نغير الجوهر. او كما يقول علماء الاجتماع المعاصرون لم نغير البنية.

إن أفكارنا واحدة مهما اختلف المظهر وقامت المعارك والمناقشات. أحزابنا واحدة ولو كان بعضها في السلطة وبعضها في السجون والمعتقلات.

○ إن هناك منطلقاً واحداً يجمع بين كل التيارات الفكرية والسياسية هو الاعتقاد والاطلاق والتعميم.

○ سمة أخرى تجمعها هي النخبوية والانغلاق واتهام الآخر ومقاطعته واضطهاده.

○ سمة ثالثة هي سهولة النفاذ من شعار الى آخر، من عقيدة الى أخرى، على مستوى الأفراد، وعلى مستوى المؤسسات، فكل شيء مجاني.

○ كلها تلتقي في فكرة الخلاص عن غير الطريق الديمقراطي، أي عن طريق المستبد العادل الذي يمكن ان يكون فرداً أو مجموعة.

نحن اذن نعيش الهزيمة حتى قبل أن تقع الهزيمة، وسوف نعيشها حتى نخرج من أسبابها الجوهرية، أعني أن نغير البنية. ولن نغير البنية الا بالديمقراطية، ولا ديمقراطية الا في تعدد الأحزاب، وحرية الصحافة، وتبادل السلطة عن طريق الاقتراع العام.

باريس



خطاب الفكر وخطاب المال

أدونيس

يثير هذا السؤال قضيّةً تفترض سؤالاً آخر أوّلياً: هل في الحاضر العربيّ شروط اجتماعية ـ سياسيّة تسمح بنشوء «ثقافةٍ جديدة» وبأن يكون لها «دور جديد»؟ أو، بصيغةٍ أخرى: هل يمكن، في المجتمع العربيّ اليوم، البحث بحريّةٍ عن الحقيقة والافصاح عنها بحريّة، في ظلّ الأوضاع السياسيّة ـ الاقتصادية السائدة؟

من هنا أرى أنّه لا معنى للإجابة عن هذا السؤال المطروح، أي للتفكير فيما بعد «الهزيمة» والتطلّع نحو وضع آخر يقدر فيه الفرد أن يمارس حقّه الطبيعي في العمل والقول، إذا لم تكن هذه الإجابة قائمةً على فهم الطبيعة الثقافية العربيّة في المرحلة التاريخيّة الراهنة. ولكي يتمّ هذا الفهم لا بدّ من تحليل «الشروط» الثقافية السائدة قبل الكلام على الثقافة ودورها ـ إذ ربّما يتبيّن في هذا التحليل أنّ الشرط الأول لحياةٍ عربيّة سويّة (قبل الثقافة والسّياسة) هو الاعتراف بإنسانيّة الإنسان وبحقوقه.

غير أنني أودّ أن أستبق هذا التّحليل (الذي نعرف جميعاً أنه ليس سهلاً، وأنّه يتطلّب، ذاتياً، العمق المحيط والجرأة المبادرة، ويتطلّب موضوعياً، إيماناً كاملاً بحريّة البحث والتّعبير، واحتراماً كاملاً لحقّ الانسان في ممارسة هذه الحريّة) ـ أقول: أودّ أن أستبقه، مشيراً بتبسيطٍ وإيجاز، إلى أن الثقافة العربيّة السّائدة نوعان:

١ ـ «قديمة» تتمثّل في الجامعة ومعاهد التّربية والتّعليم، بشكلٍ عام. وممثلو هذه الثّقافة يشرحون الموروث، أو يعيدون إنتاجيه، تعليقاً وتحشية: لا يبدعون في المناهج التي يتّبعونها، ولا يطرحون منظوراتٍ مُغايرة.

٢ ـ و «حديثة» تتمثّل في الإعلام، وسائل وغايات. (أستثني هنا، عامداً، الثّقافة ـ الزيّ، والتي تتمثّل، بخاصّةٍ، في الفنون، والتي لا جذور لها، أي لا قيمة لها، على الرغم من حضورها (المتواصل). وممثلو ثقافة الإعلام هم، بعَامّةٍ، وظيفيون ونتاجهم هو كذلك وظيفيّ لخدمة السّلطة وسياساتها.

الأُولى محفوظات تتراكم، وهيَ غيرُ فعّالة. والثانية سطحيّة حتى الابتذال، لكنها مع ذلك فعّالة. إنها، عملياً، الثقافة السّائدة. ونرى أنّ هيمنتها آخذةٌ في الازدياد ـ وها هي تحوِّل الكلامَ إلى بضاعة، وتوحّد بين خطاب الفكر وخطاب المال، وتزدادُ إمعاناً، بسبب من ذلك، في القضاء على وعي الحريّة وعلى حريّة الوعي، وتشكّل، في النتيجة، ما يصحّ أن نسميه بـ «ثقافة القضاء على الثقافة».

وإذا أضفنا الى هذه الثقافة «الحديثة»، السّلطة التي تُعمّمها، والثروة التي تُنفق عليها، يتشكّل ثالوثٌ من السّلطات يمكن أن نقول عنه بأنه يمارس في الحياة العربيّة نوعاً من «الاستعمار الداخلي». هكذا لا يبدو غريباً ما يجري على أرض الواقع: بقدر ما تكثر وسائل هذه الثقافة، ويكثر موظفوها، يتّسع مدى القمع، وتضيق فسحة الحريّة، وفسحة الإفصاح عن الحقيقة ـ إن كان قد بقي مجالٌ أو هامشٌ للبحث عنها أو لِلهَجْسِ بها. كأنّك أيّها الفردُ العربي، معاصر: لستَ قادراً علـى القرار، ولست قادراً على الفرار. بل أنتَ حَقّاً في الفخّ ـ في غابةٍ من السّلطات تَنْغلِقُ بإحكام على «الداخل»، لكنّها تَنْفتح بهيام على «الخارج». ويتأكّد لمن يتأمّل في ثقافة هذه السّلطات، وسلطات هذه الثّقافة، أن كل شيء يجري في المجتمع العربي كأنه يكافِحُ ضدّ نفسه ـ ضدّ وجوده ومصيره، في ما يُشبه عُصابَ التّدمير الذاتي.

في ضـوء مـا تقـدم، أودّ أن أؤكـد، فيمـا يتعلق بـإشارة السّؤال المطـروح الى «ثقافـة المستقبـل»، عـلى مبـدأين لا ثقافـة، بل لا حيـاة إنسانيـة سـويّـة في أيّ مجتمعٍ لا ينهض عليهما، كيانياً.

١ ــ **الأوّل هو الممارسة الديمقراطية**. ومن جوهر هذه الممارسة الوعيُ أنّ الدّيموقراطية ليست مُعطاة، وأنّها ليست وَصْفةً جاهزة. فالممارسة الدّيموقراطية شكلٌ من الإبداع، وهي كمثل الإبداع لا حدود لها. إنّها الحياة تُبتكر باستمرار. ولهذا لا يشيخ الصّراع من أجل الديموقراطية وفيها. إنه، على العكس، جديدٌ دائماً.

واستناداً إلى هذا المبدأ نرى أن المجتمع، أي مجتمع، إنّما يتحدّد بمفهومه للممارسة الديموقراطية وللصراع الديموقراطي، وبالمستوى الذي يُعطيه لهذا الصّراع. خصوصاً أنّ المجتمع الحيّ، كلّ مجتمع حيّ، إنما هو وَحْدة الانسان المتعدّد المختلف، لا وحدة الفَرْد المُتشابه القطيعيّ. إنّ مجتمع العقيدة الواحدة، والحزب الواحد، والفكر الواحد، والرأي الواحد ليس إلّا سجناً سواءٌ تأسّس هذا المجتمع على الدين أو القوميّة أو الاشتراكيّة. إنه المجتمع الذي يُسامُ ويُقادُ من حيث أنّه اكتمالٌ موحّد، دون تناقض. ومثل هذا المجتمع أقرب إلى أن يكون مجتمع الحجر، لا مجتمعَ البشر.

إنّ غياب الوعي الذي أشرت إليه أيضاً، في المجتمع العربي، ولّد ظواهرَ خطيرة لا تشوّه الثقافة وحدها، وإنما تشوّه الانسانَ أيضاً. أذكر من هذه الظواهر أنّ المهيمنين على الثقافة العربيّة يعملون، لكي ينْفُوا الانقسام أو التعدّد، على مزج سلطة الدولة بالسلطة الدّينية أو الاقتصادية، أو بِها معاً، وعلى التّوحيد بين الشعب والفئة الحاكمة، وبين الفئة الحاكمة وقيادتها الملهمة المطلقة. وهم، لكي يقودوا هذه «الوحدة»، يخترعون عدوّاً دائماً: العميل، المعارض، المخرّب، المنحرف، الشعوبيّ... الخ. هكذا «يصنعون» ثقافةً هي بمثابة عباءةٍ واحدة لأجسام كثيرة متباينة. وهي نقيض الثقافة الانسانية الحيّة ألتي هي فضاءٌ لكلٍّ فيه هواؤه الخاص ــ الثّقافة التي من جوهرها التعارضُ والاحتجاجُ والاختلاف، وتخطّي جميع أشكال الاستمرارية التقليديّة الاكراهيّة، فالثقافة الحية هي تأسيس الفروقات، أو هي التي تنطلق، بتعبير آخر، في نظرتها الى الشعب، من التوكيد على أنه لا يمكن تحديده كجسم واحد متناغم، أو كوحدة جوهرية.

وأذكر من هذه الظواهر أنّ الثقافة السّائدة تضع السلطة في طرف، ومَن لا يخضع لها ويتبعها في طرفٍ آخر ــ وفي موضع اتّهام. الطّرف الأول هو الحق، والثاني هو الباطل ــ مجرم بالفعل، أو مجرمٌ بالقوّة. وفي هذا يجد الإنسان نفسه أمام أحد اختيارين: إمّا قبول النظام السائد والخضوع لسلطته، وإمّا اللجوء الى عنفٍ مقابل، توهّماً أو ظناً أنّه سبيل الخلاص.

وأذكر من هذه الظواهر أنه لم يعد للعامل أو الفلّاح، وباختصار للفرد المدني أي دَوْرٍ فعّال في حركة إنماء المجتمع وتغييره وتفجيرِ طاقاته، وإنما استأثر بالأدوار كلّها فَرْدان: العسكريّ المُعلَن، والعسكريّ المقنّع. الأوّل هو الذي يحكم، والثاني هو الذي يُفتي. وليست الثقافة هنا إلّا نوعاً مِن «التفقّه العَسْكري»؛ والمثقف المنخرط في النظام السائد إنما هو، تبعاً لذلك، «فقيه عَسْكريّ».

ولعلّ في هذه الظواهر ما يُوضح كيف أنّ «الثورة» في المجتمع العربي، أو ما سمّيناه كذلك، بدت في أحيانٍ كثيرة أنها ليست إلّا انفجاراً تدميرياً للذات: ليس فيها فرحٌ أو عيدٌ أو تحرّرٌ، أو تغيّر كيانيّ، وأنّها عنفٌ مّجانيّ أعمى، وأنها جاءت لكي تؤكد ما استمدت مسوّغاتها من الانتفاضِ عليه، وأنّها في النتيجة قالت نعم لما زعمت أصلاً أنها جاءت لتقول له لا

وربّما يُفسِّر لنا هذا الوضع كيف أن التعارض الواضح، مبدئياً، بين الرجعية والتقدمية يفقد حدوده، أو ينعكس أحياناً، وكيف أنّ التشكيكَ في الثورة لم يجيء من خارجها بقدر ما جاء، على العكس، من داخلها ذاته.

٢ ــ أمّا المبدأ الثاني فمرتبط بالأوّل، عضوياً، وهو ما أسميه بـ «نَـزْع المشروطية»، وأقصد نزع الشّروط المفروضة من خارج، على التفكير وطرائقه واستقصاءاته وغاياته ــ وبخاصةٍ الشروط السياسية والمذهبيّة ــ الدّينية.

ويهمّني أن أشير هنا إلى أنني لا أدعو في ذلك إلى نَبْذ السياسة في العمل الثقافي، وإنما أدعو الى وَعْي أنّ الثقافة السياسية بمعناها العميق، ليست تلك التي تبشّر بسياسة النّظام أو بالإيديولوجيّة التي ينهض عليها، وإنما هي الثقافة التي تؤسّس مدينةَ الانسان ومدنيّته، وهي ما تطرح مبادىء الحقّ السياسيّ، وتؤسّس الدولة عليها.

كذلك لا أدعو إلى نبذ الدّين، وإنما أدعو إلى رفض الهيمنة على الحياة والفكر، باسم الدفاع عن الدّين. إن مهمة الإنسان، في هذا الصدّد، هي حراسة الإنسان؛ والله وحده حارسٌ لدينه.

في مناخ هذا الوعي يمكن أن نتلمسّ طريقنا نحو ثقافة المستقبل: الثقافة التي تنطلق من موقفٍ نقديّ جذريّ، وتقوم على بنيةٍ معرفيّة مغايرة.

ولكي يـأخذ هـذا الـوعي مُتّجهـاً عمليّـاً، أودّ أن أفضل المبدأين السّابقين في أربـع نقاطٍ أرى انـه يتعذّر ان يكـون للمثقّف العـربـيّ دوره تغييـريّ خـلّاق إلّا بـالانطلاق منهـا. وهذه نقـاط كنت قد ركّـزت عليهـا في مناسباتٍ عديدة سـابقة، ولا أجـد أيّ حرجٍ في العـودة إليها من جديد في هذه المناسبة.

أوّلاً ـ الإنسان أكثر أهميّةً من النظريات والمذاهب. فالوحدة، مثلاً، أو الاشتراكية إنما هي وسيلة لغايةٍ هي الإنسان. إنهما من أجل أن يصبح العربيّ أغنى حياة وأصحّ فكراً وأرسخ إنسانيّةً. (ونقيض ذلك هو ما حدث ويحدث حتى الآن).

ثم إنّ هنـاك وحدة ووحـدة. وهناك اشتـراكية واشتراكية. ولا يريد العربي الاشتراكية أو الوحدة إلّا في الشكل والمعنى اللذين يتيحان له تفجير طاقاته إلى أقصى حدودها، ويحقّقان له النموّ والتّكامل في حياةٍ حرّة كريمة. أي ماذا تفيد المناداة بالوحدة لحظة يرى العربي أنه أسيرٌ، مقيّد، ويزداد تجزؤّاً؟ وماذا يفيده شعار الاشتراكيّة حين لا يجد خبزاً أو عملاً أو كتاباً؟ ومعنى ذلك أن على النظرية أن تنطلق من الواقع، لا أن يخضع الواقع للنظرية ـ كما حدث ويحدث. إذ يستحيل تحقيق الوحدة أو الاشتراكية في مجتمع لا يزال في تكوينه الأساسي تيوقراطياً ـ إقطاعياً ـ قبليّاً. إن تحقيق الاشتراكية يستلزم تطوّراً رفيعاً في الحياة والفكر والقيم. وكذلك الشأن في الوحدة. ولا بدّ من أن نعترف أنّ هناك مسافة شاسعة تفصلنا عن هذا التطور، وأننا غالباً لا نزال نتصارع ونبدّد طاقاتِنا بعقليةٍ شبه بدائية حول قضايا شبه بدائية. ولا قيمة للإنسـان في هذا الصراع؛ لا قيمة لفكره، بل لا قيمة لوجوده وحياته، فهو يُقتل بمنطقٍ غابيّ خالص. وحين يهون الإنسان ويحتقر، كياناً، على هذه الشاكلة السائدة ـ تهون جميع القضايا، ولا تعود لها أية قيمة.

ثانياً ـ لا يكفي القضاء «المادّي» على الأسس الاقتصادية المادّية للطبقات الرجعية والاقطاعية والرأسمالية في المجتمع العربي، لكي يتم التّحرر والتقدم، وإنما يجب القضاء كذلك على الأسس الثقافية ـ النفسيّة. ذلك أنّ الإقطاعية ـ الرجعية ـ الرأسمالية إنما هي، في عمقها، «ثقافةٌ»، قبل كلّ شيء. ومن شروط القضاء على هذه الأسس أن يمارس الفكر، في مختلف اتجاهاته وتنويعاته، الحريّة الكاملة نقداً وإبداعاً وتنظيماً.

ثـالثاً ـ لا يجـوز أن ينقلب التمسك بـالنـظام «التقدمي»، عند المثقفين العرب، إلى حماية لأجهزته ومؤسساته وسياساته، ودفاع عنها، ووقوف في وجه النقد الذي يُوجّه إليها. ذلك أنّ الصّراع ضدّ التخلّف الثقافي لا ينتهي بانتهاء التخلّف السياسيّ. وثقافة التخلّف هي التي لا تزال سائدة في المجتمع العربي ـ حتى داخل بعض أنظمته التي ترى نفسها تقدميّة ـ بدءاً بالعائلة وانتهاءً بالجامعة، مروراً بالمدرسة، على الخصوص.

إن استمرار هذه الثقافة هو الذي يمكن أن يفسّر، إلى حدّ كبير، نشوء التناقض بين الأنظمة «التقدمية» وحركيّة التّغيير والتقدّم، من جهة، وبينها وبين الشعب، من جهة ثانية. وفي هذا الاستمرار ما يفسّر أيضاً نشوء طبقة قبلية ـ إقطاعيّة متجدّدة، داخل «النظام التقدميّ»، ذاته.

رابعاً ـ الحريّات الديموقراطية في المجتمع العربي اليوم مطلبٌ ملحٌّ أكثر مما كان في أي وقتٍ مضى. وبقدر ماتختنقفيه الديموقراطية والحرية، سيزداد هو نفسه اختناقاً ـ شعوباً وأنظمةً. وسيكون هذا سلاحاً آخر لقوى الظلام والعبودية، خارجية وداخلية.

بهذا الوعي، يمكن أن يكون للثقافة العربية دورٌ، وللمثقف مكـانٌ وفاعليـة، ويمكن أن نخطّط لثقـافـة المستقبل.

بيروت

المثقفون العرب ودور النعامة...

الدكتور عبدالعزيز المقالح

اخطر من الهزيمة ـ في تقديري ـ هي محاولة اخفاء ابعاد الهزيمة واستعادة الدور المعروف لحيوان النعام. ويبدو ان العرب منذ فترة غير قصيرة ـ وفي طليعتهم مثقفوهم ـ قد استطابوا دور النعام، واقتنعوا به وسيلة لمواجهة التحديات الكبيرة. ومن الواضح ان دور النعام لا يقتصر على الاختفاء من الخطر وانما هو يمتد الى محاولة اقناع النفس باخفائه، وهو باليقين عين ما يفعله ـ ويالالاسف ـ عشرات بل مئات من مثقفي المرحلة الراهنة في الوطن العربي. ومن له قدرة على متابعة احداث السبعينات يدرك تماماً اننا كنا منذ هزيمة ٥ يونيو (حزيران) نعيش في هزيمة مستمرة. وما حدث عشية تلك الهزيمة من تمرد منفعل، يتكرر الآن وأخشى ان يتكرّر الى ان تستكمل الهزيمة فصولها النهائية.

واتذكر بالمناسبة انه قد قيلت اشياء كثيرة عن اسباب تلك الهزيمة، كما قيلت اشياء اكثر عن الهزائم المتعاقبة، وفي مقدمتها رحلة السادات الى القدس، وهي اخطر الهزائم العربية وافظعها لانها الاستجابة المهنية لهزيمة حزيران. وقد كان الاسرائيليون يتحدثون بعد هزيمة حزيران ـ عن توقعهم لهاتف الاستسلام، وكان موشى ديان أو غيره من صقور الصهيونية قد اشار الى انتظاره لصوت عبد الناصر يأتي عبر اسلاك التليفون، لكن عبد الناصر الجريح والشجاع لم يتحدث في التليفون، وشاء ان يكون له مع الاستعمار والصهيونية حديث آخر، غير أنه مات متأثراً بجراحه قبل ان يستكمل اسباب الرد، وترك الفرصة للسادات الذي لم يواصل الاعداد للرد على الهزيمة من منطق الأمة الواحدة ومن منطلق الكرامة الوطنية وانما من موقف الخيانة والتهالك والاستجداء، وكان صك الاستسلام الثمن الأول للهزيمة الاولى وبداية لبقية صكوك الاستسلام والمدخل التراجيدي الى بقية الهزائم..

وما حدث لنا بعد الهزيمة الأم، وما حدث لنا بعد تلاحق الهزائم، وما يحدث لنا الآن ليس سوى التعبير الطبيعي عن دور النعامة الذي مارسه المثقفون العرب بعد الهزيمة الأم، وعن القبول بالعودة الى المغارة بعد اطلاق بعض القصائد الغاضبة والكلمات الحماسية التي لا تحدد ابعاد الخطر ولا توقف مد التدهور. واذا كانت الهزائم المريرة تشوّه بعض النفوس وتخنق الرؤ ية الصحيحة عند بعض المثقفين، فان حزيران وما اعقبها من هزائم لم تشوه نفوس المثقفين العرب وتخنق ابعاد رؤ يتهم وحسب وانما احالت الكثيرين منهم الى شعراء يستهويهم الرمز ويستولي عليهم نوع من التفاؤ ل الطوباوي. ولم يقرأ المواطن العربي ما يجعله يدرك حركة الخطر، ولم تعد مهمة الثقافة هي الكشف وانما التبرير. ولم تحظ الديمقراطية وهي حجر الزاوية لإصلاح ما يعاني منه عرب القرن العشرين بأي جهد يذكر، وظلت الهزيمة كالانتصار من شأن حكم الفرد المطلق..

كما ان ما حدث ويحدث لنا ليس سوى تعبير عن غياب الثقافة الوطنية. لقد ظهرت الثقافة الحزبية واثبتت وجودها، وظهرت ثقافة السلطة الحاكمة واثبتت وجودها، وظهرت ثقافة المعدة، وثقافة المعلومات، وكانت اكثر حضوراً وفعالية. الا ان الثقافة

الوطنية لم تظهر، والثقافة الوطنية ــ في تقديري الخاص ــ لا تتعارض مع الثقافة القومية ولا مع الثقافة الروحية ولا مع الثقافة الانسانية، وانما هي جوهر كل هذه الثقافات، وهي تحمل عقلية شعبها وتكون معجونة بمشاكل الواقع الوطني ومشبعة بهمومه، نابعة من احلام الانسان العادي ومن مشاركته لا من قراءة الكتب والمداولات اللفظية.

لقد اثبت انحدار الواقع العربي الراهن غياب الثقافة الوطنية، كما اثبت ان معظم المثقفين العرب لا يتكلمون لغة وطنهم وانما يرطنون ويرددون شعارات هي في أحسن الاحوال سابقة لأوانها، وهي لا تصنع شيئا سوى استثارة العداء ومساعدة أسوأ ما في الماضي على الانتعاش. ولأنهم كذلك فإن كل مثقف منهم يلتقط على هواه شكلا من اشكال هذه الثقافة المعلقة في الفضاء، ويذهب يفاخر بها المنافسين. والأدهى والأمر في موضوع الثقافة العربية الراهنة ان اصحابها لا يستطيعون الخروج بها الا من خلال حاكم ما، فهم يقدمون له حصيلة تفكيرهم، فإن كان يساريا فالضرورة تستدعي تنظيم وترتيب هذه الافكار بحيث تتلاءم مع يساريته الحاكمة، وان كان وسطياً عالجوا هذه الافكار ايضاً لكي ترضي الوسط، وان كان يمينياً اعدوا الثقافة في المستوى المطلوب. وحتى لا أبالغ في الاساءة الى المثقفين العرب، أعترف ان الذين اشتغلوا منهم في صفوف اليمين قد كانوا قلة لا تذكر، وان معظم ثقافة اليسار العربي العريض قد أهدرت في خدمة حكام يدعون في بداية الامر انهم كذلك، وما تبقى منها قد أهدر في جدل عقيم وعداء عفن فيما بين اليساريين العرب انفسهم، فاليساريون العرب ــ كما هو معروف ــ لم يخرجوا من كتاب واحد، واذا كانوا قد خرجوا من كتاب واحد فقد خرجوا من صفحات مختلفة. ولذلك كان لا بد ان يختلفوا وان يتحاربوا، وان تكون حربهم على انفسهم أشد من حربهم على الاعداء. وبالنسبة لنا، نحن في اليمن، فقد كان الخلاف بين المثقفين انفسهم أشد ضرراً بالحياة السياسية والاجتماعية لم يكن لأية قوة في الارض ان تلحقه بالبلاد، واستطاع واحد من مدّعي اليسار ان يلحق باليسار الوطني ضرراً لم يعرفه منذ بداية تكوينه، وبلغ به التشنج وتطرف الكلمات الى إلحاق الأذى ومحاولة تشويه ادوار بعض من يمكن ان يكونوا أساتذته لو أنه كان يسارياً. حقاً.

وما يحدث في اليمن حدث في اقطار عربية اخرى، حيث اشتغل مثقفو اليسار بأنفسهم وبالصراع مع خصومهم وبتوضيح وتبرير مواقفهم، وانكمش دور الثقافة، وبدأ الجيل الشاب يبتعد عن ثقافة الخصومات والمنازعات ويتراجع نحو الثقافة السلفية ويدير ظهره للثقافة الحديثة بكل نظرياتها وفلسفاتها وبكل ما تدعو اليه من وعي بالاخطار. وفي ظل هذا الامتداد الخطير بدأت صرخات الدعوة الى اعادة النظر وتقييم المسار. وكان بعض هذه الدعوات مشبوها ويدعو الى الخلاص من كل صلة لنا بالعصر ليتمكن الاعداء في ظل الارتداد الشامل من افتراس الارض والانسان، وارتفعت وما تزال ترتفع اصوات صادقة تدعو الى نبذ التعصب والى الحوار مع النفس ومع الآخرين والى الالتزام العميق والواعي بفكر الثقافة الوطنية، فقد تبين ان الحوار مع الثقافة الحديثة والذي تم بالامس القريب لم يكن واعياً ولم يكن الانتماء اليها في معظم الاحيان صادقاً وتعبيراً عن اقتناع داخلي عميق، وانما كان لوناً من المحفوظات ومن النفاق الطلابي، وقد ساعدت الجامعات العربية في ظل الخوف والارهاب على قتل المواهب وقتل الشجاعة الادبية والفكرية واضطرار الطالب الى مجاملة الاساتذة لكي ينجح في نهاية العام. وعندما يترك الجامعة يجد نفسه في جامعة الحياة امام النوع نفسه من اساتذة الوظيفة، وهكذا يسقط في النفاق وفي الانتماءات الكاذبة ويتكاثر الانهيار ويتعاظم الانفصام، وتتحول الوطنية، التي هي جهد وعرق وممارسات يومية في حقول العمل المختلفة، الى مجموعة من الشعارات الجوفاء والبلطجة الوقحة، وتتحول الثقافة من اداة معرفة وتنوير الى كلمات للسباب البذيء والاتهامات المتناقضة، ومن وسيلة تحليل وتفسير لما نعاني من أخطار الى اصوات مفرطة في الذاتية والانانية وتصيّد الأخطاء، ومن نظرية ومنهج الى برامج جامدة ميتة معزولة عن الجماهير ومستعصية على الفهم.

لقد اهتزت صورة المثقف العربي في عيون الجماهير العربية وفي قلوبها، سواء كان هذا المثقف مفكراً أو شاعراً أو صحفياً أو ناقداً أو روائياً، والادهى والأمرّ أن صورة المثقف العربي قد اهتزت في نفسه هو، فقد اثبتت المعوقات انه ليس في مستوى التحدي، وثلاثة ارباع المثقفين العرب الملتزمين مهاجرون عن أقطارهم يتلمسون الراحة او العزاء في أقطار اخرى او في بلاد بعيدة، ويبررون بالهجرة والتشرد فشلهم الذريع عن مواجهة الواقع. نحن نعيش طلائع عصر النهضة، والصمود والاستبسال في التضحية ضريبة لا بد ان يؤديها المثقف النهوضي راضيا مختارا، ولو ان المثقف الاوروبي لم يصمد في بداية عصر النهضة لمحاكم التفتيش، ولم يشعل بدمائه نيران الثورة الفكرية والصناعية لما تغير وجه اوروبا، ولما خرجت من ظلام القرون الوسطى. فهل يستطيع المثقف العربي ان يراجع دوره دون ان يتراجع وان يتعرف من خلال ضميره على نقطة الانطلاق الصحيحة بعيداً عن المزايدات والمناقصات، وبعيداً عن التقليد والانتقائية؟!

ان المثقفين الوطنيين يخرجون من تراب اوطانهم. فهل خرج المثقف العربي من تراب وطنه العربي الكبير، الوطن الواحد ذي اللغة المشتركة

والمصير الواحد ام انه خارج من عباءات الطائفية والقبلية والعشائرية؟ وهل انتماءاته الجديدة من أجل هذا الوطن ام انها اثواب تخفي تحتها مشاعر التمزيق والتبديد؟! لعل نظرة واحدة الى سلوك المثقف العربي، وليس الى اقواله، تجعلنا ندرك ان هذا المثقف لا أمة له، وأنه اقليمي، طائفي، عشائري، يعيش التصدعات الاقليمية والانشقاقات المحلية والمنازعات القبلية صامتاً، وان لم يكن مشاركاً ومباركاً، فكيف له ان يكون مثقفا وان يصير عربياً؟ أين هي قيم الثقافة وهي قيم تحكم مسار المجتمعات وتضع المقاييس والمعايير وتضع الفواصل والحدود بين ما هو عظيم ونبيل وبين ما هو رديء وحقير؟

المطلوب من المثقف العربي الآن، ان كان حقا كذلك، المطلوب منه هدنة مؤقتة عن إذكاء نار الخلافات بين المثقفين لانجاز المهمة الاولى، وهي مهمة تحرير الانسان المسكون بالتعاسة والخوف، وتأكيد وجوده الانساني، وترسيخ ابجديات الديمقراطية لجميع العرب، حتى يشعر كل مواطن عربي، في قلب هذا الوطن او في اقاصيه، بأن الوطن وطنه حقاً، وأنه ينبغي بل يجب الدفاع عنه وافتداؤه «وابتداع البطولات في مقاومة إعدائه. وحتى يتأكد ذلك نكون قد أقمنا جداراً قوياً ومتيناً ضد الهزائم وضد اغتصاب الارض، اما اذا استمر الحال على ما هو عليه، فان الكارثة قادمة والضياع الشامل مؤكد، ولن تستطيع أية ثقافة في الدنيا اقناع مواطن عربي واحد بالوقوف ضد الاستعمار والصهيونية في حين ان سياط الانظمة ــ الوطنية ــ اللاوطنية تلهب ظهره وتسحق وجدانه.

ولأننا ــ نحن عرب القرن العشرين ــ قد تعودنا ان نعقّب على كل ملاحظة، وعلى كل حديث عن كل إشكالية معينة بالسؤال المكرور: وما الحل؟ فانني اقترح نوعاً من الحلول في النقاط التالية:

أولا: العمل على جدولة المهام الاساسية للمثقفين، الأهم فالمهم ودون مبالغة.

ثانياً: الوقوف في وجه ما يمكن تسميته بالمزايدة القاموسية وسيطرة اللفظية على الواقع، وادانة التمرد لذات التمرد والرفض لذات الرفض.

ثالثاً: اعادة النظر في موضوع التحديات التي تواجه الانسان العربي واعطاء الاولوية للتحديات النابعة من التخلف.

رابعاً: ازالة الجفوة المفتعلة بين التراث والعصر، بين الماضي واللحظة الراهنة، لا بقصد اكتشاف الجذور الصحيحة لإقامة أساس متين تقوم عليه الدولة العربية القادمة، وانما لكي نرى كم نحن متخلفون بمقاييس العصور القديمة وليس بمقاييس هذا العصر.

خامساً: محاولة إيجاد علاقة وثيقة بين القول والفعل لكي تصبح الثقافة وسيلة تطوير طبيعي وأداة تعبير عن امكانية الانسان وقدراته الذاتية على التغيير، لا مجرّد توصيف للأحلام والرغبات.

سادساً: الاكبار من شأن الحرية ووضعها في مكانها الصحيح من الضرورة البشرية التي لا بد من توافرها بشروطها الصحيحة كأهم عامل من عوامل حماية الروح المعنوية للانسان وأعلى حافز للابداع والابتكار.

سابعاً: ان يفرق المثقفون بين ما هو حلم وتوق ومستقبلي أو (شاعري) وبين ما هو ممكن وضروري (واقعي) فقد قفزت بهم الاحلام والصبوات وانقطعت بهم ثقافتهم المتقدمة عن ثقافة مواطنيهم فذهب بعضهم يبحث له عن وطن يتلاءم مع ثقافته ومستوى وعيه، بعيداً هناك في لندن وباريس، وتحت مبررات الضغط المعاكس من جانب الواقع والاضطهاد القمعي السائد.

ثامناً: البراعة في محاكمة النفس كالبراعة في محاكمة الغير، فالمثقفون العرب بارعون جداً في نقد الآخرين ومحاكمتهم ولكنهم امام الذات عاجزون.

تاسعاً: اعادة الثقة الى الكلمة باعتبارها صوت الضمير وقاعدة التنوير والتسامح.

عبد العزيز المقالح
مدير جامعة صنعاء مركز
الدراسات والبحوث اليمني

الثقافة العربية الجديدة
ودورها في تجنيب سلبيات الهزيمة

عبد الكريم غلاب

ليست الهزيمة الأولى تلك التي تعرضت لها الأمة العربية في لبنان. ولكنها سلسلة من الهزائم. ولم تكن أولاها سنة 1948. وانما بدأت الهزائم قبل ذلك منذ التصور العربي للصراع بين العربية والصهيونية. منذ وعد بلفور على الأخص ــ وقد بدأ الوعي العربي يستيقظ ــ كان التصور بدائياً. ومن هذه البدائية بدأت بدأت سلسلة الهزائم.

كان الوطن العربي مستعمراً سياسياً وعسكرياً، ولكنه أكثر من ذلك وأخطر كان مستلباً فكرياً وثقافياً. ولم يكن المثقفون العرب ــ على الأخص ــ ولا السياسيون يعرفون شيئاً عن الفكرة الصهيونية، ولا عن المخطط الاستعماري لاحلال الجسم الغريب وسط الامة العربية والعالم الاسلامي، لا ليكون الركيزة الدائمة للاستعمار في منطقة استراتيجية خطيرة ومهمة فحسب، ولكن كذلك ليقف في وجه كل تكتل وحدة بين افريقيا العربية والمسلمة وآسيا العربية والمسلمة قد يخلف الخلافة المحتضرة.

كان هذا هو الهدف من الاقتراح الذي خرجت به الندوة الانجليزية التي أوحت بتنظيمها حكومة لندن، لتحديد مستقبل هذه المنطقة، التي كانت تهم انجلترا بمقدار ما يهمها مستقبل الامبراطورية البريطانية. خرجت الندوة باقتراح إنشاء جسم غريب يعتمد على الصهيونية كحركة عنصرية تستغل الدين الذي يمكن أن يواجه الديانتين السماويتين الغالبتين في الوطن العربي والاسلامي بالشرق الأوسط وافريقيا.

المثقفون العرب كانوا في غيبة عما يدبر للأمة العربية والاسلامية. ويوم بدأوا يشعرون ــ الفلسطينيون منهم على الأخص ــ بخطر الهجرة اليهودية المنظمة والتي يدعمها الاستعمار أخذوا الموضوع من جانبه الضيق: جالية تتكاثر في وسط الشعب العربي الفلسطيني الذي يملأ أرض فلسطين.

الوعي الثقافي بخطورة الحملة الصهيونية كان منعدماً.

وتلك هي الهزيمة الأولى في سلسلة الهزائم العربية.

وربما كانت الهزيمة الثانية هي الاستلاب الوطني ازاء الغزو الاستعماري.

لا أحتاج ان أذكر ان المسؤولين السياسيين كانوا ــ الى حدود الخمسينات ــ لعبة، ــ أغلبيتهم ــ في يد الاستعمار. بل كانت لندن أو باريس هي التي تنصب الحاكمين وتختار الوزراء و«تنتخب» أعضاء المجالس النيابية. واذا كانت مسؤولية هؤلاء في الهزيمة محدودة لأنهم كانوا في غير مستوى المسؤولية، فان المثقفين العرب كانوا في غفلة عن الشعور الشمولي بالمسؤولية. ولم يكونوا يقومون بأي دور في التوعية الفكرية. بل لم يكن لهم أفق فكري وثقافي. كانوا يجترّون الماضي، ويعيشون في حاضر مضبّب، أكثرهم علماً وأقواهم عارضة يكتفي بترديد ما قد يقرأ من أدب أو تاريخ في لغته أو في غير لغته اذا ما تعلم لغة أخرى.

دور سلبي للمثقفين العرب كان هزيمة أخرى.

وبدأت الهزائم «السلاحية» تحيق بالشعب الفلسطيني ــ منذ الثلاثينات ــ وهو يقاوم وحده الاستعمار الانجليزي «والهجرة» اليهودية. ولم يكن الوطن العربي يضع هذه «الهجرة» موضعها الحقيقي. ولذلك كان شعب فلسطين يخوض المعارك التظاهرية والثورية أحياناً. وتخمد القوات الانجليزية هذه الثورات والتظاهرات ليعدها التاريخ في أمجاد شعب فلسطين... في الوقت الذي كانت فيه الصهيونية العالمية تنظم نفسها ــ رغم النازية والحرب ــ لاكتساح فلسطين...

كان المثقفون العرب في غفلة عن ذلك. وهذه هزيمة أخرى.

في الحرب العربية ــ الصهيونية الأولى سنة 1948 كان السياسيون وأصحاب القرار منهزمين نفسياً. كان بعضهم يعتمد على الضباط الانجليز، وبعضهم يعتمد على القرار الانجليزي، وبعضهم يساهم في الاتجار بالاسلحة الفاسدة ضد جيش بلاده...
وكانت الهزيمة المدبرة الموقوتة.

أخطر من هزيمة السياسيين هزيمة المثقفين الذين كانوا في غيبة عن خطورة الموضوع: بعضهم كان يعتبر الحماس للحرب مغامرة في غير ميدان، بعضهم كان يعتبر الموضوع يهم فلسطين «ومالنا ولفلسطين...»! وأغلبهم لم يكن يشعر حتى واقعياً و«حدثياً» بخطر الصهيونية ــ التي تدعم نفسها هذه المرة «بالشعب» والأرض والحكم والسلاح ــ على الوطن العربي جميعه، وفي مقدمته البلاد المجاورة لفلسطين.

كانت الهزيمة العسكرية. ويمكن ان نقول انها كانت محتملة نظراً للظروف السياسية والعسكرية التي كانت تحيط بالمسؤولين وصانعي القرار. ولكن أخطر منها هزيمة المثقفين الذين انصرفوا بوعيهم عن عمق الهزيمة وآفاقها المستقبلية. وكان أكثرهم شجاعة هو الذي يكتب «بكائية» أو مرثية ــ على غرار مراثي الأندلس ــ وان كانت بكائية منتصف القرن العشرين تستغل فنون القول المختلفة: المقال والقصيدة والقصة والمسرحية.

وتوالت الهزائم 56-67-73-82 والمثقف العربي في الموقف نفسه.

ويوم يجمع أدب الهزيمة ــ على الأقل في ثلث القرن الماضي ــ سيكشف عن هوة خطيرة في الفكر العربي والثقافة العربية مظهرها الاساسي الهجو والمدح والرثاء...

أعتقد أن شعوراً ضميرياً ضامراً كان يراود من حين لآخر المثقفين العرب يوحي لهم أن الثقافة العربية ــ والمثقف الغربي ــ في غير مستوى الهزيمة. ولا رضـــاء

هذا الشعور الضامر كانت الثقافة العربية تصطنع معارك «ضون كيشوتية» بين الرجعيين والتقدميين، بين التقليديين والتحديثيين، بين اليساريين واليمنيين، بين الاشتراكيين والليبراليين... «قطاع» مهم صرف فيه المثقفون طاقاتهم «الابداعية» وأفرغوا كل حماسهم الفكري ليزيدوا الساحة الثقافية تمزقاً، ولتطغى الانانية، بل الانعزالية الفكرية ولينفصل المثقفون عن شعوبهم وهم يعانون معارك السويس أو سيناء والضفة وغزة والجولان أو بيروت والجنوب وصبرا وشاتيلا...

ما هي الهزة التي أحدثتها الهزائم المختلفة في الفكر العربي؟ في المثقف العربي؟ ما هو المنعرج الذي سلكته الثقافة العربية بعد النكبة، او بعد السويس او بعد بيروت، او بعد صبرا وشاتيلا...؟

لعلي قد أجبت!

ولكن السؤال الذي تطرحه مجلة «الآداب» يتعلق بالمستقبل. وفي نظري: لا ايجابيات مستقبل دون رصد سلبيات الماضي... المراجعة واعادة التقويم تتطلب التعرف على معالم الانحراف لمسيرة نضالية عربية ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية والتخلف.

لذلك:
الثقافة العربية الجديدة في حاجة الى تحديد مفهومها اذا اردنا أن نعتمد عليها في الاسهام في الخروج من الهزيمة.

أعتقد اننا جربنا ثقافة الكلمة. وكانت النتيجة هي ما رأينا.

ويجب أن ندرك، فنحول الاتجاه الى ثقافة العقل والعلم، لتكون هذه الثقافة ذات مسؤ ولية للاسهام في الخروج من الهزيمة.

من بين العناصر الأساسية للهزيمة أننا ما زلنا نعتمد على خصومنا وأعدائنا في كل ماله صلة بالعلم: من استخراج قطرة نفط حتى الصاروخ، ومن تحليل لواقع اقتصادنا واقتراح الحلول لجوعنا ـ ونحن الأغنياء ـ الى تخطيط مستقبلنا الاقتصادي. ننشىء جامعات جديدة كل سنة بالوطن العربي ونبدأها بكليات الآداب والحقوق. وهي كليات تصنع ثقافة الكلمة اكثر مما تصنع ثقافة العلم والعقل.

وثقافة الكلمة تقليد عربي اذا صح ان يكون مجزياً في عصر الحرية والثراء الفكري، فليس بمجز في عصر الصراع من أجل البقاء مع الذين يبيدوننا كجنس بالقنابل العنقودية والسلاح الكيماوي...

من المؤسف ان ثقافة الكلمة انحرفت عن مسؤ وليتها فأصبحت مضللة أكثر منها موجهة بالتوعية والخلق والابداع. الكلمة كانت في خدمة سياسة التجهيل والتضليل. وكانت أمتنا العربية تعيش على دقات طبول الكلمة التي لا تحمل الا إلهاب العواطف بالزيف وتضبيب العقل بالجهل. معظم أدبنا ما بين هزيمتي 48 و 81كان يخاطب الاحساسيس المريضة بالكلمات الرنانة المستخرجة من أعماق القواميس المحنطة. وكان المثقفون يدقون الطبل ويستمعون لصداه، فيهزهم ـ أنفسهم ـ الصدى، ويزيد حماسهم لدقات جديدة... وهكذا دخلنا المعارك غير المتكافئة بين جيوش العلم وجيوش الكلمة، بين حماس المقاتل الذي مُلىء عقله قبل أن يبدأ المعركة، وحماس المقاتل الذي شحنت عاطفته، وسقطت طائرة الكلمة في مواجهة طائرة العلم...

الشعب نفسه أصبح مثقفاً عن طريق الاذاعة وما تشحن به عاطفته. ومن المؤسف أن بعض الذين كانوا في مناصب المسؤ ولية واصدار القرار كان حماس الاذاعة هو كل مبلغهم من العلم.

تعود الهزيمة ـ والهزائم ـ اذن الى الدور السلبي المضلل لثقافة الكلمة غير المسؤ ولة.

وكانت أمتنا هي الضحية.

نحن اذن مدعوون أن نعيد النظر في مفهوم الثقافة العربية لنجعلها جديدة لا تعتمد على الكلمة بقدر ما تعتمد على العقل والعلم.

ذلك ان الثقافة دخلت في العصر الحديث ميدان المعركة لا بين الأفكار فحسب، ولكن بين الشعوب والأجناس والدول. والذين يحاربوننا كأمة عربية لا ينظمون قصيدة هجو ـ كما يفعل بعض منا ـ ولكن يجتمعون في مخبر بحث لاكتشاف أخطر سلاح يمكن أن يفرغ مدينة من سكانها في لحظات.

تحول جذري في مفهوم الثقافة هو، اذن، العمل الأولي المطلوب من الوطن العربي، اذا أردناها ثقافة جديدة مسايرة للعصر، فعالة في بناء مستقبل الوطن العربي.

التوجيه الثقافي مسؤ ولية السياسيين.

قد يكون.

ولكنه مسؤ ولية المثقفين في واجهتين:

ـ التوعية بالثقافة العلمية بين جماهير الشباب، وبأهمية التوجيه العلمي للثقافة بين صانعي القرار أنفسهم.

ـ تجميع المثقفين علمياً وتجنيدهم لخدمة المعركة التي تخوضها بلادنا ضد عمليات السحق والإبادة التي يواجهنا بها أعداء الأمة العربية.

ما تزال الثقافة ـ ولنقل التعليم الذي يفضي الى الثقافة ـ مرتبطاً بالعمل وكسب القوت. والواقع أن المشرفين على التربية الوطنية في الوطن العربي يضعون ـ فيما أحسب ـ هذا الهدف أمام مذهبهم وبرامجهم ومخططاتهم. يسعون الى ربط التعليم بالعمل تجنباً للبطالة بين المتعلمين، ووضعاً للتعليم في خدمة التنمية الاقتصادية.

اتجاه سليم قد ينقذ الوطن العربي من جانب من الفوضى، وقد يسهم في التنمية وانقاذ التعليم ـ ولا

أقول المتعلمين ــ من أن يكون طريقاً الى البطالة، أخطر بطالة يمكن أن تواجهها شعوب في طريق النمو.

ولكن لا يكفي في توجيه التعليم أن يكون مخططاً للاسهام في التنمية وتلافي البطالة. فأعداء الأمة العربية أعمق من التخلف الاقتصادي وبطالة المتعلمين. العدو الأول الآن هو استخدام العلم وسيلة لابادة الجنس العربي، والتمكين للتوسع الصهيوني في الوطن العربي. ولهذا كانت الواجهة الأولى (التوعية بالثقافة العلمية) أهم مسؤولية يجب أن يضطلع بها المثقفون بين شباب الجامعات وصانعي القرار من المسؤولين.

والوطن العربي يتوفر على مجموعة من العلماء ذوي خبرة عالية وعالمية. بعضهم في الجامعات العلمية على امتداد هذا الوطن. وبعضهم لا يجدون الممكنات العلمية لاستغلال خبرتهم في استمرار البحث. وبعضهم
يئس من أن يفيد بخبرته في وطنه فهاجر. وتقدم لنا دوائر
الرصد احصاءات مريعة عن العلماء العرب الذين يعملون في الجامعات ومراكز البحث في الدول الأوروبية والأميركية. لعلهم من البطالة في وطنهم فروا. ولعل كرامة العلم أهينت فيهم فهاجروا الى حيث يجد العالم كرامته.

استقطاب هؤلاء وأولئك هي المسؤولية الثانية التي يجب أن يضطلع بها المثقفون في الوطن العربي. لا يكفي في ذلك التجمع في مؤتمر للعلماء يحددون فيه مسؤولياتهم ازاء الثقافة الجديدة في الوطن العربي، وازاء ابتكار النضال بالعلم ضد الصهيونية والاستعمار اللذين يحاربانا بالعلم. الأمر أخطر من مؤتمر عارض يجتمع ليصدر عنه تصور أو توصيات، فهم مدعوون الى أن يضعوا علمهم وخبرتهم في خدمة الأجيال أولا، وفي خدمة دولهم لتطوير الأجهزة الدفاعية ضد عملية الابادة، ابادة الجنس التي يمارسها الاستعمار والصهيونية على الوطن العربي.

اقترح ان تؤسس «جامعة» على مستوى الوطن العربي باشراف منظمة التربية والثقافة والعلوم مثلا لتكون جامعة للدراسات العليا والبحث العلمي تستقطب آلاف العلماء العرب الذين هاجروا لأسباب سياسية أو مادية ويقيمون في دول أوروبية وأميركية يبيعون خبرتهم بأبخس الاسعار. ومن يدري فلعل خبرتهم تعود الى اسرائيل بطريق غير مباشر فتكون ضداً على سلامة وطنهم العربي ومواطنيهم العرب.
من شأن هذه الجامعة المقترحة أن تركز على الأبحاث العلمية التي تشع ثقافة علمية متطورة تسهم في تطور الوطن العربي اقتصادياً وعسكرياً وعلمياً حتى يستطيع أن يصمد للدفاع عن نفسه ضد أية هزيمة محتملة. وما يحتمل له الا الهزائم المتوالية ما دامت اسرائيل جسماً سرطانياً مزروعاً في قلبه مدعوماً بالامبريالية الدولية والاستعمار الجديد.
الجامعة العلمية المقترحة هي التي ستكون ملتقى العلماء مهما يكن الاقليم العربي الذي ينتمون اليه، وهي التي ستبلور الخبرة العربية الموزعة توزع الاقطار العربية، والممزقة تمزق الاقاليم العربية، والمنفية خارج الوطن العربي، لاجئة بعلمها من وطن لا يقدر العلم لأنه مخدر بثقافة الكلمة.
والثقافة العربية الجديدة يجب ان تكون ذات مسؤولية لتفرض نفسها على مختلف الأصعدة العربية. فقد كانت الثقافة ــ والمثقفون ــ تعيش في عزلة عن الحياة وعن مركز المسؤولية. البرج العاجي وما هو بعاج. . . ! ــ كان هو الأمل. المثقفون يعتبرون أنفسهم نخبة مترفعة ترشد وتنتقد وتمدح وتهجو وتبكي عند الضياع. . . وليست هذه هي مسؤولية ثقافة ومثقفين يعيشون في عصر الهزائم.

مسؤولية الفعل وليست مسؤولية الكلمة:
ذلك هو شعار الثقافة العربية العربية الجديدة.
ومعنى هذا أن المثقفين يجب أن يفرضوا أنفسهم وفكرهم في الساحة العربية، ونكرر لا من خلال الشعارات ودق الطبول. ولكن من خلال التنظيمات السياسية والنقابية التي توجه الرأي العام وتفرض أفكارها على الأنظمة الحاكمة.

لم يكن هناك تعايش بين المثقفين وأنظمة الحكم منذ يقظة الوطن العربي، ولا نستثني عصر الهزائم. قد تكون لذلك أسبابه الموضوعية، وفي مقدمتها: ثقافة الكلام. وقد تعود المسؤولية في هذا الطلاق البائن الى هذا الفريق وذاك. ولكنها مسؤولية مشتركة...

مهما يكن فليس مهماً البحث في الماضي، ولكن المهم هو بناء الجسور بين المثقفين العرب والمسؤولين حتى يمكن أن تكون الثقافة الجديدة مسهمة في الخروج من الهزيمة وبناء وطن عربي جديد.

أحب أن ألاحظ في نهاية هذه الفتوى أن الجيل العربي القادم سيكون بعيداً عن اليأس والاستسلام، ذلك ان الهزائم المتوالية التي شهدتها الأجيال المتساكنة في الوطن العربي لم تضع شعوب هذا الوطن على عتبة الاستسلام. ما تزال فيها — رغم خيبات الأمل المريرة — قدرة على المقاومة وعلى البناء. أما الجيل العربي القادم فسيكون قادراً كذلك على الادانة، متخلصاً من كل ظروف اليأس، بعيداً عن كل ما يبعث في روحه الهزيمة واليأس، اذا وضعناه في محيط ثقافي جديد.

والثقافة العلمية الجديدة المشبعة بروح المسؤولية، الشجاعة في مواجهة الانعزالية والتقوقع، كفيلة بترشيد الأجيال ضد كل عوامل اليأس والاستسلام.

الرباط (المغرب)

حول "الثقافة العربية الجديدة" والجيل الصاعد

الدكتور أسعد عبد الرحمن

أي افتراض بأن «الثقافة العربية الجديدة» حقيقة متجسدة فعلا، ناهيك عن دورها في مواجهة اليأس عند الجيل العربي الجديد، أشبه ما يكون بعملية وضع العربة أمام الحصان. ذلك أن افتراضاً كهذا يقوم على اعتبارات، وربما مسلمات، تستحق وتستدعي الفحص والتدقيق بكل ما يطرحه الفحص والتدقيق من أسئلة مشروعة على غرار: هل ثمة ثقافة عامة واحدة في الوطن العربي أم أن هنالك ثقافات؟ وبالتالي، هل ثمة «ثقافة عربية» أم أن هنالك أكثر من «ثقافة» على امتداد رقعة الوطن (أو ربما العالم الواحد المتنوع) العربي؟. وأخيراً: هل أصبحت الثقافة العربية «الجديدة» حقيقة قائمة وملموسة كي يصار، فوراً، الى توظيفها في خدمة المهمات الخاصة بمواجهة اليأس عند الجيل العربي الجديد؟

ودون غوص في تفاصيل نظرية وتاريخية ووقاعية، حول «الثقافة ودورها في المجتمعات» المختلفة (وهذا هو الأساس في اثارة الاسئلة «التشكيكية»، أعلاه)... نكتفي باعلان اتفاقنا مع ما ذهب اليه مفكرون عديدون معيّنون هم — في رأينا — ممثلو «الثقافة العربية الجديدة» التي هي في طريقها الى الانتشار سواء في المدى المتوسط او البعيد. وفي هذا الصدد، نحن نتفق مع اولئك المفكرين في ان الثقافة العامة (بأبعادها المادية والفكرية والروحية الشاملة) ما هي الا جزء عضوي من كل واحد ملتحم تلقائياً بمجمل المعطيات الاقتصادية والسياسية المجتمعية العريضة. كما نتفق معهم — بالتالي — في أن الثقافة ليست ظاهرة خاصة قائمة بذاتها ومن أجل ذاتها ومنفصلة عمّا حولها من حقائق مادية أو شبه مادية موضوعية. وعليه، فإن الثقافة العربية السائدة الآن انما هي ثقافة هجينة متخلفة اساساً، قوامها خليط غريب عجيب من «ثقافات» عدة فيها ما هو عشائري بدائي وما هو اقطاعي وما هو رأسمالي وما هو برجوازي صغير وما هو ثوري علمي، تماماً مثلما أن فيها ما هو عربي (سلفي ومعاصر أو حائر ما بينهما) وما هو غير عربي (غربي استعماري وغربي تقدمي أو غير ذلك). وأخيراً: نتفق مع اولئك المفكرين في أن التجزئة الاقليمية القائمة (بفضل تركة الاستعمار او بجهود النظم السياسية العربية الكيانية الاقليمية الحاكمة) علاوة على ظروف التطور التاريخي غير المتكافىء، أدت جميعاً الى حالة قامت معها، وسادت بفعلها، ثقافات عربية راهنة متخلفة، تفتقر الى التطور الثوري المتماثل والمتساوي. هذا، مع التأكيد على أن أحد أكبر «الينابيع» السلبية لتلك الثقافات مصدره الماء الآسن الذي وردها سواء من مستنقعات الاستعمار الغربي او من مستنقعات الطبقات (وبالأحرى الفئات الضيقة) الحاكمة التابعة لذلك الاستعمار او العاجزة عن الانعتاق من دائرة التبعية له.

وهذا كله، يطرح مسألة «الثقافة العربية الجديدة» باعتبارها مهمة نضالية أكثر منها حقيقة قائمة. وهي مهمة يقع عبؤها — في تقديرنا — على أكتاف «عرب المستقبل» بما يمثلونه من ثقافة مُوَحدة ومُوَحِدة، جديدة وعلمية، غير منفصلة عن الايجابي من التراث وغير مستغربة أو مغتربة، منفتحة على ثقافات العالم وفاعلة

فيها، تقدمية ومستقبلية، ومرتبطة عضوياً بالحلقات الأخرى المكونة للثورة العربية بأبعادها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ومن هنا، فإن انتشار وسيادة ما اصطلح على تسميته بالثقافة العربية «الجديدة» العامة أمر مشروط بوقوع «الثورة الثقافية» والتي هي جزء عضوي من الثورة العربية الشاملة المأمولة.

وحتى اشعار آخر، لا بد من أن يتشكل «البرنامج المرحلي» للمثقفين الثوريين العرب من بنود أبرزها: (١) امتلاك الثقافة الثورية العلمية والعمل على نشرها وعلى نحو متواكب مع (٢) مواجهة «مجموع» الثقافة العربية الهجينة المتخلفة السائدة وكيل الضربات المتوالية لها فكراً وعملا و(٣) التصدي للغزو الثقافي الامبريالي الغربي والصهيوني المتزايد و(٤) مناهضة وقلب النظم السياسية العربية الموغلة في التخلف والعسف والاضطهاد والدكتاتورية (بل والفردية الشخصانية) التابعة للاستعمار على نحو مباشر أو غير مباشر والموظفة أساساً ـ بوعي أو بدون وعي ـ في خدمة المخططات الهادفة محاربة طموحات الجماهير العربية في الحرية والوحدة والديمقراطية الاجتماعية والسياسية و(٦) حماية المثقفين العرب (والثوريين منهم بالذات) من عمليات الاستقطاب (المادية أساساً) الحادة التي يمارسها الامبرياليون من جهة، والنظم الحاكمة من جهة ثانية، وذلك من أجل شراء أو تركيع أو قمع أو تحييد أو استمالة المثقفين العرب.

وهذا «البرنامج المرحلي» هو ـ في تقديرنا ـ المدخل الطبيعي لبناء الجيل العربي الجديد بعيداً عن كل ظروف اليأس وكافة محاولات التيئيس المحمومة التي ما فتيء يتعرض لها ذلك الجيل. وبهذا، تبقى المسألة ـ في جوهرها ـ مسألة نضالية لا تتجمد عند حدود المناشدة او التبشير.

جامعة الكويت

نحو جبهة ثقافية عريضة

الدكتور عبد الرحمن منيف

بعد كل هزيمة، وهي هزائم كثيرة ومتلاحقة، يطرح المطلب نفسه: المراجعة والتقييم، لكننا لم نقم منذ الهزيمة الاولى، وحتى الآن، بالمراجعة الجدّية المطلوبة، ولم نتوصل الى تقييم دقيق وصارم. كنا، ولا نزال، نخدع أنفسنا، نكذب على الآخرين، نموّه الوقائع او نرضى ان تُموّه علينا، ونسير مثل القطيع الى الهزيمة التي تليها!

عام ١٩٤٨ قالوا ان الجيوش العربية لا تملك سلاحاً، لان الاستعمار الذي كان حاكماً أو مسيطراً لا يعطي السلاح، ولذلك فان هذه الجيوش لم تحارب، او لم يكن لديها أوامر بالحرب، فهزمنا!

عام ١٩٦٧، وقد جُهّزت الجيوش وامتلأت المخازن بالسلاح ودقّت الطبول استعداداً لمعركة فاصلة، جاءت الضربة من حيث لا نتوقع، انتظرناهم من الشرق فجاءوا من الغرب، فهزمنا مرة اخرى... لكن في محاولة للتمويه على النفس اعتبرنا ان الهزيمة غير كاملة، لان من جملة أهداف اسرائيل إسقاط الانظمة، وباعتبار ان الانظمة مستمرة ولم تسقط فان الهزيمة لم تقع تماماً!

عام ١٩٧٣ دخلنا معركة لا يُعرف اذا هزمنا فيها او انتصرنا، لكن من جملة ما ترتّب عليها: كامب ديفيد، وبالتالي خروج مصر من المعركة، والوضع العربي الراهن، بكل بؤسه وانحطاطه ولاعقلانيته!

وعام ١٩٧٢ كان لا بد ان تقع معركة الحصاد واقتسام البيدر. مئة وخمسون مليون عربي (او ربما اكثر) ظلوا لثلاثة اشهر متوالية يراقبون معركة بيروت ويتابعون تفاصيلها عبر شاشات التلفزيون، لأنهم حرموا من حق المشاركة بسبب غياب الديمقراطية، واثنان وعشرون حاكماً (او ربما اكثر) لم يملكوا الوقت والجرأة لعقد اجتماع واحد لتدارس هذه المعركة. اما الدبابات، آلاف الدبابات، الطائرات، مئات الطائرات، وملايين الجنود فقد ظلوا في حالة تأهب كامل من أجل حماية الانظمة وقمع الشعب وحرقه عند الضرورة اذا قرّر أن يعبّر عن رأي او موقف!

والآن.. هل نملك الجرأة ونقول بعض ما حصل؟ لماذا هُزمنا ومَنْ هزمنا؟

أعتقد اننا، أولاً، لا نملك الجرأة الكافية لمواجهة الحقيقة العارية، لا نستطيع ان نعترف، ولذلك نلجأ الى التمويه والتعمية والمزاودة.. وأخيراً حساب الاسداس والاعشار!

وثانياً، في حال الاعتراف الخجول المموّه نحاول ان نحمّل المسؤولية للآخرين، وأغلب الاحيان «الآخرون» هم الذين ذهبوا، البعيدون، الذين سقطوا او الذين لا اصوات لهم.

وثالثاً، اذا سمّينا الأشياء والاشخاص باسماء قريبة من الحقيقة فاننا نعفي انفسنا من أية مسؤولية في تغيير الاشياء والاشخاص.

ورابعاً، في حال اجتيازنا لهذه المراحل الشاقة والعقبات فاننا نصل الى أحد المفارق، فنقلب التحليل السابق كله، فاما ان نخلص من هذا التحليل الى تركيب خاطىء، كأن نضع العربة امام الحصان؛ او ان نعتبر اننا وحدنا الذين نملك الحقيقة، ولا يملكها غيرنا، فنصم اذاننا عن كل ما يقال، ونمنع الآخرين من ان يقولوا ما يريدون؛ او ان نحرق المراحل جميعاً فنريد في فترة قصيرة ان نحقق كل شيء: التحرير والديمقراطية والاشتراكية، في الوقت الذي لم نهيء شروط شعار واحد من شعارات المرحلة!

لهذه الاسباب مجتمعة او متفرقة ـ وربما لغيرها ـ نظل ندور في الحلقة المفرغة نفسها، ونحن على استعداد كامل لاستيعاب وامتصاص هزيمة أخرى.. الهزيمة التي لا بد ان تقع في ظل الشروط ذاتها التي تتكرر باستمرار.

هل أُعتبر متشائماً في ماقلته حتى الآن؟

أخشى ان اكون كذلك، فالهزائم لم تنته بعد، ولعل أخطرها وأكبرها معركة بيروت. وأخشى ان تكون هذه الهزيمة بداية لسلسلة من الهزائم الجديدة، هذه الهزيمة كبيرة وخطيرة ليس بحجمها فقط وانما بدلالتها. إنها النمط الجديد للهزائم القادمة. فاسرائيل لا تهدف ولا ترضى في المرحلة القادمة ان تكون مجرد دولة من دول المنطقة، اي لا تبحث بعد الآن عن الاعتراف والتعايش، وانما تريد ان تكون دولة مسيطرة، أي الدولة الاهم، التي تقرر سياسة المنطقة وشكلها وعلاقاتها.

ما حصل في بيروت مجرد البداية أولاً، ثم إنه لم ينته بعد. ولذلك ما حصل وما سوف يحصل سينقل ويعمّم، وسوف يكون النموذج لما يراد ان تكون عليه المنطقة: الدولة الدينية الطائفية هي صيغة الدولة التي يراد لها ان تعمّ وتنتشر، وفي ظل دول الطوائف سوف تكون اسرائيل دولة الطائفة الاقوى، وسوف تكون النموذج والحكم أيضاً.

في ظل هذا الوضع ما هو دور الثقافة ودور المثقفين؟

يجب ان نبتعد، قدر الامكان، عن المبالغة، وعن لعبة الكراسي الموسيقية في تصوّر دور الثقافة ودور المثقفين.

للثقافة دور، ودور هام جداً، وللمثقفين دور أيضاً، لكن ضمن وضع عام وضمن سياق عام. الثقافة ليست آلة سحرية، كما انها ليست مجموعة من المعارف، وانما هي فعالية معينة في وضع متفاعل ومتبادل، وهذه الانماط من التفاعل ثم انعكاسها على البشر في مرحلة معينة تهدف الى دفع الامور الى الأمام لتجاوز حالة الضياع والتخلف والخوف.

لكي تكون هذه الثقافة منتجة وايجابية يجب ان تستلهم واقع المرحلة وحاجات الجماهير وروح العصر، لأن الثقافة ليست شيئاً مجرداً، كما أنها ليست فقط تراكماً للمعارف والمعلومات، وانما ترتبط، في جانب أساسي منها، بتلبية حاجات فعلية، قائمة وملحة، ولذلك كلما ارتبطت هذه الثقافة بدور وهدف كلما كانت أكثر فعالية وفائدة.

ومن أجل تحقيق هذا الدور وهذا الهدف يجب ان تكون ثقافة المرحلة صادقة حتى الجرح، ودقيقة كحد السكين، ويجب ان تكون واضحة قدر الامكان، بحيث تصل الى قطاع واسع دون التباس ودون الدخول في متاهات مفتعلة.

المنطلق الاساسي لثقافة من هذا النوع هو النقد والنقد الذاتي. ان جدارة الثقافة المطلوبة تتمثل بجرأتها، بقدرتها على ان تتجاوز نفسها باستمرار، ان تتكامل من خلال التجربة والتفاعل دون خوف.

النقد والنقد الذاتي لا يكونان بتوجيه اللوم والإدانة الى الآخرين فقط: الاشخاص والافكار، بقدر ما يتمثلان بقدرة المراجعة والتكامل والتصحيح. واذا كان من المطلوب بالحاح في هذه المرحلة، على المستوى السياسي - الاقتصادي - الاجتماعي مراجعة نقدية صارمة، وليس توجيه اللوم الى الآخرين، فان اداة المراجعة ثقافية، بالدرجة الاولى، لذلك يجب ان تخضع هذه الاداة - المقياس الى المراجعة من باب اولى.

واذا كنا نتوخى في هذه المرحلة شجاعة في التصدي والنظرة والموقف، فان شجاعة مثل هذه لا تصدر الا عن رجال شجعان، رجال يتمتعون بحدٍ عال من النزاهة والجرأة والاستقلال والوعي والمسؤولية، ولذلك يزداد دور المثقف اهمية وتأثيراً بمقدار تمتّعه بهذه الصفات، فكاتب السلطة، اية سلطة، غير مؤهل للقيام بهذا الدور، لأن مهمته، لسبب او لآخر، أن يبرّر مواقف السلطة التي ينتمي اليها او تستخدمه، فهو ليس اذن نزيها او مستقلا بالمقدار الكافي، وليس قادراً على تحمل المسؤولية لأن موقعه «الثقافي» مستمد من السلطة ذاتها.

ان أحد المظاهر التي سنواجه في المرحلة القادمة ان مثقفي السلطة العربية - وهي في الحقيقة، وبعد معركة بيروت، سلطة واحدة - سوف يوجهون ادانتهم ونقدهم الى المثقفين الآخرين ويحمّلونهم مسؤولية الهزيمة، لانهم مستقلون ولانهم «متطرفون».

لذلك، وتأسيساً على هذه النقطة بالذات، يجب ان يشرع المثقفون، وقبل فوات الآوان، باقامة مؤسسات ثقافية مستقلة عن اية سلطة، ويجب ان تكون هذه المؤسسات اداة للدفاع وحماية حرية الرأي ومجالاً للتفاعل في صيغ مواجهة القمع والإحتواء والتدجين.

ان الحرية الفكرية والسياسية المطلوبة يجب ان تكون حقاً عاماً ومتساوياً بالنسبة للجميع، وهو الاساس لخلق جبهة ثقافية عريضة تكون الى جانب الصيغ الشعبية الأخرى الشكل الاكثر ملاءمة للمرحلة القادمة.

فاذا كان المطلوب في المرحلة الحالية، على مستوى الجماهير والقوى السياسية، ان نؤكد على شعارين اساسيين هما: الديمقراطية والجبهة الوطنية العريضة، لاننا، بمعنى معين، لا زلنا في مرحلة التحرر الوطني، ويفترض هذان الشعاران التفاف واستيعاب ومشاركة اوسع القوى، فان الأمر على المستوى الثقافي يفترض الانطلاق من الايمان بحرية الرأي والتحالف من اجل تحقيق هذا الهدف وحمايته.

ليسقط الفكر الإرهابي أولاً!

الياس خوري

كانت بيروت هي الشاهد والضحية. التجربة التي عجزت عن أن تتحول الى بداية جديدة، والعلامة التي حاول القمع العربي قتلها قبل أن يأتي العصر الاسرائيلي ويحرقها.

قبل بيروت كانت الهزيمة تأكل المجتمع العربي. منذ هزيمة ١٩٦٧ والعجز يقودنا الى هزائم جديدة.. والهزيمة تعلن بوصفها انتصاراً(!) حتى سئمنا الانتصارات... حتى هزيمة لبنان كادت الايديولوجية السائدة أن تعلنها انتصاراً لولا أنها وجدت نفسها مشلولة امام المذابح وجنون الموت.

الانتصارات الكاذبة لم تكن كاذبة... منذ هزيمة ١٩٦٧ والقمع ينتصر، والسلطات القائمة على القمع المطلق تحقق الانتصارات على شعوبها. ومع كل هزيمة أمام اسرائيل كانت الأنظمة تنتصر على الشعب، حتى كبرت اللعبة وبدأ المجتمع يتفتت. وإذا بالسلطات المنتصرة تحكم مدناً يسكنها الاشباح واذا بالناس تعيش دون الحد الأدنى للكرامة.

مقاومة بيروت وحربها الطويلة، كانت التعبير الوحيد المتاح كي يتم الاحتجاج على هذا الواقع. وحين كانت بيروت تلعب لعبة الموت وحيدة، كانت العواصم العربية تهزم وهي عاجزة عن المقاومة. كانت بيروت تختصر الاحتمال الأخير وحدها، وجاءت هزيمتها لتعلن نهاية مرحلة كاملة.

العصر الاسرائيلي هو تتويج لعصور القمع. ممالك الطوائف يحصدها الوحش التكنولوجي.. أنظمة الساعة العربية الأخيرة لا تجرؤ على الحرب ولا تستطيع سلاماً لا يكون استسلاماً. لا تنتصر ولا تعرف كيف تنهزم. فالذي لا يعرف كيف ينهزم لا يستطيع أن ينتصر على الاطلاق.

بعد معركة بيروت تبدأ مرحلة جديدة في العالم العربي. عصر الخوف الاسرائيلي يسعى الى فرض هيمنته المطلقة عبر تفتيت المجتمع الى طوائف والطوائف الى عصبيات... وفي لبنان، الذي تريده اسرائيل بوابة للعبور الى المنطقة بأسرها، تجري فصول المسرحية الدموية أمام العالم العربي النائم. ولا تجد من يقاومها سوى شعب جريح وممزّق، ومدينة أحرقها القصف والموت.

السؤال الأول الذي نطرحه وسط الهزيمة هو سؤال عن واقعنا. سؤال الذين قاتلوا وهم يعلمون ان الهزيمة حتمية. فالقتال كان التعبير الأخير وسط عالم عربي شاسع يُخنق فيه كل تعبير. كيف يمكن ان يحارب العرب وهم مسحوقون في حياتهم اليومية. كيف يمكن للكاتب ان يكتب حين يجبر على الخيار بين أن يكون عبداً أو يُقتل. كيف يستطيع المجتمع أن يدافع عن نفسه وهو يستباح كل يوم ويسحق كل يوم؟

السؤال الأول هو سؤال الديمقراطية. الذين جعلوا الشعب قاصراً وحولوا المثقّفين الى حيوانات داجنة والزعماء الى آلهة، ودفعوا الناس الى اليأس المطلق، هم الذين حولوا القتال في لبنان الى هزيمة.

والخروج من الهزيمة يفترض وعي سببها الرئيسي والعميق.

هزيمة بيروت كانت حتمية، لأن بيروت، قبل أن يحاصرها الجيش الاسرائيلي، كانت محاصرة بالقمع العربي، ولأن هذا القمع بدأ يتسلل اليها، ولأن المشروع الديمقراطي في لبنان ضربته الأنظمة العربية قبل أن تسحقه اسرائيل، ولأن سياسة الحلول الوسط مع القمع العربي والعجز عن مواجهة المشكلات العينية قادت الى الفشل.

سؤال الديمقراطية هو سؤال المجتمع المدني. فباسم ماذا تمت تصفية مؤسسات المجتمع المدني وضرب التعبير الأهلي، ولم يبق أمام الناس سوى النصوص المقدسة كأداة أخيرة؟ إن مصادرة المجتمع المدني قادت الى العجز عن

التعامل مع الصراع، فتحول المجتمع الى جسد منهوك القوى.

سؤال الديمقراطية هو سؤالنا لانفسنا. فالثقافة العربية كانت جزءاً من هذا الموت البطيء. حذف الاسئلة الحقيقية، التستّر على القمع، الخوف، تقديس الماضي، عبادة السلطة، غياب النقد، التواطؤ مع الارهاب والتستر عليه، جعل الصراع مع اسرائيل فزّاعة لمنع أي نقاش، الجمود، الانحطاط...

هذا هو عصر الانحطاط بامتياز، ونحن متهمون جميعاً.

الى متى تبقى أقلامنا خرساء خوفاً من القتل يحيط بنا من كل جانب؟ نحن شهود الساعة الأخيرة ولا نشهد(!) قبل أن يساهم المثقف بإنقاذ أمته عليه أن ينقذ نفسه. قبل أن يعلّم عليه أن يتعلّم. قبل أن يمترن الكتابة عن الموتى عليه أن ينظر في الموت، وقبل أن يكتب عليه أن يتوقف عن لعبة مهرج السلطان.

سؤال الهزيمة هو سؤال السلطة ومعنى السلطة وعلاقة سلطة الكتابة بكتابة السلطة. والمأزق الذي بدأ منذ هزيمة ١٩٦٧ كشف هزال الشعارات التي لا تتحول الى قراءة نقدية للواقع. فالفكر الارهابي الذي يبرر كل ارهاب يجب أن يسقط أولاً، والوحدة الاجتماعية لا تقوم إلا ضمن مشروع طوعي يقبل بالآخر ويحترم حريته. وهنا تبدأ مسيرة مقاومة الاحتلال.

الهزيمة أمام اسرائيل تعلن العودة الى اجواء القرن التاسع عشر، حيث يتفكك المجتمع في حروب طائفية، وحيث يعاد رسم خرائط المنطقة ضد ارادة شعوبها، وحيث الشعوب مسلوبة الارادة أمام توحش انكشارية السلطان.

نحن هنا، في نقطة الرعب هذه. والجديد يبدأ من الاعتراف بالواقع ومعرفته من أجل تغييره.

هل تستطيع مقاومة بيروت، هل تستطيع هذه المأساة اللبنانية ـ الفلسطينية أن تزرع بذور وعي جديد؟ هل نحن قادرون على النظر في واقعنا واعادة النظر في اسباب انحطاطنا؟

الجواب على هذه الاسئلة، تلمّس الجواب، وهو بداية الخروج. قراءة الواقع بلغته هو مقدمة إبداعه..

هل نحن نعيش هذه المقدمة وسط آلام الروح، وسط الخيانة التي تحاصرنا، وسط مدينة يحتلها شبح الاحتلال ويحاصرها الموت العربي، أم اننا مجرد شهود وضحايا؟

بيروت

دار الآداب تقدم

الدكتور حسين جمعة

قضايا الإبداع الفني

بين الإحيائية والعبثية

محمد علي شمس الدين

- ١ -

من الظواهر التي تدعو للتأمل حقاً، في السلطوية السياسية العربية السائدة (بمعزل عما تمنحه لنفسها من تسميات) أنها تعتبر نفسها محصّنة ضد النقد، سواء كان هذا النقد ذاتياً، أم جاءها من طرف آخر.

إنها سلطة الرأي الواحد المنزّل الفرح بذاته، القاطع المانع، القطعي الأخير (إذ ليس في حسبانه سواه) المنزّه المقدّس المنتصر حتى في قاع الهزيمة، المكلّل بالغار حتى لو كان جبين الناس ينزف تحت إكليل الشوك، وفي أفواههم يرسب حبّ الحنظل. إن السلطوية العربية السياسية، تعتبر نفسها فوق الأسئلة، وفوق النحو والصرف والشعر والقانون، وما أشبه.. ذلك أنها، لشدّة ما حدقّت في مرآة ذاتها، ترسّبت صورتها في قاع هذه المرآة، وتأبّدت، وتخشبت، وانتفخت، وتنرجست في طقوس دائرية لعبادة الذات، هي في الواقع شكل من أشكال طبائع الاستبداد (والتعبير للكواكبي).

وإننا حين نذكر السلطوية السياسية العربية، فإنما نعني بذلك مختلف أشكال السلطات السياسية بكافة رموزها وتنظيماتها، سواء كانت في موقع الحكم والقرار، أو كانت في موقع التأثير على هذا القرار. وليس أدلّ على ذلك، مما حصل في الهزيمة التي لحقت بالأمة العربية، من جراء العدوان الاسرائيلي الأخير على لبنان. فقد مضى، حتى الآن، ما يقارب الأشهر الستة على هذه المذبحة المذهلة (إلى درجة انسداد أدوات التعبير عنها..) ورغم ذلك، لم نقرأ أو نسمع أي تنظيم سياسي أو أية سلطة سياسية أعلنت عملية استبطان أو تحديق في الضمير... وقالت نعم.. أنا أتحمّل المسؤولية في الهزيمة.. أو جزءاً منها.. «ولهذا استقيل». ذلك أن فروسية السقوط كفروسية الانتصار، تحتاج الى كثير من الشجاعة.

- ٢ -

إذا كانت السلطوية السياسية العربية السائدة، مهزومة مرتين: مرة لأنها تتجرع في الواقع كأس الهزيمة، ومرة ثانية لأنها لا تعي هذه الهزيمة، فأين تقف الثقافة العربية الراهنة من هذا المشهد المأساوي؟.

ليس بوسع الثقافة الأصيلة أن تكون شاهد زور أو محرّض طغيان أو مختار هزيمة. لذلك فهي اليوم، في جزء منها، هجائية، وفي جزء آخر منها، عبثية. وذلك بعد أن كانت، قبل السبعينات، «إحيائية» أو «نهضوية».

وبالأمكان أن نتبيّن هذه المراحل الثلاث للثقافة العربية في النصف الثاني من القرن الحالي، من خلال الشعر، على اعتبار أن الشعر

هو التعبير الصافي عن روح الشعوب. فالمرحلة الإحيائية بدأت مع نهاية الخمسينات وبداية الستينات، وتمثلت في مجموعة من الشعراء وظهرت في أكثر من بلد عربي، فظهر بدر شاكر السياب في العراق، وخليل حاوي في لبنان، كما ظهر الشعراء التموزيون في لبنان وسوريا...

إن المظهر الإحيائي لدى بدر شاكر السياب تجلى في استعماله المكثف لعناصر الطبيعة، في الخصب والنماء. ويمكن اعتبار «المطر» مفتاح لغته:

«أحسّ بالدماءوالدموع كالمطر
ينضحهنّ العالم الحزينْ
أجراس موتي في عروقي ترعش الرنينْ
فيدلهمّ في دمي حنينْ..».

كما تجلى المظهر الاحيائي في شعر خليل حاوي، في انبعاث حضاري غناه الشاعر غناء وجدانياً ملحّاً، استمد بعض عناصره من التراث العربي، الديني منه خاصة، كأسطورة «الخضر».. فضلاً عن التراث الشرقي الديني الإسلامي والمسيحي على السواء:

«بدويٌّ ضرب القيصر بالفرسِ
وطفل ناصريٌّ وحفاة
دوّخوا الوحش بروما....
ربِّ ماذا
ربِّ ماذا
هل تعود المعجزات...؟»

أو كقوله في قصيدة «الجسر»:

يعبرون الجسر في الصبح خفافاً
أضلعي امتدّت لهم جسراً وطيد
من كهوف الشرق من مستنقع الشرق
إلى الشرق الجديد
أضلعي امتدّت لهم جسراً وطيدْ...».

أما لدى الشعراء التموزيين، كيوسف الخال وأدونيس (في مرحلته الأولى) وقدموس (كمال خيربك) فقد تجلّى المظهر الإحيائي لديهم باستعارات أسطورية، لكائنات تنبعث فيها الحياة دورياً من الموت. فطائر الفينيق ينبعث من رماده، كما أن الإله تموز (أدونيس) يتجدد دمه في كل عام مع تجدد دم الطبيعة في الربيع.

ليس من الضروري ربط هذه الظواهر في التجديد الشعري العربي بظواهر أخرى موازية لها على الصعيد السياسي (ثورة يوليو ٥٢ في مصر وتموز سنة ٥٨ في العراق واستقلال لبنان وسوريا قبل ذلك، وانتصار الثورة الجزائرية... الخ) لأن هذا الافتراض قد يقودنا الى مفارقات أو مقاربات مغلوطة، سيما وأن هذه الفترة المفترضة فترة إحياء ونهوض قومي، شهدت في مطلعها (نهاية الأربعينات) أكبر فاجعة سياسية عربية هي ضياع فلسطين، والتكريس المتمادي اللاحق لهذا الضياع. ولكنّ الواقع أن الروح الشعبية العميقة والحية، والمجذرة في التراب والتاريخ، هي التي كانت تلهب هذه اليقظات الشعرية.

منذ بداية السبعينات، بدأت هذه الروح الاحيائية بالخفوت، والانطفاء، بشكل ملحوظ. وحل محلها ما يمكن أن نسميه «عصر المتاهة» أو شعر المتاهة.

وقد تجلى التعبير عن عصر المتاهة، بنمطين من القول الشعري، قد يظهران لأول وهلة، على طرفي نقيض، إلا أنهما يشتركان معاً في بؤرة واحدة احتجاجية. النمط الأول هو الشعر السياسي الذي نما وازدهر على يد الشعراء الفلسطينيين، وعدد آخر من الشعراء العرب الذين بالإمكان اختصارهم نموذجياً بمحمود درويش وأدونيس (رغم اختلاف الملامح وتنوّع الأسلوب). والنمط الثاني هو الشعر العبثي الذي استمدّ من السريالية بعض عناصره، ولم تعوزه

في الواقع الحياتي الممزّق، أسانيد لقوله.

بالامكان اختصار النمط الأول السياسي للقول الشعري، بهذين النموذجين لأدونيس ومحمود درويش.

يقول أدونيس في مطلع إحدى قصائده «أكف أول الحروف انقرض... انقرض... والراء مثل الهلال.. ذائباً غائباً في الرمال».. أي نعي السقوط العربي المتمثل بسقوط حضارة مرموزاليها بالأبجدية العربية الساقطة. والتفسير يرد في قصيدة ملوك الطوائف: «باسم يافا.. باسم شعبٍ شرّدته البشريّة.

سمّني قنبلةً أو بندقيه».

أما قول محمود درويش في قصيدة «بيروت» وهي من آخر ما كتب، فهو:

«ومن المحيط الى الخليج

من الخليج الى الجحيم

ومن اليمين الى اليسار الى الوسط

أبصرت مشنقةً فقط..»

أما النمط الآخر من شعر «المتاهة» وهو المتكيء على السريال والعبث والنهلستية.. فيمكن اختصار ممثليه بهذا القول النظري لعبد القادر الجنابي الموضوع على غلاف مجلة «الرغبة الإباحية» السريالية التي يشرف على إصدارها الجنابي في باريس:

«جئنا من باطن الهزيمة. من أحشاء الرأس. فالأديان. المنطق. النظام الحقيقة. بأسوأ معانيها. والعقل. كلها رميناها في قعر جهنم. حذار من منطقكم أيها السادة حذار. فهيهات أن تعرفوا الى أين يمكن أن يقودنا حقدنا! على كل وعد عروبي... الخ».

بالإمكان، طبعاً، أن نلمح ملامح سابقة شعرية لمثل هذا القول، لدى بعض الشعراء اللبنانيين، خصوصاً شعراء مجلة شعر (أنسي الحاج في «لن»، وشوقي أبي شقرا وعصام محفوظ...) والعراقيين (سركون بولص)... كما بالإمكان رصد ملامح تالية في أجيال تالية... إلا أن مجموعة الشعر العربي الحديث الذي خرج عن إطار «الإحياء» وسواء كان هذا الشعر سياسياً أو عبثياً... إنما هو شعر «هجاء» للواقع العربي. وهذا الهجاء جاء تارة مباشرة (بالقلم الصريح والحرف الفصيح) وتارة مداورة أو مراوغة (فنية) كما في شعراء مجلة شعر مثلاً...

إن مأزق الشعراء الانبعاثيين مثله بشكل معبّر، خليل حاوي (بصمته) ومن ثم بانتحاره.. أكثر مما مثله بشعره اللاحق (نهر الرماد)، (الناي والريح). أما مأزق الشعراء السياسيين فشواهده يومية حيث يبقى مدار التعبير وطاقته لديهم حول الحدث أو فيه، أو قبله، أو بعده.. فلا ينشأ «مجرى آخر» - «مجرى خاص» موحٍ وباحتمالات عديدة.

هذا المأزق الأكيد، بدا بشكل أقلّ إلحاحاً لدى الشعراء الآخرين المتكئين على السريال والعبث... أو اللغة.. والإشارات.. والصمت والاختزال والفراغات... الخ.. ورغم أن بعضهم نقد (الفصاحة السائدة) داعياً لنمط مغاير في التعبير، إلا أنه أتى بفصاحة أخرى لا تقل عن الأولى فصاحة... إن مأزق الشعر المخرّب هو أنه خرّب لغته (وكان ذلك منه حسناً) قبل وقوع الخراب على الأرض. أما الآن، وها هو الخراب على الأرض قد وقع فعلاً، وفاق الوصف، فما العمل؟

هل معنى ذلك أن كثيراً مما كتبه الشعراء العرب من شعر في النصف الثاني من القرن الحالي الى البحر أو الى الريح أو إلى النار؟.

أعتقد... نعم.. بمعنى من المعاني. وذلك مريع حقاً.

نعم.. وأستغفر الله.

بيروت

كنت محاصرًا بوجه المتنبي

شوقي بزيع

ينبغي الاشارة، بادءي ذي بدء، الى أن الإجابة على مثل هذه الأسئلة قد تحتاج الى بحث مطول أو كتاب كامل نظراً لخطورتها وتشعبها. وأن أي محاولة للإجابة السريعة ستكون دون شك خالية من الدقة وبالتالي لن تعطي ثمارها المرجوة. غير أن ذلك لا يمنعنا من وضع إشارات عامة يمكن الإستدلال بها أثناء التعرض لقضايا الثقافة العربية ومشكلاتها الصعبة.

ان الهزيمة التي نتحدث عنها ليست هزيمة عارضة أو طارئة على هذه الأمة، بل نحن نتحرك منذ عشرين عاماً وأكثر في أفق مهزوم. هذا الأفق لم يقتصر على السطح السياسي والسلطات الحاكمة لكنه بدأ يطال مختلف البنى الاجتماعية وطرائق العيش. حتى أن نظرتنا الى الهزيمة هي نظرة مهزومة بحدّ ذاتها لأنها تقتصر على ردود الفعل العابرة التي تتبع الحدث السياسي او العسكري مباشرة ثم ما تلبث أن تتلاشى في زحمة الأحداث المتتالية. ألم نطرح على أنفسنا الأسئلة ذاتها بعد حزيران ٦٧ ثم أخذنا نكررها في الأعوام التالية كلما أجهضت حركة تحرر وطني في عالمنا العربي؟ لماذا تبدو محاولاتنا إذن وكأنها تذهب سدى؟ هل التخلف هو المشكلة؟

قد يكون التخلف أحد أسباب هزيمتنا، لكنه ليس كافياً للتسبّب بكل الكوارث التي تصيبنا. ثم إن هناك شعوباً ليست أكثر تحضراً منا استطاعت أن تهزم كل تقنية الغرب ووحشيته «المتحضرة».

إن ما اعطى تلك الشعوب قوتها الأساسية هو شعورها بالانتماء. ذلك الشعور الذي يحيل الرجل والمرأة الى شجرة او حجر أو نهر ويجعل المسافة بين الموت والحياة أقل بكثيرمما هي عليه بين الهامشية والانتماء الى وطن نستحقه. هذا الشعور ينقص الكثيرين منا. كأن البداوة هي قدرنا المستمر والشعور بالمكان هو عدونا الألد. لو عزفت النشيد الوطني أمام رجل يأكل لما تحرك له جفن. لأن من لا يقدس الوطن كوجود مادي لن يقدسه في حالاته الرمزية. هذا السؤال اذا كان مطروحاً بقوة على المجتمع العربي بكافة فئاته فهو مطروح بقوة اكبر على المثقفين. ان معظم القصائد والكتابات تتبع النمط الجاهز ولا تتبع الروح المختلجة في عمق الأشياء وخصوصيتها. والنمط يتبع العرض والطلب السياسيين بالمعنى السطحي للسياسة. فالأدب هو فعل سياسي بالضرورة. لكن له قوله الخاص وأدواته الخاصة لكي يكون أدباً. أما عندنا فالقول السياسي قادم من الخارج. من نص غير مكتوب تقرره السلطة أو الحزب أو القبيلة أو ظل هؤلاء جميعاً في نفس الكاتب وأعماقه.

لذلك حكمت الثقافة على نفسها بالهزيمة التي أصابت السياسة. كيف لا يحصل ذلك وهي

تابعتها وصداها؟ في حين أن الأديب الحقيقي يكسر دائماً بنية السياسة وينفذ منها الى الجوهري والخلاّق. فالموقف السياسي مهما بدا متماسكاً لن يصمد طويلا أمام متغيرات الواقع، كما انه عرضة للتبديل والتغيير وفقاً لمنطق التكتيك والستراتيجية الذي يحكمه. هذا يعني أن على المثقف المنتج في حال تبعيته للموقف السياسي أن يغير نصه عشرات المرات او ان ينتج أدباً استهلاكياً لا نصيب له من الديمومة.

في أميركا اللاتينية مثلا استطاعت الثقافة أن تكسر الطوق لأنها لم تكن تابعة، بل على العكس، فهي تبدو اليوم وكأنها تقود معركة التحرر من الأنظمة العسكرية الفاشية التي تحكم معظم دول القارة، مع أن ما يعانيه المثقفون هناك من قمع وارهاب لايقل عما نعانيه نحن إن لم يفقه بأصناف، الشيء الأهم هناك هو قرار المواجهة بكافة أشكالها من الأظافر حتى الشعر والرواية. كما أن الثقافة واجهت غرائبية القمع بغرائبية النص لا بخطابيته وادعائه. ولم يقبل المثقف أن يكون ملحقاً بالغرب على المستوى الايديولوجي والابداعي في الوقت الذي يقدم له هذا الغرب ابشع انواع الفاشيات الحديثة. لقد خلق ماركيز وأمادو وأستورياس نماذج روائية تختلف عن كل ما قدمه الروائيون الغربيون، وكذلك فعل الشعراء وسائر المبدعين. لذلك رأينا الكثير من هؤلاء يحوزون على جوائز نوبل بينما لم نجد اسماً عربياً واحداً على لوائح هذه الجائزة، مع أن القيّمين عليها ليسوا أكثر عداء للكتّاب العرب منهم لكتّاب تلك المنطقة من العالم. بينما يساهم العديد من مثقفينا في عملية التغريب والالحاق الثقافي عبر نصوص لا صلة لها من قريب أو بعيد بما يجري على أرض الواقع العربي. كم هو عدد القصائد التي تفوح منها روائح الأرض والأشياء والبشر المحليين؟ أعتقد أنه قليل جداً. كم قصيدة تحيلنا الى مكان وزمان وإلى لون وجوه وأتربة! كم بدر شاكر السياب لدينا، وكم قرية كجيكور ونهراً كبويب؟.

بالإضافة الى كل ذلك تعاني ثقافتنا من أمراض التفتت والتجزئة. لقد ابتعدت ثقافة المركز التي سادت لفترات طويلة من تاريخنا وحلت محلها ثقافة الاقليم والحي والعشيرة. صارت الثقافة انعكاساً للتجزئة السياسية وتكريساً لها بدلا من أن توحد وتصهر مجتمعاتنا المتباعدة عند ذلك القاسم المشترك الذي يجمعنا كأمة. لهذا لم تعد الاسماء المبدعة ترن في طول الوطن العربي وعرضه بل اصبحت محصورة في اجزاء وأقاليم. حتى لنرى اسماء لها شهرة واسعة في بلدها بينما تكاد تكون مجهولة في بلد عربي آخر. هذا مع اعترافنا بأن أنظمة الرقابة العربية تسهم في اقامة الحواجز والسدود ومنع ما هو تقدمي وفاعل، لكن المبدع الحقيقي يستطيع تحطيم هذه الحواجز ولدينا العديد من الاسماء التي برهنت على صحة ما أقول.

أما الجانب الأهم من القضية فهو ذلك البون الشاسع بين حياة الكاتب والأديب العربي وبين ما يكتبه. اننا نفتقر الى الصدق كما نفتقر الى الجرأة. ان الواقع الذي نعيشه لا يناسبه ما هو أقل من الانتحار لشدة ما هو مأساوي ومخيف. وقوة أي مثقف تكمن في المشروع الحياتي الذي رسمه لنفسه سواء في علاقته بعالم الداخل أو بعوالم الخارج. ينبغي أن نملك الرؤيا النافذة والتبصر في النظر الى الوقائع وإلا فقدت مواقفنا جداوها وفعاليتها. وفي دفاعنا عن قيمنا الحياتية يجب أن نضع الموت في الحسبان. وليس معنى ذلك انني اطلب من المثقفين ان يضعوا الحبال في اعناقهم ويشنقوا انفسهم في احدى الساحات العامة او ان يختاروا حمل السلاح كحلّ وحيد فعال مع عدم نفي هذا الحلّ أيضاً، بل أن يكونوا الى جانب امتهم

في مواجهة تحدياتها المصيرية لا ان يتراجعوا الى مكان آمن ويكتفوا برثائها من بعيد. ان الهموم الشخصية تكاد تطغى على حياة المثقف العربي بشكل يثير الدهشة، كما ان الكثيرين يتراجعون عن مواقفهم حين يتعرضون لاغراء المال أو لتهديد القمع. قليلون هم المبدئيون، والمصالح الآنية تشوه الصورة وتغيّب ذكريات ما زالت طازجة عن المثقف الإنتحاري.

إن بيروت هي آخر النماذج التي تشهد على صحة ما أقول. كانت بيروت محكاً حقيقياً لمصداقية المثقفين الذين طالما كالوا لها التهم ورموها بالعجز والعهر وفقدان الهوية. حتى اذا ما خلعت المدينة عن نفسها الاقنعة الكاذبة بحثاً عن وجهها الأصيل انفضّوا عنها وتركوها وحيدة مع حفنة من المقاتلين والناس الشرفاء.

ولا أبالغ إذا قلت انني خلال أشهر الحصار كلها كنت محاصراً بوجه المتنبي الطالع من عمق تاريخنا الحي وهو يرفض الهرب طلباً للنجاة، لأنه اراد ان يتوحد الإنسان والشاعر في داخله لأن موت أحدهما يعني موت الآخر بالضرورة. لا أقدم المتنبي كنموذج وحيد فليس من مبدع كبير الا وكان ابداعه تفجيراً صادقاً لمعتقداته ومكنونات نفسه. لنفعل أي شيء لكن لنكن صادقين. والأهم أن نكون دائماً في صف الأنسان لأن الانسان هو الأصل.

ثقافة طمس الحقائق

حسن عبدالله

إنّ مراجعة المواقف والأفكار أمرٌ تلقائي لدى الانسان، يحدث دائماً بعد الصدمات صدمة حبّ مثلاً، تجعلك تعيد النظر وبصورة فورية، في سيرتك العاطفية مع من تهوى. صحيح ان ذلك يأتي بعد فوات الأوان، ويأتي ممزوجاً بالمرارة والندم، لكن ذلك لا يخلو من فائدة خاصة وانك قادم غداً على تجربة حبّ عاشرة. هذا عن الحب.. أما الحرب... هل ستراجع افكارك ومواقفك بعد الحرب؟ هل ستحكي عن مسببات أوجاعنا وخيباتنا المتلاحقة؟ إفعل ذلك إن كنت رجلاً... لا. لا نريد منك أن تندفع هكذا فجأة إلى وسط الساح.. نريد أن تحدّثنا فقط عن حبّك لأمك. أو عن حبك لحبيبتك.. أو للوردة.. أو للصباح.. او للجمال بوجه عام. افعل ذلك بجرأة وصدق وستجد نفسك وجهاً لوجه امام قوى جبّارة لا تريد منك أن تفعل ذلك بحريّة. فالمؤسسة العربية القائمة، سواء كانت دولة أو حزباً أو مزرعة أو مدرسة، تريد من الكاتب والمثقف أن يحب أمّه كما تحبّ «هي المؤسسة» أمها، وأن يرى جميلاً ما تراه «هي المؤسسة» كذلك... مع انه ولا مرّة في التاريخ اتفق شاعر أو مفكر حقيقي مع ضابط أو رئيس بلدية. دائماً كان مزاج المفكر والمبدع يتنافر مع مزاج الوزير والحاجب وصاحب الشرطة. فإذا كان المناخ في المكان ديمقراطياً انتصر الإبداع، وإذا كان «الطقس» شتاءً تنتصر عصا الحاجب، ويخمد صوت الكاتب إن لم تخمد روحه.

نحن نراجع باستمرار افكارنا ومواقفنا. نحن لا نفعل شيئاً سوى ذلك. إننا نراجع ونراجع بلا كلل. كل يوم وكل دقيقة نعيد قراءة الواقع على ضوء حادث جديد. لأنه كل يوم ودقيقة يحدث ما لم يكن في الحسبان.. الساعة الآن هي العاشرة ليلاً.. افتح الراديو.. أو افتح الجريدة.. أو افتح باب بيتك وستسمع صراخاً ولغطاً يصدران عن حدثٍ قومي خطير. أمس كنت تعتقد كذا، والآن عليك أن تعتقد العكس! كنت البارحة تظنّ شيئاً والآن عليك أن تظن خلافه. منذ دقيقتين كانت هذه الهرّة سوداء كالفحمة.. ولقد حدث الآن ما أقنعني بأنها ناصعة البياض! وهبْ أنك توصلت أخيراً الى يقين مكين من ان الديمقراطية أفضل للوطن والأمة من عدمها، فهل تستطيع أن تجهر بذلك؟ هكذا أنا دائماً، أنتهز كل فرصة لكي أجرّ الموضوع للحديث عن الديمقراطية. يقول البعض إن سبب ذلك نفسيّ. ففي طفولتي، على ما يروي الأهل، شاهدت فتىً يجرّه رجال الدرك من طرف سترته ويركلونه على قفاه بسبب مظاهرة من أجل الجزائر. ومن يومها تعقّدت! وما أزال على عقدتي تلك. فإما ان يكفّ العسكري ووزير الثقافة عن التدخل فيما لا يفهمه أعني: الحبّ والحرية والتقدّم ومناضلة

التخلّف والاستعمار، أو ان الأمور ستتدحرج من سيء إلى أسوأ. أروع الكتاب والمثقفين العرب ـ هؤلاء الذين على عاتقهم وحدهم كانت تقع مهمّة غربلة التجارب القاسية واستخلاص الدروس والعبر منها، هؤلاء الرائعون مُسِخوا بمعظمهم أو خُتِم على أفواههم وضمائرهم بختم الإدارة الرسمية. وقليلون هم الذين استعصوا على الأرهاب والتدجين وظلّوا يتحركون في إطار حرياتهم الخافتة الصغيرة.

الإشارة في سؤالكم إلى ما يتهدّد الجيل العربي القادم من يأس واستسلام هي تنبّؤ في محلّه. فاليأس يملأ البيوت والساحات والأندية والشوارع والكتب والأغاني، ويلوحُ الإستسلام لذيذاً كالنوم بعد أرق طويل. إن الاحباطات المتلاحقة التي مني بها جيلنا ولّدت عنده اضطرابات معويةً دائمةً. وضيقاً في التنفس. وتلفاً في الرئتين والكبد. وقرحة في المعدة. وانحلالاً في الأعقاب. ورعباً مستمراً من ذبحة قلبية مفاجئة. هذا الجيل بدأ يجد لذة في التنزّه في الضواحي الهادئة للعدم واللامبالاة. إن اشرس معركة نخوضها هي هنا... قد تفقد طائرة فتشتري غيرها. لكنك عندما تفقد الإيمان بنفسك وبقومك وبالتاريخ فإنك لا تستطيع أن تبتكر إيماناً جديداً. إن كوناً بكامله يتهاوى من حولك، وعلى كتفيك الهزيلتين تلقى يومياً أطنان المسؤوليات.. وأنت الكاتب والمثقف، أنت وحدك، عليك أن تصغي لتسمع ما لا يُسْمَع وأن تحدّق لترى ما لا يرى، وأن تظلّ مشيراً بأصبعك الوقحة إلى حتمية النصر. ذلك لأنك ما تزال تعيش بوجدان رجل أحبّ الحياة والعالم وحلم بالعدالة الشاملة ذات يوم. هل أدركتك الشيخوخة؟ إذا كان ذلك قد حدث فآعترض الأطفال الغادين الى المدارس في هذا الصباح الشتوي، وامنحهم فاكهة تجربتك المرّة. اشهد فقط. قل: عشت ورأيت...

اتكلّم من لبنان. حيث الأرضِ ما تزال ترتجّ والدخان الداكن الكثيف يحجب الأفق. الدبابات الاسرائيلية على التلال. ومصير البلد ما يزال مفتوحاً على أسوأ الإحتمالات. مصير لبنان. ومصير الشعب الفلسطيني. ومصير العرب جميعاً: واتكلّم وحولي ما تزال تضجّ أهوال الحرب الماضية واشباحها ورموزها ومغزاها الرهيب، وأتكلم ولا مطمح لي ككاتب إلا أن اكون شاهداً صادقاً على ما حدث. لا أرجو فيما تبقى لي من العمر إلا أن أصوّر تجربتي الفردية ـ فقط تجربتي الفردية ـ وأعانني الله على ذلك. أحياناً افكر: هل سأستطيع أن أحكي كل شيء؟ وإذا لم استطع فمن الذي سيحكي ما كنت سأحكيه؟ الجواب: لا أحد: لا المؤرخ، ولا كاتب البيان السياسي، ولا المعلّق الاذاعي سيأتي على ذكر ما رأيت وسمعت واكتشفت. هؤلاء سيكونون مشغولين باختلاق الأعذار والتبريرات، وبتجميل الفاجعة، ولن يتردّدوا في جعل الكارثة عيداً! إنها ثقافة طمس الحقائق، والاحتيال على الواقع بواسطة الكلام، هذا الطقس السحري البدائي. والمطلوب، بديلاً عن ذلك، ثقافة جديدة جريئة وقاسية تترجم الوجدان العربي المثقل بالتعاسة والشؤم وتستنبط من واقع الهزيمة المرّ حلاوة الكفاح من أجل التغيير.

بيروت

الهزيمة في لبنان
وإعادة تقييم دور المثقفين

الدكتور حسام الخطيب

بصراحة، شبعنا هزائم وشبعنا اعادة تقييم، وشبعنا كذلك اعادة توزيع أدوار. في كل سنة أو سنتين أو ثلاث (وندر ان اكملنا عقداً من السنين) يُطلّ علينا شبح هزيمة ونحن نتراجع من موقع إلى آخر ومن خط دفاع الى اخر من ورائه، ودائماً نستبسل ونضحي ونقاتل ونصمد، ولكن العدو يلتفُّ على صمودنا لأنه يأتينا من الخلف لا من الأمام، أو يأتينا على جناح السرعة بدلاً من جناح التؤدة والتأني، أو يخاطبنا بلسان العصفورة بدلاً من الكلام المبين، والقانون الدائم هو:

هزيمة غير مؤكدة ← هزيمة مؤكدة ← تغطية على الهزيمة بدعوى البسالة ← تحول تدريجي من مفهوم الهزيمة الى مفهوم انتصار الارادة — نسيان الهزيمة وتحريم تحليلها وبقاء انتصار الارادة — رشّ السكر على الموت (الخاتمة).

ويسألونك بعد ذلك عن دور المثقفين؟ من قال ان المثقفين يمكن أن يكون لهم دور في أمة لا دور لها حتى في ما يتعلق بأبسط تفصيلات تاريخها الحاضر؟ لو كانت الهزيمة ذات طابع خارجي، أي انها مجرد تقهقر عسكري، لأمكن أن يبقى ما يقال، ولكن — على من دعاوي انتصار الارادة — فإن أشباح الهزيمة تتراقص فوق كل مستوى من مستويات حياتنا ولا سيما المستوى الفكري والمستوى النفسي وقبل ذلك ذاك المستوى المعروف الذي لا نجرؤ ان نتحدث عنه لأنه، كما تعلمنا من (كليلة ودمنة)، تنبثق أثمن حكم التقيّة من رأس الثور المقطوع.

وماذا بعد؟ هل نحن مستسلمون؟

لا ولا يمكن ولا يصح.

وإن مجرد مقارنة بسيطة بين الامكانات والقوى على الجانب العربي والامكانات وميزان القوى على الجانب الصهيوني تدل بوضوح على أننا في أية لحظة نستطيع أن نقلب الميزان، أي بالضبط حينما نتمكن من وضع قوانا في كفة الميزان. إن العدو يتربع في الكفة المقابلة بكامل وزنه وحتى وزن أظافره محسوب بدقة، ونحن نتسلى في الكفة، فحيناً نضع يداً وحيناً نضع رجلاً وحيناً نضع ذنباً، مجرد ذنب نخبط به الكفة وعلى الدنيا السلام، وبمصطلحات بعيدة عن تهويمات الأدب كله تقول الدراسات الاستراتيجية ان ميزان القوى الدينامي (اي المتحرك أي الموظف لصالح المعكرة) هو إلى جانب العدوّ، ولكن ميزان القوى الستاتيكي (أي الساكن والمكامن وغير الموظف) هو الى جانب الطرف العربي بشكل صارخ.

إذن نحن بحاجة الى عملية تحويل، وعملية التحويل من الساكن الى المتحرك ومن الستاتيكي الى الدينامي هي عملية داخلية، وهي تحتاج لانتفاضة من الداخل ولتغلب على الذات ولبناء تربوي وثقافي واجتماعي وسياسي سليم.

فهل للمثقفين دور في ذلك كله؟

يميل الانسان بصورة طبيعية الى التأكيد على

وجود هذا الدور بسبب تصور المثقفين كطليعة، أي تصورهم خارج حدود ظاهرة الهزيمة، وهذا التصور مبالغ فيه. فالمثقف جزء من الظاهرة الاجتماعية والمرحلة والطبقة والأمة. وما زال قراء سارتر يذكرون كيف انه انتهى الى التأكيد على أن إمداد الجياع في جنوب شرق آسيا بسفينة أغذية أفضل من كتابة آلاف الأسطر، وان الكتابة ليس لها أن تنقد او تعزي او تخلص لأنها ليست خارج اطار ما (لا اذكر كلماته بالضبط ويمكن مراجعة سيرته الذاتية «الكلمات» Les Mots).

ولكن، أيضاً كما قال سارتر، ليس علينا سوى ان نستمر في الكتابة.

وليس المقصود هنا إلغاء دور المثقفين ولا نشر اليأس، ولكن تنبيه هذه الأمة لعدم تكرار الخطأ الذي كررته مئات المرات حتى الآن، وهو عدم تعليق كل الثياب على مسمار واحد حتى لو لم يكن واهياً. للمثقفين دور ولكن هذا الدور مرتبط بالكفاح السياسي والعسكري وبالعمل الحزبي وبالأيديولوجيا وبكل شيء آخر. للوجدان دور ولكن وجدان المثقف أسير اعتبارات سياسية واجتماعية قاتلة. للكلام الجميل والفن دور ولكن معطيات الواقع تغلب كل دندنة.

وهناك أشياء يستطيع أن يفعلها المثقفون وأشياء لا يستطيعون ان يفعلوها. وليس سهلاً علي في هذه العجالة أن اقترح خطوطاً لما يمكن أن يفعلوه، ولكن سوف اعتقد اننا بدأنا الدرب أو سلكنا طرف الخيط حين يبدأ المثقفون بالتفريق الصارم بين ما هو ثقافي وما هو اعلامي، بين ما هو تحليلي وبين ما هو خطابي، بين ما هو علمي وبين ما هو ديماغوجي، بين ما ينبغي ان يكون عقلياً ومنطقياً وبين ما هو عاطفي ونفسي، وبين ما هو واقع فعلاً وما ينبغي أن يكون، وأخيراً بين الممكن واقعياً وبين الرغبي والمشتهى.

إن البدء بهذا الخط كفيل بأن يقود الى الخطوط الأخرى وأهمها **استعادة مقدرة المثقف في التأثير**، فمهما قيل في دور المثقف فإنه يستحيل اختصار هذا الدور على المرسل ونسيان الطرف الآخر (المتلقي أو الجمهور). ان جوانب كثيرة من الثقافة العربية تتجه بوضوح الى نسيان وجود الطرف الآخر الذي بغيره لا تحيا ثقافة ولا يكون فن. وإ ا يبدأ شفاء دور المثقف من شفاء علاقته بجمهوره وشعبه. ولذلك ولغيره قصة طويلة نرجو أن نتمكن من العودة إليها.

وحتى لا يكون هناك التباس فيما أرادت هذه العجالة أن تؤكده فلنقل ثانية: إن دور المثقف مهم ولكن يجب الا نعلق عليه من المسؤوليات ما يفوق طاقته، وان المثقف جزء من ظاهرة التخلف ولذلك لا يستطيع وحده ان ينهض بالعبء، وأخيراً إن الوطن العربي يزخر بالإمكانات، وفي أية لحظة نجد الطريق الى توظيف امكاناتنا للمعركة فسوف ترجح الكفة وتثبت للجميع هشاشة عدونا وضخامة نقاط ضعفه التي لا يسترها سوى عجزنا.

دمشق

قدر من الحرية...

أبو المعاطي أبو النجا

لا أريد أن أبسّط الموقف فأقول إن الذي رأيناه هو موقف الأنظمة لا الشعوب، ولا أظن أيضاً أن الهزيمة التي لحقت بالأمة العربية أنظمة وشعوبا في هذا الموقف تختلف اختلافاً جوهرياً في أسبابها عن هزائم سابقة لحقت بها من العدو نفسه، فالهزيمة هذه المرة مثل سابقاتها، ربما كان الفرق في ترتيب الهزيمة. فالمفروض أن الناس تتعبم من الهزائم التي تلحق بها فلا تكون الهزيمة الرابعة أو الخامسة أفدح وأثقل من الأولى والثانية، وربما كان الفرق في الطريقة التي تم بها العدوان الذي لم يكن مفاجأة لأحد، والوقت الذي استغرقه، والدور الذي لعبته وسائل الإعلام العالمية في تغطيته يوماً بيوم، والمقاومة المذهلة لقوات الثورة الفلسطينية واللبنانية في أطول معركة مع إسرائيل، ربما يكون الفرق في الدور المزدوج لهذا الوقت الطويل الذي كان يبرز مدى الصمود من جانب المقاومة، ومدى العجز من جانب الأنظمة، ربما كان الفرَق في الأقنعة التي سقطت والأوهام التي تبددت على جميع الجوانب، سواء فيما يتعلق بموقف القوى العظمى، أو بمزاعم اسرائيل في السلام، أو بالمسافة بين شعارات دول الصمود وما يمكن أن تفعله وقت الجد.

وربما كان الفرق أيضاً أن هذا العدوان جاء في سياق أحداث كبيرة وخطيرة، ووسط متغيّرات تجعل الأمة العربية تبدو وكأنها أمة فريدة بين الأمم فيما تملك من إمكانات مذهلة، وفي عجزها عن استخدام هذه الإمكانات بشكل يخدم قضاياها المصيرية.

فها هو نصر أكتوبر المحدود الذي تتمثّل قيمته في دلالته على ما يمكن أن يتحقق لو حاولنا أن نستخدم بكفاءة بعض ما نملك من عناصر القوة، فماذا فعلنا به؟ وماذا أخذنا في مقابله؟ وكيف انتهى بنا؟

ومن بعده صارت الأمة العربية مالكة لأضخم ثروة عرفتها في تاريخها الحديث، ولما تعنيه هذه الثروة من إمكانات هائلة للخروج من مأزق التخلف، لو عرفت هذه الأمة كيف تهتدي إلى الصيغة التي تمكّنها من استثمار هذه الثروة بطريقة تحوّلها من مصدر مهدد بالنفاد الى مصادر دائمة ومتجددة من خلال تنمية الموارد البشرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، فما الذي تفعله الآن بهذه الثروة؟ وكيف تنفق على مرأى ومسمع من الجميع؟ وكيف يستنزف الكثير منها في الحروب الظاهرة والخفية بين الدول العربية المتجاورة أو بينها وبين غيرها..!

ربما كانت كل هذه الملابسات هي التي تجعل هذه الهزيمة تبدو وكأنها أمر مختلف عن سابقاتها يجعل الدكتور سهيل إدريس يدعو المثقفين العرب إلى مراجعة أفكارهم وإعادة تقييم دورهم ودور الثقافة في مسيرة النضال العربي ضد

الاستعمار والصهيونية والرجعية والتخلف... الخ.

لقد انسقت وراء السؤال فتحدثت عن هزيمة الأمة العربية، وكأنها أمة واحدة بالفعل، تنتصر أو تنهزم، تملك عناصر القوة فتحسن أو تسيء استخدامها، متناسياً واقع التجزئة المرير، فهل أستمر في الانسياق وراء السؤال فأظل أتحدث عن أو الى المثقفين العرب وكأنهم فريق واحد؟! إن الأمة العربية، لألف سبب، تعيش التجزئة وتعانيها وتمور بتيارات ثقافية وفكرية وسياسية متعددة بتعدّد الأنظمة والأحزاب السياسية العلنية والسرية التي في الحكم، والتي في الشارع والتي في السجون، فهل يملك أي مثقف سوى أن يتحدث باسمه، أن يخرج ببطاقة انتمائه السياسي أو المذهبي أو الفكري، وفي إطاره يقدم اجتهاده الخاص ما لم يكن قدمه بالفعل في بعض كتبه أو مقالاته؟

ولكن ماذا يستطيع كاتب قصة مثلي، (لم يلعب يوماً لعبة السياسة) سوى أن يواصل تقديم رؤاه الفنية حول هذا الواقع العربي الأليم، وسوى أن يقدم في مجال الاجابة على سؤال مجلة «الآداب» تصوره - لا عن دور جديد محدد للثقافة العربية، فهناك كما ألمحنا أكثر من تيار ومن اتجاه لهذه الثقافة - بل عن صيغة جديدة لا بد أن يتفق عليها الجميع للتفاعل الصحيح بين كل هذه التيارات الثقافية والفكرية في العالم العربي.

ولأبدأ من البداية بتنظيم أفكارى حول هذه المسألة،فدون تبسيط مخلّ أتصور أن من معاني الهزائم المتكررة أمام إسرائيل أن ثمة أخطاء أساسية في أفكارنا وخططنا الاستراتيجية لمواجهة إسرائيل بكل ما تعنيه، وأن التيارات السياسية والثقافية عندنا لا تملك في رصيدها الاستراتيجي تصورات قابلة للتنفيذ لمواجهة اسرائيل حرباً أو سلماً، أو على الأقل أن هذه التصورات لا تجد طريقًا إلى التحقّق من خلال الأنظمة أو من خلال الجماهير، وباختصار أرجو ألا يكون مخلا أيضاً، فإن التيارات السياسية والثقافية التي يندرج تحت ألويتها المثقفون العرب هي: التيار الديني، التيار القومي، التيار الليبرالي العلماني، التيار التقدمي، وتحت كل تيار منها أجنحة متعددة، والمسألة في جوهرها ليست مفاضلة بين هذه التيارات أيّها يستحق أن يقود هذه الأمة؟ فالحكم الصحيح على قيمة أي تيار لن تتاح فرصته إلا في إطار من الديمقراطية التي تسمح لهذه التيارات باختبار قواها الحقيقية من خلال الصراع الفكري مع سائر التيارات، وفي سبيل الوصول الى جماهيرها وكسب تأييدهم؛ ولا شك أن كل واحد من هذه التيارات يشكل ملمحاً أساسياً، ويعبر عن حاجة أساسية في قلب وعقل هذه الأمة خلال رحلة تطورها لتأكيد ذاتيتها الثقافية والوطنية في الأطار العام للذات القومية وبما يزيدها نمواً وثراء.

المسألة في جوهرها إذن هي الاهتداء إلى الصيغة التي تسمح لكل هذه التيارات أن تعمل معا، أن تتصارع معاً صراعاً فكريا بالدرجة الأولى من أجل الوصول الى جماهيرها، ومن أجل تنمية فكرها وتجربتها ورؤيتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وتوصيلها للناس، من أجل تقديم أجوبتها الكبرى على الأسئلة الأساسية في حياتنا، ما رؤيتها للتراث وللمستقبل؟ من أجل الدخول في حوار أعمق وأشمل مع تيارات الثقافة العالمية المعاصرة!!

فالمشكلة عندنا أن مثل هذا الحوار لم يحدث بشكل طبيعي أو بقدر معقول، مما أدى إلى شبه غيبة أو فقر في الفكر الاستراتيجي لهذه التيارات المختلفة. والأسباب عديدة، ومن أهمها موقف المثقفين من السلطة أو من قضية الديمقراطية بشكل عام: فالسلطة التي كانت في أكثر البلاد العربية خلال العقود الثلاثة الماضية تأتي في شكل انقلاب يبدأ في العادة بشعور حادّ

بالعزلة وعدم المشروعية، وفي سبيل الوصول الى هذه المشروعية كانت تتحالف مع ما يناسبها من هذه التيارات ومن مثقفيها. ولقد وقع العديد منهم في غواية الطرق السهلة، والرغبة في استخدام قوة السلطة لتكون سنداً لقوة الفكر والرأي، ووقع كلاهما، الحاكم والمثقف، في غواية أنه قادر على استخدام الآخر، ولكن كان يظهر عند الحسم، وفي لحظات الاختيار أن الحاكم هو الذي يطيح بالمثقف كلعبة من الورق، وكان كثير من هؤلاء الحكام يجدون، ويالمأساة، مثقفين آخرين جاهزين

كثير من المثقفين، أن قوتهم الحقيقية في قدرتهم على بلورة فكر ناضج يمكن أن يتحول في قلوب الناس

وعقولهم إلى اتجاهات ومواقف وسلوك وأن التغير الحقيقي الذي يتطلعون إلى احداثه في المجتمع لا بد أن يبدأ في فكر الناس ومن داخلهم، وأن السلطة حين كانت تلتمس تأييدهم في البداية فلأنهم رموز لهذه القوة، ولكن الكثيرين منهم نسوا مهمتهم الصعبة، واعتقدوا أنه يمكن من خلال التحالفات مع السلطة أن يتحقق فكرهم هم، ولم يقيموا الوزن الكافي لقضية الحرية، ولما ينبغي أن يتاح للتيارات الأخرى من حرية!!

ولم تكن قضية الحرية لتسهم فقط في حمايتهم حين يأتي عليهم الدور بل كانت ستسهم، وهذا هو الأهم في إنضاج فكرهم وتعميقه وتوصيله للناس، المصدر الحقيقي أ و الذي ينبغي أن يكون، لكل قوة.

حدث هذا أمام سمع الجميع وبصره خلال العقود الثلاثة المضية في كثير من البلاد العربية، فهل آن للمثقفين جميعاً بمختلف تياراتهم أن يتعلموا الدرس؟ هل ان للمثقفين جميعاً أن يصدقوا أن الصيغة الديمقراطية التي توفر القدر نفسه من الحرية للجميع مطلوبة دائماً، وفي كل وقت، وأن القتال من أجل ضمان وتوفير هذا

القدر الممكن من الحرية للجميع هو معركتهم

لست أقفز بهذه الكلمات فوق مشكلة الحرية البالغة التعقيد، سواء الحرية بمعناها السياسي أو الاقتصادي، وأدرك أنهم يمكن أن يبدأوا بالاختلاف في تحديد معنى الحرية. وليس هنا مكان الجدل في هذه القضية، ولكني أتصور أن في ضوء تجربتنا المريرة الماضية يمكن الحديث عن قدر من الحرية، يكون تحديده وتحديد شكله وأسلوبه مهمتهم الأولى في هذه المرحلة، وبخاصة في عصر الثورة التكنولوجية في أدوات الاتصال، فلقد كان من أشد الغوايات التي وقع بسببها المثقفون في الأنشوطة غواية امتلاك الدولة وسلطتها لأجهزة النشر والاتصال والتأثير في الجماهير، وسوف تكون هذه المسألة وغيرها من أهم المسائل التي تطرح للحوار فيكون لكل «تيار» ساعات أو أعمدة في الصحف والاذاعة والتلفزيون بنسبة ما لمه من مقاعد في البرلمان. . . . أو أي شكل آخر.

لقد ثبت لنا جميعاً خلال العقود الثلاثة الماضية أن النوايا لا تكفي، وأن الغايات النبيلة لا تتحقق بأية وسيلة، وأن العنف قد لا يختصر الطريق بقدر ما يملأه بالألغام، وأن مصادر القوة الحقيقية وعناصرها في هذه الأمة لن تنمو ولن تصبح قوة حقيقية إلا في جو من الحرية، وبقدر ما نملك من اسبابها وبقدر ما نتحمل من أعبائها. لقد كانت المعركة مع إسرائيل هي الحجة الشهيرة التي بسببها ضاعت الحرية في بلاذنا العربية، خلال العقود الثلاثة الماضية وكانت النتيجة أن خسرنا الحرية، وخسرنا نتائج المعارك مع إسرائيل، وكسبت إسرائيل نتائج العديد من المعارك مع صيغة من الحرية لا نزعم أننا نملك مثلها.

إذا أنجز المثقفون العرب هذه المهمة الأولى، توفير صيغة ملائمة من الحرية لكل التيارات الثقافية، إذا أدركوا في النهاية أن

الديمقراطية ليست مجرد صيغة محددة نستوردها من الغرب، وأنها من خلال كل أشكالها درجة عالية من نضج الذات الفردية والوطنية والقومية، وأنها اتجاه نحوالموضوعية واحترام الذات وتنميتها من خلال الحرص على الاعتراف بما للآخر من حقوق في الحوار بل والصراع، إذا أدركوا أن المسألة رغم هولها ولا أقول صعوبتها تستحق، إذا شعروا بما شعرت به تلك المجموعة من التيارات الثقافية المختلفة التي جمعها سجن السادات في سبتمبر سنة ١٩٨١ حين اكتشفوا وهم يتحاورون داخل السجن ان ثمة أشياء كثيرة يمكن أن يتفقوا بشأنها.

إذا حدث هذا أو شيء منه فيمكن أن يتجه المثقفون تحت مظلّة الأمان التي يمكن أن توفرها هذه الصيغة من الحرية لإنجاز أهم أدوارهم التي لم يتمكنوا منها في الماضي بسبب فقدانهم للأمن، ولعبة القفز فوق اكتاف السلطة أو السقوط تحت أقدامها. أعني بهذه الأدوار أن يقوم مثقفو كل تيار ببناء تصورهم الاستراتيجي لحلول أهم المشكلات الكبرى في أوطاننا وفي أمتنا ومجتمعاتنا . أن يقدموا البدائل من الأجوبة أمام التساؤلات الكبيرة في حياتنا السياسية والاقتصادية والثقافية..! بحيث لا نفاجأ دائماً بالأحداث والمتغيرات..!

إن الثقافة الجديدة التي ننتظرها لا يقدمها مثقف واحد أو تيار واحد حتى يملك شخص حق الحديث عن أهم مقوماتها أو أدوارها، ان الثقافة الجديدة التي ننتظرها هي التي سوف تنمو بشكل طبيعي كثمرة رائعة لمناخ من الحرية يبدعها مثقفون أحرار يدركون أهمية الحرية لغيرهم كما يدركون أهميتها لهم.

لحظتها يمكن أن يقوم هؤلاء المثقفون الأحرار بتحليل ما حدث في بيروت وما جرى قبل ذلك وما يجري بعده، واستخلاص أهم المتغيرات ودعوة الناس الى مواجهة الحقائق، ولحظتها سوف يكون الجميع أمام مسؤولياتهم.

أعتقد أنه من هنا يجب أن تكون البداية كما قالها منذ ثلاثين عاما مفكر عربي اسلامي كبير هو الأستاذ خالد محمد خالد.

الكويت

صُورَةُ الوَاقِعِ العَـرَبي

محيي الدين صبحي

بما أن «الآداب» تظل سجلّ ضميرنا القومي، فمن المناسب في هذه الأيام أن يعود المرء إلى اعدادها التي صدرت في أعوام الهزائم والانتصارات، ١٩٥٦، ٦١، ٦٣، ٦٧، ٧٣، ٧٦. . . ولو عاد المرء إلى تلك الأعداد لفوجىء بأن الفكر العربي لا يتذكر نفسه بعمق إلا في أعقاب هزيمة، ثم يغفو. فهل يغيب أم يغيّب حتى يصحو على هزيمة أخرى، فيغتنم فرصة اختلال أجهزة السلطة ليقول كلمته ثم ينجو بنفسه من سيف السلطان، أو يصير الكاتب لسان الدولة؟

ولكن الأمر مختلف هذه المرة. . .

إذ يجب أن يكون المرء مصاباً بمرض العظمة حتى يتمكن من تجاهل الأحزاب العربية الحاكمة والمحكومة، والأنظمة التي مضى عليها حين من الدهر يتجاوز العشر سنوات ــ فكلها بدأت في حوالي ١٩٧٠ ولا يبدو أن لها نهاية، لذلك يجب التعامل معها لرؤية الواقع بعيونها. وينبغي أن يكون المرء مجنوناً حتى يستطيع تجاوز الكيانات العربية والمحاور العربية والعلاقات العربية ــ العربية والعلاقات العربية ــ الدولية. ثم هناك اسرائيل وأميركا، ويبدو أنهما أصبحتا من أهل البيت الشرق أوسطي إلى درجة أن الأنظمة وتنظيماتها وبناها لم تجد بداً من انشاء علاقات وحوارات مباشرة أو بالواسطة، بعد أن كان المفكر الذي يلفظ اسم الولايات المتحدة، أو يظن أن بالامكان التوصل إلى صيغة تقنع بعض الاسرائيليين والأمريكيين بتحديد حدود اسرائيل ودورها، يرمى بالحجارة الثورية وتتحرك ضده الأجهزة وتجهيزاتها، فيخرج الجميع «شرفاء» ويبقى وحده وسط المعمعة مذموماً مدحوراً ــ كان الجميع يؤكدون أمرين مطلقين: العداء المطلق للولايات المتحدة والولاء المطلق للاتحاد السوفياتي. أما اسرائيل فكانوا يصرون على إلغائها ولا يقبلون بأقل من إلغائها على الرغم من أنها ماضية في ضمّ الاراضي العربية واستيطانها وتهجير عربها وتدمير ما يحيط بها. هل كان هذا انفصالاً عن الواقع؟ هل كان مثالية مطلقة لا تصلح أساساً لأية سياسة؟ هل كان استناداً إلى تطمينات سرية من السوفيات أو الآلهة على السواء؟ هل كان لديهم تطمينات، ولو كاذبة، من الأعداء؟ أم كانوا يقفون في الهواء ويعملون في الخفاء؟. . لا بد لكل سياسة من أساس مادي ينطلق منه الساسة الى تغيير العالم أو المنطقة المحيطة بهم. وهنا تخطر للبال العلة القاتلة التي أضيفت الى أدواء العرب المزمنة: المزايدات العربية التي توضع فيها القضية بالمزاد ثم يغلي الفرقاء المتنافسون بها الثمن، حتى يصح فيها قول القائل: لما غلا ثمني عدمت المشتري. فالذين أرادوا الوحدة لم يقبلوها إلا «اندماجية، فورية شاملة»؛ والذين أرادوا التحرير لا يرضون بأقل من استرجاع اسبانيا؛ والاشتراكيون يبدأون بتحطيم كل البنى التجارية والصناعية والزراعية

والاجتماعية. حتى إذا فرط كل شيء فرطوا هم أيضاً معه. إذ بما أن الكمال ليس من طبيعة هذا العالم فإن الذي يسير في غابة العلاقات الدولية وعيناه عالقتان بالسماء لا يأمن الوقوع في حفرة او في فخ أو في أنياب الوحوش الضواري. أنا أعلم الناس بأن اتّباع ما يسمى سياسة واقعية لا يعني أقل من الاستسلام الكامل. ولكن التمسك بالمثل الأعلى يفرض علينا ان نكون مثاليين في كل شيء. في السلوك المالي والاجتماعي والسياسي، في السرّ كما في العلن. أما أن يكون المثل الأعلى حصيلة مزايدات لفظية، وليس ناتج ممارسات واجتهادات ــ ثم لا يرافقه إلا ضرب رقم قياسي من التجاوزات من كل نوع وجنس، فعندئذ لا يكون هذا المثل الأعلى إلا غطاء نلتحق به لنخفي عجزنا وضعفنا وفسادنا عن عيوننا وعيون الآخرين. وهذه بالضرورة مقدمة ونتيجة للتفرقة واضطهاد كل فئة لغيرها، وتحويل أي سلطة الى مجموعة من العصابات يهم كلاً منها أن تحمي نفسها من كيد الأصدقاء قبل غدر الأعداء. ونعوذ بالله أن يكون هذا هو واقع الثورة العربية بفصائلها المتعددة المذاهب و «الجنسيات»! فكل الثورات العربية والأنظمة العربية والتنظيمات العربية كلها وحدوية بلا استثناء، أو أنها تهدف الى الوحدة العربية، وإذا عجز العرب خلال أربعين عاماً عن اقامة دولة قومية فقد نجحوا في جعل كل تشكيلاتهم قومية وحدوية. فخسرنا الوحدة وربحنا التشكيلات!

ومنذ أيام ملوك الطوائف في القرن الثالث عشر الميلادي بلغ العرب أوج وعيهم السياسي والاقتصادي والعسكري. فقد اكتشفوا أن صدّ العدوان الأوروبي عن الاندلس لا يتم إلا بالوحدة. ومع أن تناحرهم أدى إلى إخراج العرب من الاندلس فقد قاموا بواجبهم في أن اعتنقوا الوحدة مبدأ بلا تطبيق. ومع أنهم خرجوا من الاندلس فقد انتصروا في كل المعارك التي خاضوها ضد عدوهم المشترك: كانوا يحولون كل هزيمة عسكرية الى نصر سياسي عن طريق مفاوضيهم الاذكياء جداً، الى أن امّحى الشعب وبقيت الأنظمة. السبب لا يرجع الى أي نقص في الوعي أو النية الطيبة بل إلى انعدام التزامن بين الأهداف: فحين تريد فئة التحرير تتجه فئة أخرى نحو التوحيد، وثالثة نحو الاشتراكية، ورابعة نحو الحرية ــ وهكذا، فعلى الرغم من أن الجميع وحدويون اشتراكيون تحرريون فإنهم لا يلتقون أبداً. ينتج عن هذا أنهم يستنفدون قواهم في صراعاتهم الداخلية، مما يفرض على كل فئة أن تجعل المحافظة على كيانها غايتها الأولى، فتنغلق وتتصلب بنيتها فتنعزل: عزلتها تجعلها تتراجع عن وعيها الوحدوي إلى لاوعيها الإقليمي ورواسبها التاريخية فتتحلل شخصيتها العصرية وتتخذ شكلاً اقليمياً أو طائفياً. ذلك أن من طبيعة أي تجمع بشري أن يكون منفتحاً في أيام الصعود. ففي فجر الاسلام انفتحت القبائل والمناطق والمذاهب بعضها على البعض الآخر، فلما بدأ السقوط العربي انغلقت البنى السياسية والاجتماعية وتراجعت الى أصولها القبلية والطائفية، وانشغلت بالخطف والذبح واقامة الحواجز واعتراض المسافرين والتدقيق في هويات المارّة وأنسابهم. ولم يكن العدو الخارجي ليعترض على هذه الحالة القائمة او يحول دون استمرارها، لذلك فانه لم يفرض عليهم معركة فاصلة بل اقتصر الأمر على صراعات جزئية، فيها يتم تعديل الحدود كل مرة بموجب مفاوضات مشرفة وتسوية عادلة. وبذلك لم ينهزم نظام ولم يسقط حاكم ولم تتراجع رسالة.

وآلية مثل هذا الانقراض يسهل شرحها: فحين تتصلب البنى السياسية بدافع القمع الداخلي والخطر الخارجي، يجعل الزعيم من نفسه تجسيداً لماضي الجماعة وحاضرها ومستقبلها، وبذلك يصبح كل انتقاد له مساساً بالجماعة كلها. ولما كان كل زعيم تجسيداً

لجماعته (طائفته، عشيرته، إقليمه.. الخ) فإن العمل السياسي يغدو يدور في حلقة مفرغة لأنه ينطلق من شخصية الزعيم ويعود إليها مقتصراً عليها دون مساس بالعالم الخارجي: لهذا يغدو العمل الوحدوي مستحيلاً، وكذلك أي عمل سياسي لأن المحافظة على الجماعة يوجب الابتعاد بها عن الجماعات الأخرى، بذلك يتم تلفيق أهداف لها مخالفة للجماعات المجاورة، على نحو ما شرحنا.

ومن هذا المنطلق لا يهزم الزعيم وإنما تتآكل الجماعة من حوله كأنما بفعل التحات: تخسر ضحايا وأرضاً لكن التسوية التي تحافظ على مكانة الزعيم تُعدّ على الدوام انتصاراً. شاهدنا ذلك عام ١٩٥٦ حين تحولت الهزيمة العسكرية الى نصر سياسي.. وقد ظل الزعماء العرب الى اليوم ينتصرون على هذا النحو. وفي عام ١٩٦٧ حين لم يستطيعوا الحصول على تسوية سريعة لهزيمة حزيران،أعلنوا أنالثورة أنتصرت لأن العدو لم يستطع إسقاط نظام الحكم الثوري. صحيح أن بقية القوى السياسية العربية من أصدقاء وأشقاء تخلت عن عبد الناصر وتركته يخوض معركة الأمة وحيداً ــ لكن هذه هي شكوى كل زعيم وتنظيم. فكل واحد يطلب الدعم الكامل من الجميع، ويعرف أن الاجماع طريق النصر. وتكون هذه الشكوى هي الوسيلة «لتأميم» التنازلات المطلوبة. وبهذه الطريقة خسرنا الارض وكسبنا الحكم والأنظمة والتنظيمات الثورية ــ الأهم من ذلك، ألغي مفهوم الهزيمة من التحليل السياسي والوعي الموجه. واقتصر مفهوم الهزيمة على قدرة العدو على اسقاط نظام أو حاكم، على اعتبار الحاكم تجسيداً للحزب والاقليم والعشيرة والطائفة. أما الخسائر الأخرى من أرض وضحايا واقتصاد فيمكن التغاضي عنها لأن استمرار الزعامة يعوض عن تلك الخسائر سواء بوعود خطابية او بطقوس أسطورية تفتعل فيها معركة ضد عدو داخلي ينتصر فيها النظام ويثبت تماسكه والتفاف الجماهير حوله.

وإذن، هذا هو الواقع العربي: متضامن، وحدوي،منتصر. ولا مجال للتساؤل عن حدوث العكس، لأن الواقع الرسمي يكذب ذلك.

بيروت

تغييب المثقف عن الساحة

بلند الحيدري

ليس من الجديد في شيء ان نقول: بان انتصارات الشعوب في حروبها ما كان لها ان تتحقق لو لم يسندها في ذلك الشيء الكثير من عمق ايمانها بعدالة قضيتها وجدوى نضالها من ناحية، ومن ناحية أخرى لو لم يسعفها مدى وعيها بقدرتها وامكاناتها ووضوح ماتتطلع اليه في الغاية المرجوة، الى جانب ما وقعت اليه من معرفة عامة بكل ظروف عدوها وامكاناته وبمداخل حياته الاجتماعية والنفسية لتوسع من أساليب غزوه. وللمثقف دوره المهمّ، والمهمّ جداً في ذلك الايمان بالقضية العادلة، وفي تعميق وعي الشعب بنفسه، فالشعب بالتالي ليس كماً من الناس، بل هو، وفي الدرجة الاولى وعي الشعب بنفسه وبحضارته وتاريخه وانسانيته، وان اي اعتراف منا بهزيمتنا في أية ساحة كانت، انما تستبطن ضمناً ادانة واتهاماً للمثقف بالقصور في اداء واجبه، وباخلاله بما انتدب اليه، غير ان هذا الاتهام وتلك الادانة قد يصبحان بدورهما اصبع اتهام وادانة موجهة ضد كل الذين سلبوه دوره وانتزعوا حريته كي لا يكون اكثر من اسد «سيرك» عليه ان يتقن ألعابه البهلوانية في انتظار ان يحظى بقطعة الحلوى الصغيرة، أو دفعاً للسوط من ان يهتز ويلسع ظهره.

وهذا ما اختلفت الينا ضروب متعددة منه بعد ان احتكر السياسي بالصدفة، دوره في القائد والفيلسوف والمفكر والمؤرخ والعالم والاديب، مستعيناً بما وفرت له سلطته الجائرة من وسائل يتوسل بها لنفي ما لا يدور في فلكه حاكماً ومفكراً وفيلسوفاً.. الخ مما لم يُبْقِ للمثقف من ابناء هذه الامة غير مهنته في التابع الخانع الذي اوكل اليه الحاكم ان يقوم بخدمته ويمسح جزمته صباح مساء، ويلمّع اوسمته التي خلعها هو على نفسه، وفرض على ابناء وطنه ان يتخذوا منها مقاساتهم لتقدير فراعة قامته وضخامته شأنه، ومن أبى من المثقفين ان يكون غير ما أريد له فما عليه الا ان ينسى ما كان ان تثقّف به في يوم ما قبل ان يسعى الآخر لانسانه وتحويله الى واحد من القردة الهندية الثلاثة.

وبأثر من مهنة تلميع الأوسمة المزيفة التي شاع وذاع صيتها بين الكثيرين من المثقفين الداعين لها والمتفاضلين على غيرهم بها، تحول دورهم من السعي الى توحيد الهدف وايضاح معالم الطريق، الى دعاوى للتجزئة والتفرقة اندفاعاً وراء هذا الحاكم او ذاك، والى اذكاء المعارك الحامية بين الاقطار العربية، لتستحيل الأواصر حدوداً وسدوداً مهنية وحواجز قاسية وبوابات لسجون مفتوحة على بعضها البعض، مما مهد لاسرائيل ان توسع من حرية حركتها بعد ان ادركت ان شأنها بالنسبة لنا يضعها في العدو الثاني، اذ ان لكل قطر عربي، مع الاسف، من جاره وشقيقه العربي عدواً أول له يكفيها مغبة محاربته لها، وان لكل من هذه الاقطار حقيقته النسبية الموهومة التي نالت من وحدة الهدف في الوقوف والتصدي واعانت العدو على طغيانه، فثمة من يخشى على غناه من أي تأكيد في الانتساب يلزمه بشيء من التضحية، وهناك من آثر ان يستعدي الغريب على قريبه تأكيداً لهيمنته.. وهناك من باع نفسه في أسواق النخاسة الدولية.. وهناك.. وهناك... وبذلك فوّتنا على انفسنا فرصة ذهبية رائعة لأن نفرض، بغنانا وتاريخنا، ووحدة موقفنا، وامكاناتنا الهائلة، دورنا الحضاري في العالم أجمع.

وان ما يبيّت للعرب من قبل اعدائهم، متعددي الوجوه والمبادىء والاشكال والملابس، لكبير وخطير، وان اسرائيل اذ ترفض ان يكون لها دستور يلزمها بحدود واضحة كباقي دول العالم، انما تفعل ذلك لغاية في ان تتعاضل حدودها وحدودنا بأكثر من معنى في الواقع والرمز، فلا يستقيم لنا أمر الا بارادتها التي تطمح الى تفريقنا أمماً وشيعاً، والى ان نتحول أسواقاً لصادراتها بمختلف اشكالها الاقتصادية والفكرية، ومصادر لتعزيز اقتصادها. وان العلم بكل ذلك يستوجب على المثقف ان يعي مدى كبر مسؤوليته، ويستوجب على الحاكم ان يدرك أن غياب المثقف عن الساحة هو غياب لوعي الشعب بنفسه، وان عزله ونفيه وسلب حريته هو ضرب من الوأد لكل مقومات الامة في ان تنتصر على اعدائها، ولبنان اذ يذكرنا اليوم، عبر محنته، بذلك، انما يذكرنا في الوقت ذاته باننا، شئنا أم أبينا، كنا من بعض اسباب تلك المحنة بتفرقنا وتخاذلنا وانانيتنا، وان من استفرده العدو اليوم سيستفرد غيره من الاقطار العربية واحداً إثر الآخر ان لم نتوحد في الهدف والرؤية والجهد المتناسق.. وان لم ندرك ان من العار ان لا نسمح للمثقف ان يعمق حسنا ووعينا بكل ما يحيط بنا من الاخطار والنوايا السيئة، وبكل ما يبيت لنا عدوّنا.

لندن

قضيّة وجود الإنسان العربي

محمد صايغ

أشكر الأخ الدكتور سهيل أدريس، الذي بادر كعادته وهو المبادر دائماً، في الدعوة الى وقفة التقييم هذه، لعلنا نستطيع أن نحدّد ملامح المرحلة، ونجنّب اجيالنا القادمة السقوط والضياع.

ان الوضع العربي بمجمله يعيش كارثة وطنية، فهذا هو عصر الرّدة في أحلك أيامه، ولا مجال للانتظار. وهذه لحظة تاريخية حاسمة بالنسبة لقوى الثورة العربية وعلى وجه الخصوص كتّابها ومفكريها، فإما أن تعي دورها التاريخي، وتتصدّى لحمل مسئولياتها، أو أنها تكون قد حكمت على نفسها بالهلاك.

فالدولار النفطي يشتري كل شيء، الهواء والماء والبحر والأرض والقيم والأقلام، والوطن يؤجر أو يباع للفاتحين.

لقد كان واضحاً، عبر السنوات، أننا نمر بمأزق ايدولوجي خطير، قاد الكثيرين الى الخطأ وقاد الجميع الى الخطيئة، بدءاً من تحديد الصراع في المنطقة وانتهاء بالفصل بين التحرر الوطني والتحرر الاجتماعي ودور الطبقات، مروراً بدور الجماهير العربية في تحرير فلسطين والاجزاء المغتصبة من الوطن العربي، وانتهاءً بفهم قضايا الديمقراطية وإطلاق مبادرات الجماهير وطاقاتها.

ففي سعي أمتنا العربية من أجل استقلالها ووحدتها وتقدمها حددت، منذ البداية، جبهة أعدائها وجبهة اصدقائها، ووضعت أمريكا على أول قائمة الأعداء التاريخيين لأمتنا، واعتبرت الكيان الصهيوني بأهدافه التوسعية قاعدة عسكرية للامبريالية تستخدمها للسيطرة على مقدرات وطننا العربي، وأداة تشهرها لوقف نموّه وتقدمه. كما اعتبرت الرجعية العربية المتصالحة والمتعاونة دائماً مع الامبريالية في خانة الأعداء.

وتمر فصول الهزائم العربية المتلاحقة، لتنتهي بمسلسل التنازل الذي بدأ بقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، وتنجح الرجعية العربية وأبواقها في تزوير الدور الامريكي، وتنتقل به من عدوّ الى وسط ثم الى حليف.

وعبر هذا الانتقال، كان يتم القمع المنظّم، والتصفية المنظمة لقوى التحرر والديمقراطية العربية - وتشكل مصر المثال الأبرز في مسيرة التراجع هذه.

ان دخول نهج التسوية الى الفكر العربي، وتسلّله الى الأقلام، وحملات الترويض والتطبيع عبر الصحافة اليومية والفكر السياسي، قد انتقل بالكثير من الأقلام من موقع الى موقع، ونشطت في تبرير العجز والاستسلام باسم العقلنة والتعقل والاعتدال، وتذرع البعض بالرأي العام العالمي الذي رأينا سقف مايمكن ان يقدمه اثناء حصار بيروت، فهو لم يتمكن مجتمعاً من ان يحمي اطفالنا من الذبح. ان هذا الفكر قد قادنا الى هاوية بلا قرار، أحسن خياراتها الوقوع في شرك كامب ديفيد والسلام الامريكي وشطبنا عن الخارطة السياسية والجغرافية. . وساهم حتى الآن في سوْقنا الى مظلّة الرجعية العربية التي صادرت دور الأمة العربية كاملاً في مؤتمر فاس الذي يعبّد الطريق أمام مبادرة ريغان والاعتراف بشرعية الوجود الصهيوني على أرضنا وشرعية عدوانه.

لقد أثبتت معارك لبنان التناسق الكامل في دور الثلاثي المعادي الامريكي - الصهيوني - الرجعي:

كانت امريكا تقود المعركة من خلال ممثّلها فيليب حبيب مستخدمة آلتها العسكرية المتطورة على يد الجيش الصهيوني، ونفوذها السياسي عبر الرجعية العربية.

ولكن معركة بيروت أثبتت، بالمقابل، قدرة الجماهير وعطاءها الذي فاق كل تصور، أثبتت أن الجماهير لا تخاف ولا تتعب، وأنها قادرة على التأقلم مع الظروف مهما بلغت من الصعوبة والتعقيد.

كما أثبتت، عبر وحدة المقاتلين العرب الذين خاضوا المعركة جنباً الى جنب، بأن النضال العربي لا يمكن تجزئته، وأن الحرية لا تتجزأ، فالعروبة بمعناها الحقيقي تولد في خنادق النضال عبر وحدة المقاتلين ووحدة الدم ووحدة المصير والهدف، وليس عبر مؤتمرات القمة وعباءات النفط ورؤوس الاموال. وان المعركة مع العدو صراع وجود وليس نزاعاً على الحدود، وأننا بالكفاح المسلح فقط نستطيع ان نتغلّب على الآلة العسكرية الأمريكية الصهيونية المتطورة.

ان سبيل التصدي الجادّ والجدّي للعدوّ هو بانتهاج الديمقراطية اسلوباً في الحكم والعمل، ودون تحقيق ذلك تبقى الشعارات كذباً وعبثاً، وسوف يستمر العدوّ في عربدته وإرهابه للعرب وابتلاع اراضيهم قطعة قطعة والتمادي في فرض سيطرته عليهم.

وأرى أننا مطالبون الآن الى التنادي لعقد مؤتمر للأدباء والكتاب والمفكرين العرب، لتقييم المر-لة، وتقييم حرب لبنان، وإعادة تقييم أفكارنا ووضع الأمور في نصابها، قبل ان تطبق مشنقة السلام الأمريكي على عنق لبنان والقضية الفلسطينية.

أما على المستوى السياسي، فلا بد من تشكيل جبهة عربية مقاتلة تشكل امتداداً عضوياً للنضال الفلسطيني، فلا مجال لتجزئة النضال بعد اليوم، ولا سبيل إلّا بالكفاح المسلح، وقضيتنا ليست قضية أرض محتلة فقط، وإنما قضية حرية ومستقبل ووجود الانسان العربي.

دمشق

عن المعركة الثقافية

نزيه أبو نضال

الحديث عن الثقافة راهناً ومستقبلاً لا يمكن ان ينفصل عن الحديث عن السياسة والحرب وانظمة الحكم والديمقراطية.. الخ.. فالثقافة ليست جزيرة يمارس عليها المثقفون ابداعاتهم ونتاجاتهم الفكرية، ولكنها جزء من المعركة الشاملة التي تخوضها كافة القوى والطبقات على كافة الأصعدة وفي جميع المجالات.

المثقف هو قبل كل شيء، كائن اجتماعي ووظيفة اجتماعية. وهو يلعب دوره أساساً انطلاقاً من هذا الموقع الاجتماعي، وكجزء من عملية الصراع الطبقي والوطني التي يعيشها شعبه.

وانطلاقاً من هذا الفهم فإن الثقافة ـ بأوجهها المختلفة ـ ليست سوى واحدة من أسلحة المثقف المتعددة التي سيتخدمها في معركته الشاملة.

ان رؤيتنا هذه للمسألة الثقافية يجنّبها ان تكون شيئاً ما (فوق) المجتمع، أو اعتبارها شيئاً ما على (جانب) الحركة الاجتماعية. ومن هنا بالضبط، أي من تحديد الموقع الاجتماعي للمثقف، يمكننا تقييم دور الثقافة في الفترة السابقة، ويمكننا الحديث عن دورها مستقبلاً.

المثقف الملتزم بقضايا أمته، والمنخرط في صفوف شعبه يدرك بوعيه وبحسّه التاريخي المؤشرات المبكرة والعامّة لحركة الصراع فيسارع على الفور بتوظيف كافة امكاناته النضالية والفكرية والابداعية باتجاه المعركة القائمة او المنتظرة.

حين أحكمت الدكتاتورية العسكرية قبضتها الفاشية على رقبة الشعب التشيلي صرخ بابلو نيرودا الذي غنى طويلاً لعيون الزا: الآن نشهر الكلمات المقاتلة.

وتحول شعر نيرودا الى سلاح بيد المقاتلين وعمال المناجم الذين يناضلون من أجل الحرية والديمقراطية.

في معركة بيروت المجيدة خاض المثقفون العرب على الجبهة الثقافية واحدة من أشرف معاركهم في التاريخ المعاصر كله. لقد اندفع مئات الكتاب والأدباء والشعراء والفنانين للعب دورهم كاملاً في اطار المعركة الشاملة التي تخوضها الجماهير دفاعاً عن بيروت ولتعزيز صمودها.

وأسهم هؤلاء المثقفون بدور بارز في خوض النضال الثقافي والاعلامي والتعبوي والسياسي بل والعسكري أيضاً.

انخرطت الثقافة في خضم الصراع ولم تعد (فوق) أو على (جنب)، وشكلت بالتالي النموذج لمستقبل النضال الغربي. لماذا تجرأ المثقف العربي في بيروت على مواجهة آلة الموت الصهيونية ولم يتجرأ على مواجهة آلة القمع والاستلاب العربية؟

هنا تنفتح المعركة الديمقراطية بأوسع ابوابها وتدعو الجميع لخوضها بدون هوادة أو تردد.

لماذا تقاتل بيروت منفردة في ظل صمت عربي مطبق؟ هنا تنفتح المعركة القومية ومعركة الوحدة العربية بأوسع ابوابها أيضاً وتدعو الجميع لخوضها.

كيف تصمد الجماهير المسلحة وتقاتل في بيروت بينما الجماهير العربية مكبلة بالخوف والانتظار؟

هنا تنفتح آفاق حرب الشعب العربية وتدعو الجميع لخوض غمارها دون تردد.

ان الانطلاق من دروس بيروت العظيمة في جميع هذه المجالات وغيرها، والاسهام الثقافي في بلورتها وتعضيمها هو الذي يعزز ثقة الجماهير العربية نفسها وبقدراتها على الحاق الهزيمة النهائية بالعدو مهما بلغت التكاليف وعظمت التضحيات.

ان ثمة نهجين يحكمان الواقع العربي الآن: النهج الأول: يرى ان ما حدث في لبنان مجرد هزيمة أمام عدومتفوق لا نستطيع مواجهته.. وعلينا بالتالي التسليم بشروطه صلحاً واعترافاً وانفتاحاً، كما دعت منظومة الدول العربية في فاس.

النهج الثاني: منطلق من تجربة الصمود والقتال العظيمين لجماهير بيروت، ويدعو للاستفادة منها وتعميمها كوسيلة اساسية لمجابهة العدو، وهنا بالضبط يتحدد دور ومهام المثقفين العرب وكافة القوى المؤمنة بتحرير الارض والانسان العربي من الاحتلال والقمع.

دمشق

العَودَة إلى الدّيموقرَاطيَّة...

محمد زنيبر

دور المثقف في المجتمع واضح، لكنه محدود. ونستطيع أن نؤكّد، دون الخوف من المبالغة، أن المثقفين العرب أو على الاقل، أن الواعين منهم، وهم كثير، حاولوا أن يقوموا بدورهم في توعية الأمة العربية، في تنبيه الحكام العرب وتحذيرهم من عواقب السياسة التي يتبعونها، وما فتئوا يقترحون عليهم البدائل لها. وما فتئوا في أبحاثهم ومقالاتهم يحللون الاسباب الذاتية والموضوعية التي تجعل المعسكر العربي دائماً في موقف المغلوب والمنهزم. وما أكثر المجلات التي صدرت في السنين الأخيرة والتي تهتم بالموضوعات الجادة في العالم العربي فتكشف عن كل العيوب والأخطاء وتتناول كل القضايا الشائكة في مجتمعاتنا!

نستطيع أن نقول، اذن، إن المثقف العربي لم يبق ذلك العضو المدلل في المجتمع الذي يعيش في برجه العاجي وينشد السعادة في الاحلام والهروب من الواقع. انه، مهما اختلف انتماؤه المذهبي، يشعر بواجبه ويحاول ان يؤدّيه، وبالخصوص تجاه القضية الفلسطينية ومجابهة الصهيونية. فالمثقفون العرب، مهما تباعدت نزعاتهم الفكرية والسياسية، لهم الموقف نفسه، وأكاد أقول التفكير نفسه تجاه تلك القضية.

ولكن، ما الحيلة اذا كان المثقفون العرب يصيحون في واد؟!

طبعاً هنالك «ثقافة» مبنية على المداهنة والتملق، وهنالك «مثقفون» مرتزقة. وأنا لا أتحدث عن هؤلاء ولا عن «ثقافتهم»، لأن الثقافة الصميمة تتناقض مع الارتزاق والتملق والمداهنة. ولكني أتحدث عن المثقفين الذين ينطلقون من ضمائرهم الحية فأؤكد انهم طالما رفعوا عقيرتهم، وطالما نصحوا واقترحوا وعقدوا الندوات والمؤتمرات!

ولكن للثقافة حدودها التي لا تتجاوزها. فإذا كان الى جنب المفكر رجل العمل الذي يتعاون معه في تفاهم وانسجام، تتحول الثقافة من أفكار ومُثل الى واقع ملموس. وهذا هو الذي أعوزنا في الماضي وما زال يعوزنا الى الآن. فرجل العمل عندنا هو الحاكم، هو السياسي، هو رجل الدولة. والمؤسف هو أنه في مجتمعاتنا يجهل المثقف أو يحتقره. ولعل ذلك إرث من الماضي حيث كان الخلفاء والامراء والحكام ينظرون، في الغالب، الى المثقف على أنه رجل يصلح للأنس، للمنادمة، لكتابة الرسائل، ولكن قلما يعتمد عليه في التدبير، في الاضطلاع بالمسؤوليات الكبرى. والمتنبي، أكبر شعراء العرب حاول مع حكام العرب الذين تقرّب اليهم بشعره أن ينال منصباً أو ولاية، فكلّهم منوه وضحكوا عليه ولم يسعفوا طلبه.

فالحاكم في مجتمعاتنا ينتظر من المثقف ان يمجده وأن يصفق له وأن يمشي في ركابه. فإذا بدرت منه كلمة حق في التنبيه والنقد ينظر اليه شزراً، ويصنّف من الاعداء، وممن لهم العقوبة بالمرصاد. ولربما أو ذي في معاشه وسلب من حقوقه.

ولذلك، فأنا لست أتردد في القول بأن المسؤولية فيما حدث ويحدث بالعالم العربي لا تقع على المثقفين، وانما على السياسيين ورجال الحل والعقد،

حسب الاصطلاح التقليدي. واصلاح هذا الوضع يكمن في تغيير عقلية السياسي والحاكم العربي حتى يتجرد من انانيته وكبريائه، ويتحلى بما يكفي من التواضع ليستمع للمثقف ويقدر رأيه. فاذا أخذ الحاكم بهذا الموقف، بالفعل، فسيكون ذلك حدثاً كبيراً جداً في مجتمعنا، جدير بأن يؤرخ، لأن فيه برهاناً ضمنياً على أنه أصبح يعترف بشيء اسمه حرية الفكر ومن ورائها القيم الديموقراطية.

وحينما نذكر كلمة الديموقراطية، فإننا نمس بأكبر شيء ينقص مجتمعاتنا وفيه يكمن اصلاحها وانقاذها من التخلف. فالمأساة التي عاشها العرب مؤخراً في لبنان والتي جاءت بعد مآس سابقة لا تعني هزيمة العرب من حيث هم عرب، وانما تعني هزيمة لنوع من التفكير والممارسة مبني على تجاهل الجماهير والاستئثار بالرأي والتدبير. والدواء يكمن في تعبير ذلك بالرجوع الصادق الى الديموقراطية.

والخلاصة من كل ذلك ان الثقافة العربية الجديدة التي يجب أن نعمل على خلقها بعد كل هذه التجارب المريرة يجب أن تتركز على النضال من أجل الديموقراطية، من أجل أن يكون لرأي المواطن صداه الطبيعي، من أجل أن تتلاقح الآراء على اختلافها في الساحة العمومية، فيتولد عن تلاقحها الرأي الجماعي الذي يجب أن يبني عليه الحاكمون خططهم. وكل تخلٍّ، وكل نكوص عن مثل هذا الهدف يخطّ بالثقافة الى مستوى دون مستواها الطبيعي.

سلا (المغرب)

المثقفون ومعركة الوعي والتصميم

ادريس الناقوري

حين التقيت، مصادفة، بالدكتور سهيل ادريس كان طبيعياً أن يشدنا الحديث الى أحداث الغزو الصهيوني للبنان والى مأساة العرب في بيروت. ولما أطلعني على صيغة الاستفتاء الذي تنوي «الآداب» نشره مرحباً بمشاركة بعض الكتاب المغاربة فيه، ورغب إليّ في الاجابة عن السؤال، أحسست بشعورين متضاربين:

ـ ابتهاجي بهذه المبادرة التي أكدت لي استمرار الحياة في لبنان وفي بيروت خاصة، واثبتت إرادة سكان هذا البلد المنكوب في الحياة، وعزم مثقفيه على مواجهة التحدي الصهيوني الامبريالي عن طريق مواصلة النضال الثقافي والفكري.

ـ التحفظ الذي ساورني وأنا أعيد قراءة الصيغة التي طلب إليّ المشاركة في الاجابة عنها.

فالسؤال في شطره الأول يشير الى الماضي ويدين بطريقة غير مباشرة المثقفين العرب عامة والكتاب منهم بخاصة، ويطالبهم بمراجعة أفكارهم واعادة تقييم دورهم في مسيرة النضال العربي... وهذه الصيغة التعميمية هي، بالضبط، ما يثير التحفظ. أما الشطر الثاني فهو يتجه الى المستقبل ويطرح دور الثقافة العربية الجديدة.

والسؤال بجزئيه متكامل لأنه يطرح قضية واحدة لا سبيل الى الفصل بين طرفيها.

إن الثقافة العربية هي المثقفون العرب، والمثقفون العرب جزء من المجتمع العربي بكل تناقضاته وصراعاته، بكل مطامحه ومشاعره، بكل سلبياته ومظاهره المشرقة الوضاءة.

والمجتمع العربي ليس سوى هذه القوى المختلفة التي تتساكن وتتعايش فوق أرض واحدة، تخوض صراعات يومية من أجل العيش والبقاء، وقد تحركها اهداف واحدة تختلف سبل تحقيقها من فئة لأخرى وتتباين وسائل تنفيذها من طبقة الى طبقة...

لذلك أول ماينبغي ان نقوم به ـ في سبيل الاجابة عن السؤال ـ هو تحديد المسؤولية وتعيين الاطراف المسؤولة عن الهزيمة او عن النكسات المتواصلة التي لحقت بالمجتمع العربي منذ اربعة أو خمسة عقود من الزمان. إن التحديد يصبح هنا مسألة ضرورية.

في اعتقادي، تبدو دعوة المثقفين العرب، بما فيهم الكتّاب، الى مراجعة أفكارهم واعادة تقييم دورهم، غير واردة على اطلاقها. فهناك مثقفون عرب قاوموا الصهيونية وحذروا من أخطارها وأنتجوا بالفعل ثقافة جديدة وأصيلة، دافعوا عن التغيير وطرحوا بدائل الاوضاع العربية المزرية وطالبوا بتحقيق الديمقراطية والعدالة والحرية في المجتمع العربي، وضحوا من أجل هذه الاهداف. وهناك صنف آخر من المثقفين كانوا بممارساتهم وكتاباتهم سبباً من أسباب الهزيمة وفي استمرار المآسي العربية.

مرة أخرى، لابد من تحديد المسؤولية، ليس من أجل ترتيب الادانة فحسب، ولكن أيضاً من أجل مكامن الداء ومواطن الخلل وحتى يتأتى ايجاد الدواء الناجع والحل الملائم.

لقد بدأنا في هذه الخطوة بطريقة عملية منذ ٦٧ وعلينا السير فيها وتعميقها الى الحد الأقصى.

ما الدور الذي ينبغي ان تضطلع به الثقافة العربية الجديدة للاسهام في الخروج من الهزيمة وتجنيب الجيل العربي القادم اليأس والاستسلام؟

انه لشيء مقرف ان نعود الى لوك كلمات وعبارات طالما كررناها ورددناها بدون جدوى حتى افرغت من محتواها وفقدت مدلولها الحقيقي: الالتزام، الثقافة الجديدة، الفكر الطليعي . . .

هل بقي لهذه الكلمات من معنى وماذا تستطيع في واقعنا العربي المهزوم المتخاذل؟

في ضوء الأوضاع العربية الجديدة التي ترتبت عن الهزيمة، عن أحداث بيروت ومأساة الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا، يطرح التساؤل عن الثقافة العربية الجديدة: ما طبيعتها وما هي الخصائص التي يجب أن تتوافر لها حتى تكون حقاً جديدة وفعالة، تمارس الدور المنوط بها في تحرير الانسان العربي وفي تخليصه من رواسب الهزيمة والسقوط.

ان هذه الثقافة الجديدة لن تكون شيئاً آخر غير انتاج المثقفين العرب الذين ارتبطوا بقضيتهم العربية فعلا ودافعوا عن استمرار الوجود العربي والحضارة العربية واعتبروا القضية الفلسطينية وقضية الثورة العربية عامة قضيتهم وهمهم في الحياة فكرسوا لها وقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم وخدموها بكل هذه الوسائل، اي بفكرهم وثقافتهم. هؤلاء المثقفون هم الذين انتجوا وسينتجون ثقافة عربية جديدة أدت حتى الآن ـ وإن جزئياً ـ وستؤدي الدور المنوط بها في تحرير الانسان العربي من الخوف والهزيمة والاستسلام بشتى أشكاله وأسبابه.

وحتى تنتج هذه الثقافة العربية الجديدة فاعليتها وتقوم بدورها كاملا لا بد من أن يساهم فيها المثقفون العرب بوعي واخلاص، ولا بد كذلك من حمايتها من الدخلاء ومن المثقفين المغشوشين والكتّاب المزيفين الذين تحركهم اهداف أخرى غير الاهداف الشريفة المتمثلة في التحرير والعدالة والتقدم والتي لا تعدو في الواقع ان تكون وسائل لإسعاد الانسان العربي وتحقيق ذاته تحقيقاً كاملا يجعله يشارك في بناء الحياة الكريمة الخالية من الظلم والجوع والفقر والخوف.

صحيح أن تحقيق كل هذه المثل والقيم السامية يستدعي خوض صراع مرير على جبهات مختلفة، ولكن واجب المثقفين الأصلاء يكمن هنا ويستوجب الوعي الجاد والثوري بضرورات المعركة وبمتطلبات النضال الصلب ضد جميع أشكال الزيف والاستلاب والتخاذل والتشويه. كما أن هذا الواجب يفرض عليهم فضلا عن ذلك التسلح بثقافة علمية لمواجهة تحديات الواقع العربي أولا وشراسة العدو الصهيوني ثانياً.

إن النضال المستمر على هذين المستويين معاً هو قدر الثقافة العربية الجديدة وهو ضمان وجودها وأساس قوتها وفعاليتها. وفي ظني أن هذا النضال لا يمكن ان يستمر الا باتحاد المثقفين المخلصين وبالتفاهم حول برنامج واحد للاتفاق على حد أدنى.

إن المثقفين العرب هم في الواقع طليعة قوى الشعب الثورية. وهذه العبارة تشمل الزعماء السياسيين والنقابيين والنخب المفكرة من اقتصاديين ومؤرخين وفلاسفة ومهندسين وعلماء وكتّاب الخ . . . وكل هذه الفئات تنضوي تحت لواء جمعيات واتحادات عربية متعددة.

لذلك يمكن التفكير في تنظيم ندوة فكرية تضم ممثلين عن هذه الاتحادات والجمعيات، من المثقفين العرب لمناقشة الاوضاع العربية الراهنة وفي مقدمتها الثورة الفلسطينية لتعبئة الرأي العام العربي اقناع اصحاب القرار في الدول العربية بضرورة الاستجابة لمطامح وتطلعات الشعوب العربية في التحرير والكرامة والديمقراطية.

إن المسألة، كما لا أحتاج الى القول، ترتبط بالصراع بمختلف مستوياته ودرجاته وبجميع أشكاله وملابساته.

وإذا لم يخض المثقفون العرب هذا الصراع بوعي وتصميم واذا لم يتحملوا مسؤ ولياتهم كاملة تجاه شعوبهم وجماهير امتهم فلن تتمكن الثقافة العربية من الاضطلاع بدورها الحقيقي ولن يقيض للجيل العربي القادم غير المزيد من الهزائم والنكسات. ان العلة كامنة فينا وعلينا أن نعترف باخطائنا واصلاح ذواتنا قبل الاقدام على مواجهة الاعداء.

الرباط (المغرب)

إخْتَرْ حَيَاتَكَ... إخْتَرْ مَوْتَكَ

كريستيان برنار

منشورات
دار الآداب

هذا الكتاب

هل سيدوّن ، يوماً ، في دساتيرنا ، حق كلّ رجل وكل امرأة أن يختارا حياتهما ، وخصوصاً أن يختارا موتهما ؟

هذا ما يتمنّاه وينادي به البروفسور كريستيان برنارد الذي يبدي رأيه بجرأة وجلاء لصالح القتل الرحيم والانتحار . وانطلاقاً من امثلة مأخوذة على السواء من خبرته الشخصية ومن أحداث الحياة السياسية (احتضار فرانكو وتيتو الطويل) يحلّل البروفسور برنارد الجوانب القضائية والقانونية والأخلاقية والدينية والمهنيّة لنوعين من القتل الرحيم :

- القتل الرحيم السلبي الذي يرتكز على رفض الطبيب الممارس ، بأي ثمن وبواسطة الترسانة العلاجية والتكنولوجية ، إطالة الحياة العضوية لمريض لا شفاء له .
- القتل الرحيم الايجابي ، الذي يضع حداً ، بحقن كمية كبيرة من المسكّنات مثلاً لمريض يعاني الشدائد ولا يستطيع إنقاذه أي شيء .

ويرى الجرّاح الشهير أن لكل كائن بشري الحق في أن يرفض اوجاعاً جسدية أو نفسية مهينة أو غير محتملة ، وفي أن يموت بسلام وكرامة .

إن هذا الكتاب ، في لغته السهلة التي تجعله في متناول الجميع ، والمؤثر الى ابعد حد ، سيزيد في إغناء جدل ما يزال في صميم حياتنا .

ليست هزيمة وعي أو ثقافة!

مبارك ربيع

يمثل الواقع العربي اليوم صدمة قوية لعامة المواطنين، وللمثقفين بصفة خاصة، اذا اردنا ان نسمي الأشياء بأسمائها الحقيقية. فهي هزيمة كبرى او هي أكبر هزيمة تحل بنا حتى الآن. وكوننا نحاول ان نستثمر هذه الهزيمة استثماراً سياسياً أو دبلوماسياً لا يغيّر من الواقع، على أمل ان يغيّر من المستقبل. لكن الهزيمة تبقى هزيمة... وتستوجب المواجهة من قبل المثقف العربي، وهي ليست الأولى بعد ١٩٤٨ و١٩٦٧، ثم كامب ديفيد (بعد ١٩٧٣ المجيدة) مروراً بالمعارك الهامشية التي تخوضها الثورة الفلسطينية في هذا البلد العربي او ذاك، والمعارك الأخرى التي يخوضها العرب بعضهم ضد بعض هنا وهناك...

بعد كل هزيمة، يواجه المثقف العربي بالصدمة وضرورة تجديد الرؤية وتجديد التحليل. ذلك ان المثقف العربي، ومعه المواطن بصفة عامة، قد راهنا بكل شيء على القضية الفلسطينية ضد كل شيء. الصدمة تكون تبعاً لذلك شاملة، تحدث الشلل او تكاد. هل ثن تقصٌ في التحليل، وبالتالي في الوعي بالنسبة للمثقف العربي؟ وما طبيعة الهزيمة التي نعاني منها اليوم؟

أؤكد أن ١٩٦٧ كانت صحوة حقيقية بالنسبة لوعي المثقف العربي. وربما كانت ١٩٧٣ (مع كامب ديفيد) صحوة مماثلة. فقد تميّزا بشيء من المفاجأة بالنسبة للمواطن والمثقف العادي. وإن ما نقرأه من تحليل ونسمعه او نشارك فيه طوال هذه المدة، وكذلك ما يصدر من إبداع أدبي، في الرواية العربية على الخصوص، كل ذلك بعيد عن أن يدلّ في مجمله على ان المثقف العربي غريب عن ساحة الصراع الدولي والمحلي، بعيد عن ان يدل على جهله بالقوى المتصارعة في طول الوطن العربي وعرضه، بعيد عن ان يدل على غفلته عن طبيعة الوجود الصهيوني في المنطقة او مخططاته... هذا على مستوى الوعي والتحليل. اما على مستوى العطاء فبماذا بخل المواطن العربي من ثورته؟ لقد أعطى النفس والمال والقلم... ومع ذلك، يحدث الأمر كالمفاجيء...

والغريب ان إعادة لقراءة الصحف والمجلات العربية قبل غزو لبنان تبيّن ان المخطّط كان معروفاً، وبكثير من التفاصيل أحياناً، ومع ذلك، يحدث الأمر كالمفاجيء

من هنا تبدو طبيعة الهزيمة، فهي هزيمة تقنية تكنولوجية، عسكرية، هزيمة الجندي الشريف الذي يستشهد او يقاتل حتى تنفذ ذخيرته او تعطب فيؤسر، وذلك بالنسبة لمن خاضوا المعركة بحق، وهزيمة عار وخذلان بالنسبة لمن جعلوا من القضية الفلسطينية قميص عثمان للمتاجرة والمزايدة، فكانت نتيجة ذلك تكالب القوى المختلفة والمتناقضة فيما بينها على هذه القضية وثورتها.

ومن أكبر مظاهر السلب، ذلك التحليل وأحياناً تلك الممارسات التي تسلك سبيل التضخيم في الربط الوثيق بين تحرير الأرض الفلسطينية والانسان الفلسطيني من جهة، وتحرير الانسان العربي بعامة، والإنسان في العالم الثالث، بصورة أعم من جهة ثانية،

من كافة أشكال الاستغلال والعبودية والتبعية الامبريالية والرجعية. إن ما جنته الثورة الفلسطينية من مساوىء ذلك وسلبياته اكثر مما جنته من ايجابياته، ولا سيما في الظروف الحالكة والحاسمة.

إن أية ثورة من ثورات تحرير الأرض، في العالم العربي وفي غيره، لم يعلق بها ما علق بتحرير الأرض الفلسطينية - زوائد تطغى على القضية نفسها. ومعارك تحرير الأرض كلها ذات طبيعة واحدة، ومهما اختلفت الظروف لا يمكن ان تؤدي الى المناقضة. فالهزيمة تقنية تكنولوجية عسكرية، وليست هزيمة وعي او ثقافة. ليست هزيمة المثقف او المواطن الا بالتبعية.

الموقف المطلوب من المثقف العربي أن يتخذه اليوم، هو موقف قد اتُخذ سلفاً، وهو الموقف الذي اتخذه المواطن العربي على العموم. ولكن كلاً من المثقف والمواطن في وطننا بعيد ومُبعد عن موقع التقرير والتنفيذ. ولا أريد ان أقع في خطر من يمكن ان يقول إن صراع المثقف والمواطن ليحتل مركز القرار والتنفيذ جزء من صراع الفلسطيني ليحرر وطنه، لأن هذا يسهل الانزلاق الى القول بأن معركة المواطن العربي (وربما الأنسان المتخلف) أشمل ومن ثم فهى أشق...

المثقف العربي مطالب بتنمية الوعي واستثماره، وممارسة النقد على أوسع نطاق. واذا لزم البحث عن ثغرات في وعي المثقف العربي ومواقفه، فقد تكون في هذه الظاهرة التي تجعله يقبل بسهولة واضحة ان تفرض عليه ظلال تحجب عنه الرؤية الصحيحة. ولا تلبث هذه الظلال ان تتميز أشباحاً فأصناماً في كافة مجالات الحياة، وبدءاً بمجال الحياة الثقافية ذاتها.

في رأيي ان الرواية من أهم ادوات التحليل، وهي لذلك تستطيع ان تقدم خدمة حقيقية في نشر الوعي وتعميقه بقضايا المواطن العربي. ولا يمكن إغفال الدور الذي أدّته الى الآن في رسم معالم المجتمع العربي في تحوله وقواه المتصارعة ومطامحه.. مع المظهر الإبداعي في النماذج الناجحة من هذه الرواية طبعاً. واذا كانت المرحلة الحالية تتطلب شيئاً من الروائي على الخصوص، فلن يكون تغييراً في الاتجاه بقدر ما هو إمعان فيه وتعميق له، وهو المطلوب نفسه من المثقف العربي بصفة عامة. اما ما هو اكثر من ذلك او ما هو غير ذلك، فقد يكون مطلوباً أيضاً من الروائي على الخصوص او المثقف عموماً، ولكن على مظهر آخر وبهوية أخرى.

الرباط (المغرب)

المثقف العربي وتنظير القمع...

عبدالكريم الرازحي

في اعتقادي ان على المثقف العربي اليوم ان يدرك ان هذه الدائرة المغلقة من القمع والتي تتوالد داخلها وتتناسل هزائم أمته العسكرية والثقافية والحضارية هي، في آخر المطاف من صنعه كمثقف وكمنظر للقمع الذي لم ولن ينتج عنه سوى الهزائم بعد الهزائم.

ان المثقف العربي كان وما يزال مسؤ ولاً الى حد كبير في تأسيس نظام القمع في وطننا والذي اصبح نظاماً شاملاً يحكمنا من المحيط الى الخليج ومن اقصى اليمين الى أقصى اليسار.

ذلك لان القمع الذي تمارسه الانظمة العربية الحاكمة ما هو الا تحول ضروري وتجسد حتمي لفكرة القمع التي في رؤوس المثقفين.

ان القمع يبدأ فكرة في رأس لمثقف، يبدأ قناعة في ان الحقيقة معه، وينتهي هراوة في يد السلطة. آلة القمع افكار يعتقدها المثقف خاطئة. وانا لا أقصد هنا بالمثقفين مثقفي السلطة فقط، وانما اقصد كل المثقفين، سواء كانوا مع السلطة او ضدها، داخل السلطة او خارجها. ومن اليمين كانوا او من اليسار. فجميعهم يفكرون بطريقة قمعية، وجميعهم نظروا وما زالوا ينظرون لحرية حدودها القمع من كل الجهات، تماماً كما عمل اسلافهم من مثقفي المعتزلة. ان المثقف العربي الذي كان وما زال يضيق بأفكار الآخرين قد أدى الى أنظمة سياسية تضيق برؤوس المعارضين فتفصلها عن اجسادهم.

ولهذا، ففي رأيي ان المطلوب أو ما ننتظره من المثقف العربي اليوم، وبعد هذه السلسلة من الهزائم او الفضائح العربية، هو ان يكف عن ان يكون مصدراً لهذا القمع. عليه ان يعرف ان الافكار مهما كانت موغلة في القدم او الحداثة، في يمينتها او يساريتها، في سلفيتها او عصريتها لن تفيد هذا الوطن في شيء، ولن تخرجه من ذائرة الهزيمة والاستلاب. لقد بدّلنا افكارنا منذ هزيمة ٤٨ عشرات المرات، ومع ذلك فما زالت الهزائم تلاحقنا.

ما زلنا عاجزين عن الانتصار العسكري، عاجزين عن الابداع في كل المجالات. والسبب هو اننا كمثقفين نريد ان نعيش افكارنا على انقاض افكار أخرى، وكحكام نريد ان نثبت عروشنا وسط نهر من الدم.

لذلك أعظم تحول يمكن ان يؤدي بنا الى أعظم انتصار على تخلفنا وعجزنا، هو ان نعيش افكارنا كمثقفين، لا أن نغيرها بعد كل هزيمة ونستبدلها بافكار أخرى ومع صعود هذه السلطة او تلك، ان نعيش افكارنا من خلال دفاعنا بشراسة عن كل الافكار، ومن خلال تحولنا من مثقفين ننتمي الى هذا النظام او الحزب، الى هذا التيار الفكري والايديولوجي، الى مثقفين حقيقيين، ننتمي الى حرية الفكر والى مبدأ الحوار.

صنعاء اليمن

المشروع الثقافي ومعركة الديموقراطية

الدكتور الحبيب الجنحاني

إن المدى الذي بلغه العجز العربي تجاه العدوان الصهيوني على الشعبين اللبناني والفلسطيني يفرض على النخبة المثقفة العربية الواعية أن تعيد النظر في كثير من المفاهيم والأفكار والقيم، وأن تراجع مواقفها تجاه أمور كثيرة لم تعطها في الماضي ما تستحقه من تمحيص وتدقيق.

ولا بدّ من الاشارة في البداية إلى أن ظاهرة التفكّك، والنزاعات الهامشية لا تعاني منها النظم العربية فحسب، بل هي متفشّية في صفوف المثقفين العرب، وقد عجزوا عن الاتفاق حول الحدّ الأدنى من الأهداف المشتركة، ولذا حين نتحدث عن دور «النخبة المثقفة العربية» فإنه من الخطأ الاعتقاد بأننا نتحدث عن فئة اجتماعية منسجمة، متضامنة، بل هي تتنازعها رياح شتّى، وتتجاذبها نزعات متباينة، وقد ازداد الطين بلة في الأعوام الأخيرة حيث أصبحنا نجد عناصر متخلّفة في تفكيرها، انتهازية في مواقفها ضمن ما يسمى عادة بالنخبة المثقفة!

إن المراجعة يجب أن تبدأ بنقد ذاتي صريح وجريء لمواقف جميع التيارات الفكرية تجاه النضال ضد الصهيونية والرجعية والتخلف من جهة، وتجاه شعارات «تقدمية» زائفة من جهة أخرى.

وهنا يبرز دور النخبة المثقفة العربية الرائدة في تحديد المواقف، والاهداف، وفي إماطة اللثام عن كثير من الاشياء الضبابية الغامضة، وأعني بالنخبة الرائدة أولئك المثقفين العرب الذين صمدوا أمام جميع وسائل الترغيب والترهيب، وحملوا دائماً مشعل الفكر العربي الجديد، ولا بد من تضامن هذه الفئة أمام قوى الهزيمة والتخلف.

فلا يمكن ــ إذن ــ الحديث عن ثقافة عربية جديدة، وعن دورها في الاسهام في الخروج من الوضع العربي المهزوم بدون تحديد القوى التي ستقود معركة الثقافة العربية الجديدة، والاتفاق على الأهداف الثقافية والحضارية للمرحلة العربية القادمة.

إن المشروع الثقافي العربي الجديد يحتاج الى تضامن القوى الواعية المجددة.

ولا مناص من الاعتراف هنا بأن تحقيق المشروع الثقافي العربي الجديد مرتبط بمعركة الديمقراطية في الوطن العربي.

وقبل البداية في تحديد معالم ثقافية عربية جديدة تجنّب الجيل العربي القادم اليأس والاستسلام لا بد من إعادة تقييم جميع المفاهيم والقيم السائدة في مجتمعنا؛ فالقضية تتجاوز في نظري عملية مراجعة، وإعادة نظر، ومحاولة إصلاح، بل الحل الصحيح يتمثل في ايجاد بديل ثقافي يرافق البديل السياسي والتنموي.

تونس

المثقفون وصكوك البراءة...

الدكتور خليفه الوقيان

في البدء لا بد من الاشارة الى أن المثقفين أنفسهم أسهموا في خلق الظروف أو المناخ الذي قاد الى عدد من الهزائم، كان آخرها الهزيمة الاخيرة في لبنان. وما يحدث عقب كل هزيمة هو أن المثقفين ينتقلون ببراعة من قفص الاتهام الى منصة القضاء، ليحاكموا كل شيء إلا أنفسهم. إنهم يتحدثون عن غياب الديمقراطية وتعسف الأنظمة وتخلفها، وينسون دفاعهم عن أكثر الانظمة دكتاتورية أو استبداداً أو تخلفاً، وتعاملهم معها، أو عمالتهم لها سراً أو علانية. وفي كل مرة يخرج المثقفون والكتّاب منهم بخاصة وهم يتأبطون صكوك البراءة. ويكفي أن نتذكر أن من بيننا الآن من لا يزال يدافع عن نظام أجنبي هو النظام الرجعي المتخلف في ايران على الرغم من انحراف الثورة الايرانية، وتنكيلها بكافة القوى التقدمية في ايران، وانكشاف مخططاتها لخلق فلسطين اخرى في منطقة الخليج العربي، مبتدئة بالعراق، بصفته القوة القادرة على الوقوف في وجه المؤامرة.

ولعل في هذا الموقف من بعض المثقفين العرب ما يكشف عن غيبة او غيبوبة الضمير القومي. أما مواقفهم من الانظمة العربية فليست بحاجة الى الشواهد لتوكيد دلالاتها.

ومن جهة أخرى يلاحظ ان المثقفين لا يعتقون الجماهير المغلوبة على أمرها من آثار مواهبهم في التضليل، فهم يجلدونها بقسوة، ويتلذذون بإيذائها وتقريعها، بل وتعذيبها، وكأنهم بذلك يعوّضون عن شعور بالذنب لا يستطيعون الافصاح عنه.

وسوف أتوقف قليلا عند هذه الزاوية فحسب، في مجال مراجعة النفس، لثقتي أن الآخرين سوف يتناولون الجوانب الاخرى. إن نقد الذات لا يعني اطلاق التعميمات والأحكام الجارفة التي ترمي الامة بالعقم والافلاس وعدم القدرة على النهوض ومواصلة النضال. ثم إن مسؤولية الكلمة توجب التفكير ملياً في مقدار ما تترك من آثار ايجابية أو سلبية، ولا يصح أن يتحول التنفيس عن الهموم الى معول لهدم الذات العربية.

لقد ظلت الجماهير تجتر الآلام والاحساس بالعجز والتقصير منذ نكبة ١٩٤٨، وجاءت نكسة ١٩٦٧ وما تلاها من نكسات فزادت الوضع سوءاً. ويبدو الآن أن مرحلة التأنيب أو التعذيب أخذت مداها، وقادت في بعض نتائجها الى زيادة الانسحاق والمرارة. ولذلك أحسب ان المثقفين مدعوون الى مراجعة الحسابات، وعدم الانقياد لردود الفعل العاطفية، والإمعان في دفع الجماهير الى الاستسلام لليأس.

إن المؤمنين بقدرات الأمة العربية وطاقاتها، وامكانات تجاوزها المحن هم وحدهم القادرون على الفعل الايجابي، وهم المطالبون بالبدء بالعمل ذي النفس الطويل. أما الذين يكتفون بالبكاء على الاطلال، والذين يصيبهم الانهيار، فيدفعهم الى الاسهام في اشاعته، فهم عاجزون عن الفعل، وهذه الفئة مطالبة بأن تتنحى عن الطريق، حتى لا تزيد الأمر تعقيداً.

وبعد، فثمة حاجة الى ازالة الاتربة التي تراكمت على المنابع الثقافية القومية، التي أمدّت

وارد بها بالايمان والتفاؤل، وحالت بينهم وبين الضياع في المتاهات البعيدة.

لقد تعرض جيلنا لمؤامرة اشتركت فيها اطراف عدة، واستهدفت تغريبه وتدمير هويته الثقافية القومية، واذا ما أردنا للجيل القادم ــ وهو الأمل في الخروج من الأزمة ــ أن يؤدي دوره المطلوب فهل من المقبول تعريضه لمخاطر تلك المؤامرة؟

ان القضية متسعة الأرجاء، وإن احتل الجانب الثقافي ركناً اساسياً منها. وهي تحتاج الى تضافر جهود كثيرة وكبيرة، كما تحتاج الى قدر كبير من الشجاعة في البدء بمراجعة النفس.

الكويت



إشكاليّة الهويّة - الحاجة

أحمد بوزفور

كفى... لا ضرورة للكلام.. الخداع.. لنعترف، نحن مهزومون تماماً. وهزيمتنا راجعة الى أننا نعتمد في كل شيء على عدونا.. اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً وثقافياً. نستهلك بشره شَبِق كل ما يُقدّم الينا، ونتعرى بتهوّر محدث النعمة النزق عن كل ما غطّته أفياء الغرب في انتظار الغسق المقترب.

والهزيمة العسكرية ختم ــ آخر ــ على باقي الهزائم في باقي الميادين. ليس لماذا انهزمنا هو السؤال. بل السؤال هو لماذا لم...؟في ٦٧ هزّتنا الكارثة، ونشأ ــ نشب السؤال الجدلي: من نحن وماذا نريد؟

إشكالية الهوية ــ الحاجة سؤال لم يطرح قط بالحدة التي طُرح بها بعيد ٦٧... فصادر المحافظون السؤال المزدوج ومَثْلَنوه، وسقط كثير من التقدميين في الفخّ المحافظ فحسبوا الحاجة الهوية والهوية الماضي، وذهبوا يبحثون عن الجماهير في رفوف الكتب لا في الشوارع والقرى. وها هي الهزائم تترى. وها هم المحافظون كالعهد بهم يصالحون. والتقدميون يتراجعون ويضعفون تحت ضغط الاشكالية غير المحلولة.

كلا.. الاشكالية مطروحة بعد... وانا واحد من هذه الجماهير تحت المنصة احمل كل جهلها وخشونتها وأميّتها واصرارها وطموحها واستغرابها واطلب مثلها ومعها ان اعطى الكلمة ساعة من نهار... هذه الجماهير ظلت دائماً تعرف من هي وتعرف ماذا تريد، وظلت معرفتها تقمع دائماً بضرورات العصر كأنما من ضرورات العصر ان لا تدخل الجماهير العصر!

الآن وقد حزّ السيف في العظم لا مهرب: الديمقراطية، وفي التنظيمات التقدمية وبين مناضليها أولا، فليس ينبغي ــ ولا يمكن ــ أن يسقي الناس عطشان. وكمواطن من هذه الامة، لا اتكلم باسم واحد ولا أدّعي التعبير عن أحد، اطالب باعطاء الكلمة للجماهير المنظمة الحرة لتتولى امرها، فإما حققت هويتها ــ حاجتها ككل الامم الحرة في هذا العصر، وامّا انقرضت بصدق ودون رشوة للتاريخ كأي شجاع.

كيف أرى الثقافة العربية الجديدة؟... والدور الذي ينبغي ان تضطلع به.. الخ... الخ.. سئمت هذا العلك الممضوغ بعد كل هزيمة... الهزيمة اصبحت معياراً نقيس به ثقافتنا، ونعود كل مرة الى الصفر، ونحسب جديداً الحديث عن الجديد، وليس الا استبدال راكب براكب او كتف بكتف مركوب.

اشكالية الهوية ــ الحاجة هي السؤال. ومثلما ينبغي في السياسة والاقتصاد... الخ.. الرجوع الى الجماهير كذلك في الثقافة.

واحسب اننا لو رجعنا في العلوم الطبيعية الى البيئة العربية ــ تلاميذ لها ــ وصفاً وتوظيفاً، وفي العلوم الانسانية الى الجماعات العربية ــ تلاميذها وبمفاهيمها الاجرائية ودون قسر أو اخضاع ــ وصفاً وتوظيفاً... لأمكن ان نقترب ــ في المجال الثقافي ــ من الجواب على السؤال.. اما الابداع ــ واتحدث عن الادب خاصة ــ فلا اجد مبرراً شخصياً للانتقاد... ولم تعطي الاعمال الادبية العربية المتميزة حتى منذ قبل ٦٧ اي شعور بالتفاؤل والاستنامة او اي إحالة محكومة بالعقد على مجتمعات وابداعات اجنبية اخرى، بل كانت دائماً الزاوية الصغيرة والوحيدة التي اتنفس فيها الصدق والحقيقة والنبوة... وحسبها ذلك ما دامت تتوجه اليّ انا أولا كمواطن من هذه الأمة.. كما اظنها تفعل...

المغرب

أزمة إختيارات سياسية

المنصف ونّاس

انّ الثقافة العربية استطاعت تاريخياً أن تستفيد من كلّ الهزائم التي لحقت الوجود العربي وتطوّرها لتحفيز فعاليتها الابداعية. فالهزائم التي لحقت البناء العربي ابتداء من انتكاس تجربة محمد علي في مصر والهيمنة الاستعمارية وهزيمة حزيران ١٩٦٧، ولّدت فكراً نهضوياً وتصوّراً نقدياً للسلطة والمجتمع وعقلنة للواقع العربي، وهي كلها مكاسب حضارية لا يستهان بها. ولذلك يمكن الحديث عن مفارقة غريبة: فكل انتكاسة يعيشها الواقع العربي تفرز فكراً نقدياً وعقلانياً متطوّراً في مختلف وجوهه. فالفكر النهضوي (شبلي شميل ـ محمد عبده ـ الافغاني) والفكر الفلسطيني (صادق جلال العظم ـ منير شفيق ـ ناجي علّوش....) يعتبران صورة من تقدّمية الثقافة العربية وقدرتها على تجاوز واقع الأزمة والتردي الحضاري المعاش.

لقد خلقت الهزائم العربية تقاليد نضالية في ميدان الثقافة وأعطت الفرصة للمثقفين لتجاوز الترسيمات المجتمعية التي فرضتها الأنظمة العربية، ومن ثم يتوجّب مواصلة تقاليد النضال والنضالية من أجل صياغة اجماع على مجموعة اختيارات حضارية غير التي تفرضها الأنظمة.

انّ التهويل لواقع الهزائم العربية يعطي مردوداً عكسياً لأنه يخلق وضعاً عكسياً يتسم بالتعجيز النفسي والشعور بالاحباط الهيكلي. ولذلك فالأزمات التي يعاني منها العرب نتاجٌ للاختيارات السياسية والحضارية التي توجه الأنظمة، وما ثبت تاريخياً هو ان الأزمات هي المحك الوحيد لترشيد وتحفيز الفكر العربي.

ومن ثم، فالثقافة العربية اكتسبت ثراء وتطوّراً في فترات الهزائم والأزمات وأنتجت أجيالاً من المثقفين الطليعيين والتقدميين، تمكنت الأجيال الشابة معهم من مواصلة هذه التقاليد النضالية وتكريس قطيعة الثقافة مع واقع الأنظمة. ان الكتابات السياسية والتراثية لم تكتسب أهميتها العقلانية والنقدية الا بعد هزيمة ١٩٦٧ التي خلقت انفصاماً في الشخصية العربية وعقدة حضارية من الصعب مقاومتها.

فالحركات الثقافية التي نشأت على هامش السلطة في الوطن العربي حركات فاعلة في المستقبل العربي، وهي رمز ومؤشر للتغيّر الحضاري. ان العرب غير مقتنعين حتى الآن بأهمية العنصر الثقافي في الترشيد العقلاني للفرد العربي. فاذا كانت الساحات العربية ميادين لممارسة العنف السلطوي، فان الثقافة النضالية أرضية لخلق عمل ثقافي حيادي لا تهيمن عليه السلطة في مختلف صورها وأشكالها. هذه الثقافة، من واجبها أن تكون قومية التوجُّه وطليعية الرؤية والتحليل.

صحيح أنّ التحالفات الاستعمارية والإمبريالية ضد الوطن العربي متكثّفة ومتنوّعة ولكن التعويل على الاختيارات السياسية لمواجهتها خطأ تاريخي، باعتبار ان هذه الاختيارات أثبتت فشلها وعجزها في ظلّ واقع يتسم بالتبعية والتهميش. ان التهويل والتضخيم للغزوة الامبريالية والصهيونية

في أتون المعركة

ديزي الأمير

الاستفتاء موجّه للمثقفين العرب، من القطر اللبناني وبقية الاقطار العربية.

ومثقفو لبنان منهم من لم يكن في بلده طوال الثماني سنوات او بعض سنواتها.

فهل يتساوى هؤلاء بمن عاش الاحداث؟ كلها؟ كلها؟

المعاناة الحقيقية الصادقة الموجعة يحسها من عاناها بالمعايشة اليومية بكل ساعاتها ودقائقها.

الذي بقي في لبنان طوال هذه السنين ولم يغادر ولم يفكر حتى في المغادرة وقرر بتصميم واع البقاء، أظنّه يحقّ له الحديث اكثر من غيره.

هل يدري مَنْ هم خارج لبنان كيف كان المثقف العربي المقيم سواء اكان لبنانياً أو عربياً آخر، معنى ان تكون اللحظة، أية لحظة هي النهاية؟ ان يكون الرصاص الملعلع في السماء وما تحتها وصولاً الى الارض قضاء عليه او تشويهاً مدى الحياة؟

ان ينام في بيته، وفي غرفته، وفي فراشه، هذا اذا لم يُهجَّر، وهولا يدري كيف ستصل اليه قذيفة تلغي البيت.. الغرفة.. الفراش.. ولكنه ينتظرها؟

أن يعود يوماً الى بيته فيراه مسكوناً بآخرين، عذرهم وجيه لأنهم هُجّروا، ولكن ما ذنبه هو صاحب البيت ان يُهجَّر هو الآخر؟ أن يمتلىء قبو بيته، وهو الذي نسميه ملجأ، بالسلاح وهو يدري ان اية رصاصة او قذيفة او صاروخ او قنبلة قد تقتلع منطقة البيت كلها؟

يطلق عليه رصاص من كاتم صوت او ناطق، فمن يسعف قتيلاً أو جريحاً وقع؟ والمسعفون يخشون بدورهم كاتم او ناطق صوت يستهدفهم؟

واذا كان يملك سيارة، يخشى ان يدير محركها خوف ان تكون متفجرة قد وضعت له تصعقه عند ادارة المفتاح؟

أن يزعم أنه أضاع هويته لئلا يعرف الواقفون على الحاجز انتماءه الطائفي وتكون النهاية؟

ان يمتنع عن الحديث لأصدقائه، لجيرانه، خشية أن كون احدهم مدسوساً ينقل بوح نفسه المتعبة؟

أن يخشى حمل جريدة لها انتماء معيّن، فيحسب على اك الانتماء ويتقرّر على نوعيته نوع مصيره؟

أن يعيش ليالي العتمة، النفط للقنديل نفد، الغاز للمصباح نفد، الشموع نفدت، لا يستطيع مدّ رأسه من القبو للتفتيش عما يخفّف العتمة؟

أن يجوع والخبز المعفّن الجاف لا يستطيع قضمه ولا نقطة ماء موجودة ليرطب بها الخبز، فكيف ولسانه وحلقه وشفاهه كلها يابسة؟

ان يسمع الأخبار من الترانز ستور ويحرّم على نفسه سماع أية موسيقى، اية اغنية تخفف جوّ الهول لئلا تنضب البطاريات ولا بديل لما نفد؟

هاجس الخوف من الآتي: إهانة، جوع، عطش، اختطاف، اغتيال، تشويه، نسف، دمار، نهب، الخ... وهو واثق انه لو حدث له أي من هذه المصائب فلا من يسأل، فالكل يخاف ان يأتي دوره؟

والجيوش النظامية وغير النظامية، الزاحفة كيف يوقفها؟ كيف يردّها؟ كيف يحاورها؟ كيف يقنعها ألّا تصبّ نيرانها المدمرة عليه؟

القنابل المضيئة والرعب من الآتي بعدها أين يهرب منه؟ الى القبو؟ المملوء سلاحاً؟ واذا لم يكن فهل ينهار البناء عليه ويدفن هناك؟ الى الشارع؟ وأي شارع كان محصناً؟ الى منطقة أخرى؟ وهل هي أكثر أماناً؟

هذه صورة مختصرة عن الحياة في لبنان سنوات الحرب التي عشتها انا كلها.

لو كنت يائسة لما بقيت. لو كنت قانطة لغادرت. لو كنت مستسلمة لانتحرت.

بقائي دليل على أني كنت أنتظر...

الانتظار مستقبل. المستقبل أمل. الامل حياة.

الحياة عمل. العمل حيوية. الحيوية قضية. القضية هي الانسان؟

وما دمت لا أزال أنتظر، فأنا الانسان العربي الذي لم ييأس ولم ينهزم ولم يستسلم، دون ان يطلب ثمناً.

بيروت

الصَّمت العَربي المتجانِس

خَيري منصُور

عندما كنا في العام ١٩٤٨ نتجرّع الهزيمة سماً في الحليب، كان رهان الآباء على التاريخ، وكنا أجنّة المرحلة الموعودة، يومها خرج من بيننا من رأى جمرة في عمق الرّماد، قالوا: الجيوش المملوكة والعتاد المعطوب، وقالوا: ليكن، ليتهرأ الخيط الرث في النسيج، فالمهزوم ليس (نحن) بل من حارب عنا وفكر عنا وحلم لنا وعنّا . . .

ومثلما كان لهزيمة (١٩٤٨) مردود سياسي خلق انقلاباً نوعياً في بُنى الحياة العربية، كان لها مردود ثقافي هو من السعة والفاعلية بحيث لا نزال نتكاثر مثقفين وكتاباً على هوامشه، في الشعر والرواية والمسرح كما في الأنشطة الرّوحية الأخرى. كان للقضية الأم اشعاع هائل، مجال اجتذاب لا حدود له، ولعل واحداً من أهم جذور التحديث في ثقافتنا يعود الى الهزّة العنيفة والزلزلة القومية التي بدأت بعد النكبة. كانت خمسينات القرن تمور بحيوية لم يعرف لها تاريخنا الحديث مثيلاً واستحال عبرها الأدب وعداً لصحراء الشوق والترقب، ثم ماذا؟

لا يغرينا الاختزال (إحدى سمات تفكيرنا اليوم) بالوثوب دفعة واحدة الى الفضيحة التاريخية التي كانت تنتظر أسبوعاً حزيرانياً للكشف عنها، لكننا على أية حال تجرّعناها ثانية وقضمناها كتفاحةٍ عفنة، ومن كانوا أطفالاً خبروا «سمّ الحليب» . . . كبروا وتناسلوا، وما خطر على بالهم أنهم يقدمون وليمة لأعداء التاريخ.

من قاع الهزيمة الثانية، افترقنا، بين من أدمنَ واستمرأ الهرب، بعد أن تحولت لديه الهزيمة الأولى الى (مصل) وبين من أشرقوا في ظهيرة العرب السوداء، وراهنوا مجدداً: قاتل أو قاتل. . . بعد أن عرفوا أن القتلى (الشهداء) يحاربون بطريقتهم، ولصمتهم جلبة ثمة من يصغي إليها.

في بيروت عاصمة لا لبنان وحده، وإنما التاريخ العربي المعاصر، كان المحك ناصعاً، لا مراوغة ولا التواء، مع أو ضد، ولم يسبق للصمت أن كان منحازاً للجريمة كما كان في بيروت . . .

هل كانت بيروت حقاً حصيلتنا؟ هل كانت كثافة وجودنا وقد تاخمت الموت قرابة ثلاثة أشهر؟

للكاتب إجابته التي تستغرق زمناً، وللمواطن إجابته حتى لو كانت تهشيماً للمرآة. . .

لا أدري لماذا تلحّ عليَّ حكاية الفارس الأسود، عنترة الذي مثّل ولا يزال نزوع البطولة لدى العادي من النّاس، فهو لم يتحرك لنجدة عبلة إلا حين وعدته القبيلة بأجمل ما يمكن أن يوعد به شعب: كرّ وأنت حرّ!

شعبنا الكثير ـ القليل حدّ الفجيعة ـ لم يكرّ، محروم حتى من التعبير عن عواطفه، لهذا أذهلنا الصّمت المتآمر، وعلينا كمثقفين أن نرفض قبول (الصمت العربي المتجانس)، علينا أن نعيد النظر حتى بسؤالاتنا القديمة، فكيف أجوبتنا، شهداء بيروت وما حولها من فلسطينيين ولبنانيين يمتلكون حقّ إعادة التسليح للحرب الطويلة، وهذه مهمة عسيرة حتى عندما يستوعبها المثقفون.

بغداد

مهمّات مثقّفين جُدد؟

الدكتور محسن جاسم الموسوي

لعل التلكؤ الذي يحسه المرء في التعامل مع موضوع بهذه السعة والإشكالية والعمومية أمرٌ مشروع: لا سيما وأن الاحاديث المماثلة في واقع الثقافة العربية ومهماتها كثيراً ما انحدر الى مستوى السفسطة والثرثرة المكرورة، إن لم تنتشله صيحات غضب، تحولت هي الأخرى بحكم صدقها الحادّ وعاطفتها المفرطة الى (أصوات) متمردة أو محبطة فاقدة للتأثير أمام سيل عارم لـ (ثقافة الوضع القائم)، تلك الثقافة التي يراد لها ان تصبح سمة (الركون) أو مرتكزاته الأساسية، والتي تحتضنها مختلف المؤسسات، لكي تكون ذيولاً لما هو قائم، غير متسائلة عنه، او باحثة فيه، أو مانحة إيا روح الثورة والتغيير والتجديد والتأمل. فهل أن ما جرى ويجري في الساحة العربية مسبّب لمناخات جديدة؟ أم أنه هرش في أرض خاملة أو بور؟ لقد كانت صور المذابح والتنكيل مثيرة لاستفزاز الضمير العالمي، على بعده، لدرجة أن (الاعلام) الصهيوني تحرج كثيراً في تعامله مع العالم بابتداع تنويعات جديدة في طريقته القديمة في تقسيط المعلومات وتجزيئها، وتحويلها الى اشارات، إلى شخوص، لا الى ايديولوجية، أو نظام، أو دولة، حتى صدّق (بعض) الناس في النهاية أن (بعض) ما جرى كان مسؤ ولاً عنه (بعض) اشخاص، لهم اسماء وملامح وتواريخ!! ولم يعر (الاعلام) الصهيوني (الاعلام) العربي (الذي يفترض فيه أن يكون خصمه) اهتماماً: حيث أن التجربة القديمة للصهيونية تعتمد على أن (الهبّة) في الاعلام العربي هي (سريعة) و(آنية) وغير قابلة للإدامة أو التطوير!!

ولسوء الحظ فإن محنة الامة وتشتتها قادا ثانية ليس الى الاكتفاء بالآني والسريع وغير الدائم، بل الى إهمال مفرط ومضحك ومبكٍ لكل ما جرى ويجري، برغم أن ما جرى ويجري يستفز الناس، اينما وجدوا، إذا ماكانوا مجرد بشر.. لهم عواطفهم وشجونهم وأحاسيسهم. لقد كان الألم ممضاً، وما يزال.. والمثقف العربي يتساءل ثانية: ما الذي جرى، وما الذي يجري؟ أين نحن من أين.. والى أين..؟

ولكي لانقاد الى (إحباطات) هي بحدّ ذاتها المخارج السهلة من أزمة العذاب والمسؤ ولية، لا بد لنا أن نكثر من التساؤ ل ونلحّ فيه، ولا بدّ لنا أن نبحث عما في الثقافة من محن، وعما في المؤسسات من مشكلات، وعما فينا من مآسٍ حان لها ان تظهر على السطح، قبل ان يصبح (الفعل) الفردي بديلاً للثقافة العربية، والجهود العربية، وكل ما هو جمعي.

واعترافاً من التحليل لما سيجري، حيث ان الفرد العربي برغم سهولة ما يصله من (أموال النفط) تارة ومن تسهيلات واغراءات تارة أخرى، لا بد ان يمر في مواجهات حاسمة مع نفسه الآن وغداً، ولا بد أن تتمخض تساؤ لاته عن افعال، قابلة لتمزيق البراقع، وأستار الاكاذيب والمحافظة الرثة المزدوجة، أو الثوروية العادية والبائسة إزاء حقيقة ما جرى ويجري!

فهل أن المخططات أكبر من أمة؟ ان المخططات الخارجية كبيرة، ومسعاها لإيجاد جروح لا تندمل بسرعة في ميادين عرقية وطائفية معروفة: ولكن ما الذي فعلته الثقافة العربية للحيلولة دون ذلك؟ وما الذي فعلته المؤسسات والهيئات...؟ لم يحصل أن اقتنعت قوة كبيرة بحجم الأمة العربية وبطاقاتها بأن (المشروع) الخارجي مهيأ له أن يكون فعالاً بهذه الصورة ومخرباً بهذه الحال، ومدمراً بهذا الهول.. الا اذا كان فينا ضعف نتستر عليه، أو إهمال نداريه، أو حتى... لكن كلمة (الخيانة) سرعان ما يفقدونها معناها بحكم استسهالها الدائم والمستمر، والتقاذف المتكرر بها، حتى انها لم تعد تعني ما يراد لها أن تعني: فهي الضعف والإهمال وموالاة الغير، وجرح الأخ والصديق وفقدان المسؤ ولية.. فهي خيانة الذات والضمير، قبل أن تكون خيانة الشعارات، أو موالاة الاعداء.

واذ أريد لنا أن ندلو بدلونا في هذا الأمر لا بد من بعض (الاجتهادات) النفعية في مجال بهذه المشقة والصعوبة والمسؤولية. وقد لا يكون هناك كثير من خير في تذكر ما آل اليه مركز الأبحاث الفلسطينية وأرشيف مجلة شؤون فلسطينية.. فالمركز الذي يحتوي معلومات عن فلسطين والصهيونية لا يحتويه مركز عربي آخر يمثل خطراً للارث الصهيوني أكثر من ملايين البنادق والتجمعات المسلحة، لأنه يتوجه الى الذهن الصهيوني، أي الى الذهن الذي يقبع كماً ونوعاً خلف (المشاريع) و (المخططات) التي تجد أدواتها التنفيذية في (الحكومة) الصهيونية، والاحزاب الصهيونية والقوى المتحالفة معها، وقواتها المسلحة... الخ. وفي تقديري أن البدء في تأسيس المهمات الثقافية يمكن أن ينطلق من التساؤل في أهمية هذا الفعل؟

إن الثقافة المخيفة هي الباحثة، المنقبة بروح علمية، وبصدق وحرص كبيرين في (الاذهان) المعادية، أي في الاذهان التي قدرت على مر العصور على تحريك (الحدث) وتكوين مواصفاته، تلك الأذهان التي تحكم التفافها الافعوي بحكم معرفتها للأوكار التي لا يرتادها المقابل. ولأن الأمر كذلك، لا بد للثقافة العربية من أن لا تعيد لبوسها القديم، في المناجاة والبكاء والتألم، بل أن تبحث في نفسها، وفي غيرها، أن تواجه المحنة بجرأة الجرّاح الذي لا يمنعه كرهه للدماء من أن يمسك بالمبضع، ما دامَ فيه ما ينقذ الحياة ويوجد الأمل.. وتخريج عامّ كهذا يمكن أن يُجزأ في تطبيقاته في مجالات الابداع والنقد والاعلام والمعارف والعلوم المختلفة.

وعندما نبصر أنفسنا، وغاياتنا وآمالنا.. نقدر أن نبصر غيرنا بثقة أكبر، وبحرص أكبر، وبمسؤولية اكثر صدقاً.

عند ذلك يكون الدم الجديد حيوياً، متدفقاً في عروق قديمة وجديدة، متصلة بحيوية الصراحة والصدق، تكون اتجاهات.. هي ما نطمح أن نسميه بثقافة عربية جديدة..

بغداد

نحو ثقافة "بديلة"

ماجد السامرائي

١ ـ إنّ السؤال كبير ومتسع . . وهو يدعو الى «تشخيص» الحاضر، وفي الوقت ذاته «مراجعة» الماضي «واستشراف»المستقبل . . . وهي أزمنة متداخلة ببعضها . . واحدها يكمل الآخر ويؤكد حقيقته، كما يؤكد وجود «المحور» الذي يتوزع على هذه الأزمنة . . وهو: المثقف العربي . .

معنى هذا أن للمثقف العربي في عمرنا دوراً ريادياً . .
والسؤال يفترض أن لهذا المثقف «دوراً» و «أثراً» خطيراً في مسار الحياة، وفي حركة التاريخ الانساني، وفي تشكيل «الرؤية الزمانية» لانساننا، وفي تأكيد الحقيقة الحضارية لعصرنا.

غير أنّ هذا «الدور» غالباً ما كان في أحد مأزقين (لهما خصوصيتهما العربية!):
ـ فإما المساومة على هذا الدور ـ تخلياً، أو تغييراً وتغيّراً ـ حيث مسخ هذا المثقف شخصيته، وتضاءل بدوره الى حدود جعلت منه «شخصية مستلبة».

ـ وإما المصادرة . . حيث كان هذا «النمط المساوم» عاملاً من عوامل المصادرة هذه في ظلّ أنظمة تميل الى «اللا ـ ديمقراطية» ـ بل وتنحاز ـ ويستفزها «الرأي الآخر»، أو العزف على غير نغمتها.

٢ ـ ما حدث في لبنان . . وما حدث للبنان أسقط الكثير . . كما أكّد الكثير:
ـ كان أول ما اسقطه هو «فصاحة الكذب» التي اشتهر بها العديد من الأنظمة العربية . . وأسقط الكثير من الأفكار التي تحاول هذه الأنظمة فرضها على شعبها ـ وهي أفكار عسيرة على ذاته.

ـ وأسقط «عهد الوصاية»، سواء منها الوصاية على القضايا المصيرية للامة، أم الوصاية على المقاومة الفلسطينية، أم على شعب لبنان نفسه.

سقطت هذه جميعاً، وأثبتت زيفها وكذبها. وهي إنْ بدت «تقاوم» هذا السقوط في محاولة منها للإبقاء على وجودها المتهريء، فإنّ ذلك من الأمور التي انتهى حكم الزمن فيها وعليها.

أما أبرز ما أكّده فهو أن تخلّي الشعب عن دوره و «نيابةلأنظمة»، التي لا تمثله، عنه في كل قضاياه المصيرية قد قاد الامة الى مثل هذه الكوارث، التي سبقها طوفان من «الكذب المؤدلج» الذي أرادت به اجتياح عقولنا . .

ـ كما أكد أهمية الحرية، وخطر اغتيال الحرية . .
ـ وان البحث عن الوجاهة، والالتحاق بالسلاطين هو الخطوة الاولى في طريق تحقيق اغتيال كهذا . .

فقد ألغى بعض المثقفين والكتاب والأدباء العرب إيمانهم بأن «الانسان كائن حرّ»، وأنّ من حقه ـ بل ومن شروط وجوده، وأساسيات هذا الوجود ـ أن يمارس هذه الحرية . . منكرين (أو متنكرين) للدور المهم للحرية في حياة الانسان، وفي مسار تاريخه، وفي بناء واقعه. فالحرية إمتياز خاص بالانسان.

إنّ حالة الاستتباع التي عاشها عديد من المثقفين والكتاب والأدباء العرب قد خدّرت فيهم الوعي. فمن أين لنا، والحالة هذه، أن ننتظر منهم إحساساً بالحرية ـ والحرية منذ أن وعاها «برغسون» في عصرنا هي «إحدى المعطيات المباشرة للوعي»؟

لكننا ينبغي أن لا نلقي بالتبعة كلها على هذا المثقف . . فهو صريع واقع من الارهاب والمصادرة . . وهو ضحية التجويع إذا ما قاوم، والمساومة إذا ما هادن . .
وهو مسير لا مخيّر ـ بحكم الارهاب . .

ولكن سقطته الكبيرة كانت حين تمادى البعض من المثقفين في مثل هذه المسارات التي كان لها أن صادرت من هذا المثقف دوره، وساعدت على عزل الآخرين عن طريق محاصرتهم والتضييق عليهم باعتبارهم «خارجين» على القطيع . .

ولعلّ الفاجع والمأساوي في هذا كلّه هو أن هؤلاء المثقفين والادباء والكتاب الذين نتحدث عنهم، ونخصهم بالحديث، لا هم ضيّقو الأفق، ولا بلهاء . . إنما بينهم مَنْ له في حقل المعرفة والعلم الكثير . . وله مع الكلمة تاريخ من العطاء .

٣ ـ هذه الحالة التي ادركها المواطن العربي في وقت مبكر من «تاريخها» بلغت به حدّ اليأس من كثير من كتاب عصره . . فواجه بالتشكّك والارتياب الكثير مما كتبوا أو قالوا، ذلك لأن هذا الذي كتبوه أو قالوه لم يكن صادراً عن الحياة التي يعيش ويعرف، ولا صلة له بها أو أثر .

٤ ـ من هنا كانت «العودة الى التراث» في السنوات التي أعقبت حزيران ١٩٦٧ عنيفة وحادة . . . فهي، في وجه من وجوهها، تمثّل يأساً من الحاضر، واحتجاجاً على كثير مما يقال فيه أو يكتب . .

وعلى الرغم من أن هذا «التراث» كان في معظمه إنّما يعبّر عن غلوّ في المجردات، ويسلك طرقاً ملتوية الى الحقيقة ـ لأنه هو نفسه لم يكن حراً أو متحرراً من جمود عصره وضيق صدره . وهي عقلية ميّالة الى المذاهب الضافية . . . إلّا أنه، بالرغم من هذا كان يخلق كوناً من الفكر الانساني، كان في حقيقته وزيفه، وفي جرأته وجبنه، وفي علوّه وتهاويه وانسحاقه قد رسم معالم زمن بمقدورنا أن نحاكمه كما نشاء، ونتحدث عنه بما نشاء . وهكذا كان كثير ممن كتبوا عن التراث وفيه إما هجّائين للحاضر العقيم موقفاً، أو رثائين لزماننا الذي شاخ وهو لّما يزل في فجر الولادة، أو باحثين عن عزاء لهم في محنتهم الفكرية التي يعيشون . فكان الموقف ـ في أيّ وجه من هذه الوجوه الثلاثة جاء ـ موقفاً فاجعاً . . وكانوا، بهذا، معبّرين عن تجربة مأساوية هي تجربة عصرنا، وتجربة إنساننا فيه . .

ولم تكن هذه سوى تعبير عن هزيمة العقل العربي في الحاضر، وعدم القدرة على مواجهته مواجهة صريحة، واضحة وجريئة . فقد استعاض المثقف العربي عن «التضحية» بـ «القناع» .

٥ ـ هل هذا الذي نقول «ينقض ثقافة» ويدعو الى «ثقافة بديلة»؟

إنه كذلك . .

ـ فهو ينقض ثقافة هرمة، عاشت على الوهم، وتربّت داخل الوهم وكرسته . . وعملت على نفي الحقيقة من محيط انساننا .

ـ ويدعو الى «ثقافة بديلة» متحررة من الوهم، بعيدة عن سلطته . . ثقافة مصدرها الواقع . . تحمي نفسها من مغبّة السقوط الحضاري .

فأخطر ما يواجه المثقف العربي اليوم، كما يواجه الثقافة هو :

ـ استشراء سلطة الوهم . .

ـ التسليم بالأمر الواقع، وغياب صوت الاحتجاج . .

ـ وإعلان الذهنية الثقافية العربية عن عجزها على المواجهة .

فما حدث إنْ هو إلّا إمتحان عسير لنا كشعب وأمة، ولكلمتنا في التاريخ .

إنّ مشكلة البعض كانت انتهازية الموقف، ونموّ حسّ التملّق والرياء عندهم . .

ومشكلة البعض الآخر كانت الخوف وما يتولد عنه ـ حين يستشري في النفوس ـ من حالات استلاب ويأس وانزواء .

ومشكلة البعض الثالث كانت المواربة : فهم في الوقت الذي يسعون فيه الى إرضاء «البعض» لا يجد «الآخرون» مايعترضون عليه في ما يقولون ويكتبون أو يفعلون .

ـ فالبعض كانوا على دين ملوكهم . .

ـ والبعض الآخر على دين مرضعاتهم . .

ـ بينما زعق بعض ثالث بالبطولة، مع الابقاء على «طاعة الأحكام» و «الولاء للحكام» الذين أبرزوا من أنفسهم «أصلاً» للأشياء، كما هم مصدر للسلطات .

كل هذا في وقت كانت فيه المحاصرة تزداد، ويزداد معه تغرّب إنساننا الذي قذفوا به الى صحراء من اليأس القاتل . .

وبفعل هذا «العرف» أصبح أتفه الثرثارين أدباء وكتاباً مبدعين . .

٦ ـ إنّ أخشى ما أخشاه، إذا ما تواصل السير على مثل هذه الطريق، هو أن يجد ذلك التعريف للانسان بأنه «حيوان ناطق» معناه الدقيق فينا . .

فلقد أخجلوا آباءنا أمامنا عند الاجتياح الاول عام ١٩٤٨ . .

وأخجلوا جيلنا أمام الآباء عند الاجتياح الثاني عام ١٩٦٧ . .

وأخجلوا جيلنا، ثانية، أمام أبنائه عند الاجتياح الثالث هذا للبنان ـ الذي بدأ عام ١٩٨٢ . .

تُرى . . ماذا سيحدث غداً؟

وهل ستكون بعض الأنظمة (المتهاونة ـ المتعاونة) قادرة على حماية أسوار سلطتها؟

مساعِدَةً أو مستعصية ـ لليمين، استعماراً كان أم رجعية متخلّفة أم همجية عنصرية حاقدة على العروبة وجوداً وتاريخاً، هم في حقيقتهم وطبيعة دورهم ليسوا اكثر من «حُجّاب للامبريالية» في المنطقة. فدورهم واضح . . ألا وهو: محاصرة وضرب ـ ـ أو المساعدة في محاصرة وضرب كل البؤر الثورية الفعلية في هذا الوطن المبتلى بالتابعين والعملاء.

٧ ـ لعلّ هذا الذي قلته يؤشر «نقاط الإدانة» اكثر مما «يرسم المسار» لأدب جديد، أو ثقافة عربية جديدة علينا أن نصرخ، بكل ما فينا من صوت، من أجل التأسيس لها وإرساء قيمها وتأكيد منطلقاتها . .

إننا بحاجة الى أن نصرخ بما في أعماقنا من وجع. والادانة هي البدء لكل طريق مستقبلي نريد أن نختطه. ومع صوت الإدانة هذا، علينا:

ـ أن نتحرّر من الخوف . .

ـ ونؤمن بالانسان ـ إنساننا الذي صادروا منه الحاضر، ويسعون الى تأمين مصادرة المستقبل.

بغداد

المثقفون ومشجب العجز...

خالد أبو خالد

بداية يجب أن نعترف.. بأن الشريحة العظمى من المثقفين العرب، قد اكتفت بلعب دور الشاهد لما يحدث على أرض هذا الوطن..

وسواء أخذت هذه الشهادة طابع السلب أو الايجاب فإنها كانت شهادة ناقصة في كل الأحوال..

وعلى الرغم من اكتفاء هذه الشريحة بدور الشاهد، فقد كانت تدرك أن الشاهد في مثل حالتنا يدفع أيضاً الثمن ذاته الذي يدفعه المواطن العربي.. اينما كان.. سواء قام هذا المواطن بدوره الذي يجب أن يقوم به.. أو لم يفعل..

ولعل القلة القليلة من هذه الشريحة، هي التي حاولت أن تشارك بفعل رأته ضرورياً، غير أن هذه القلة، لم تفلح – حتى الآن – بانتزاع دور نضالي متميز.. يتيح لها أن تكون ضمن حركة الجماهير، وفي طليعتها.. فاكتفت من المحاولة بالسقوط في حالة من الديكور الضروري لتزيين الواقع العربي أو لتمويه وجهه في أحسن الأحوال..

وحتى عندما حاولت أن تفسر ما يحدث، وأن تصل إلى خصائص المعضلات التي تواجه الأمة العربية في معركة المصير هذه، نظرت إلى هذا الواقع من خلال مؤسساتها التي تنتمي إليها، وحللت كل شيء خارجها، دون أن تكلف نفسها عناء النضال في داخل هذه المؤسسات بهدف تطويرها والخروج بها من حالة العجز التي تحكمها..

ورغم أن إخراج هذه المؤسسات حركات، وأحزاباً.. ودولاً، ومؤسسات واتحادات، من حالة العجز تلك لم يكن أمراً سهلاً، فإن المحاولات التي جرت في داخلها لم تتعدّ كونها محاولات فردية، وقاصرة، ادت بها إلى الفشل وإلى إخراج أصحابها من مجرد إمكانية المحاولة حيث تعرضوا للسجن، والملاحقة، والتجويع، والتشريد ووصل الأمر إلى حد التهديد بالتصفية الجسدية، دون أن تجرؤ أغلبية الشريحة على مجرد الدفاع عنهم حتى ولا بالكلمات، بل إن الكثيرين منها واصلوا التغني بالنعيم الديمقراطي في مواقعهم في الوقت الذي كانوا فيه وما زالوا يشاركون في القمع الذي يمارس على الجماهير او على زملائهم المشردين أو المقموعين بسبب من آرائهم أو وجهات نظرهم. وراحوا يستمتعون بالامتيازات التي أضفاها عليهم دورهم الجديد في زمن الهزيمة.

هذه خطوط عامة، يمكن أن تخضع للمناقشة والحوار والإغناء، ويمكن أن تطرح أسئلة كبيرة وكثيرة تشكل الاجابة عليها مضمون الثقافة العربية الجديدة.

إن مجرد تذكر أن عشرين ألفاً من الكتّاب والصحفيين السوفيات قد استشهدوا في مواقعهم القتالية اثناء الدفاع عن وطنهم السوفياتي العظيم، وخلال تحريره، يطرح الكثير على المثقفين العرب.

كما أن دور المثقفين الفيتناميين في حرب التحرير التي دامت أكثر من نصف قرن، بدءاً بالراحل العظيم هوشي منه، وصولاً إلى مثقف فيتنامي، يؤكد بوضوح أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه المثقفون العرب في معركة أمتهم المهددة في مجرد بقائها..

إن الواقع الموضوعي في الوطن العربي هو المشجب الذي يعلق عليه المثقفون العرب عجزهم.. ولكنهم يتغافلون دائماً عن الواقع الذاتي ومشاكله في مؤسساتهم وفي تكوينهم.. وهذا هو موضوع السنوات القادمة..

دمشق

أن نكتب بشجاعة وصدق

عبد الرحمن مجيد الربيعي

ان الظاهرة الأولى التي يؤشر بها الأدب العربي في معظم أقطاره هي في كونه أدباً مستلباً، الجيد فيه مقموع ومخبأ، ولا يرى النور الا نادراً، وهناك جانب اخر يتمثل في الأدب السلطوي الذي يمجد النظام الذي ينتمي اليه الكاتب إما خوفاً أو مداراة لوضعه المعيشي. أما القناعة التامة فلا تتوفر الا لدى القلائل ممن يحملون أفكاراً ثورية فعلاً ويجدون في بعض الأنظمة الممثل والمجسد لهذه الأفكار.

وأدب هذا وضعه، وأديب هذه حالته لا يمكنها أن يؤديا مهمتها القيادية على أتمها، مضافاً الى كل ذلك القمع اليومي، أو ما أسميه بالكبت العربي الذي نجم عن انعدام الديمقراطية وحرية التعبير وسقوط الكتاب في فخ المحرمات العربية.

ومن هنا فإنني أعتقد أن المطالب ـ بفتح اللام ـ بالمراجعة ليس الكتاب، وانما بعض الأنظمة لأنها قادتنا الى الوضع الذي نحن عليه الآن، فأفكار جل الكتاب العرب هي أفكار مضيئة وتقدمية، وكانت دوماً منارات في الليالي المدلهمة التي عاشتها هذه الأمة في صراعها الطويل ضد أعدائها، ولكن صدور بعض الأنظمة اتضيق بها، ولا تسمح لها بالظهور والتفتح. انها عامل رعب وخوف بالنسبة لها، ولذلك تعمل المستحيل من أجل خنقها او الإجهاز عليها.

وقد عرفت السجون العربية ـ وما اكثرها! ـ من الأدباء والفنانين اكثر مما عرفت من القتلة والزناة واللصوص.

هكذا أرى الأمر.. وأعود وأضيف بأن الهزيمة لم تلحق بالأمة العربية ـ كما ورد في السؤال ـ ولكن بالأنظمة العربية. لأن الأمة العربية لم تقر بهذه الهزيمة، ولم تشارك في صنعها، كما ان الشعب العربي كتاباًوأفراداً لم يمنح فرصته الكاملة في الرد. وكل هذا نتيجة وضعه المستلب ـ بفتح اللام ـ الذي أشرت اليه في البداية.

أما كيف أرى الثقافة العربية الجديدة، والدور الذي ينبغي أن تضطلع به، فأنا أرى أن على عاتق هذه الثقافة مهمة مزدوجة، أولاً في أن تكون ثقافة حية ومتطورة لا تنتمي الى ثقافة البلاطات البائدة، والموائد العامرة بالتخمة والثمالة. أن تكون ثقافة شعب وصوت شعب لا ثقافة وصوت أنظمة وحكام. فهذا طريق مسدود لم يوقعها الا في المزيد من المخاطر والمهالك، وهو الذي سرق الضوء الجميل من عينيها. وثانياً في أن تكون ثقافة متفائلة. غير محترفة. تؤمن بأن الشعوب تظل حية رغم كل شيء، رغم قساوة الاعداء وهمجيتهم، ومن المؤسف جداً ان الأنعكاس الحاصل اليوم في قلوب آلاف الشبان العرب هو انعكاس انهزامي وسلبي، ولعلهم معذورون فيما هم عليه. بقي على الكتاب أن يزيحوا هذا الشعور وأن يملأوهم بحماسةالبقاء والاستمرار والتحدي.

ولا يأتي هذا سريعاً، أو يحل بكتابة مقالات سياسية عاجلة، بل بكتابة أعمال ابداعية متطورة، غير خائفة، وغير مهادنة، غايتها ايصال الحقيقة للجماهير، فلولا اختفاء هذه الحقيقة، لما تكررت الهزائم، ولما كثر المموهون ـ بكسر الواو ـ من الكتاب الذي يبررون كل شيء ويجدون له المخارج.

أن نكتب بشجاعة وصدق، وأن نكشف وجوه الكذابين والخونة والمتاجرين بالقضية، هذا هو الحل، ومنه البداية، البداية الصعبة والعسيرة، ولكن لا بد من الخطوة الأولى فيها قبل كل شيء.

بغداد (العراق)

القيادة التي تعوزنا

الدكتور معن زيادة

١ ـ النقد الذاتي ومسح الاخطاء

لعل الخطوة المنطقية الاولى التي يجب ان نبدأ بها بعد التطورات الخطيرة التي شهدتها المنطقة العربية، ولبنان خاصّة، ان نراجع حساباتنا مع انفسنا أولاً ومع غيرنا بعد ذلك. فمما لا شك فيه اننا نتحمل المسؤولية الاولى فيما آلت اليه أمورنا من هزائم واحتلالات وتواجد القوات الاجنبية على أرضنا، إضافة الى التفكك والتمزق الداخليين. وعندما أقول اننا نحن نتحمل المسؤولية الاولى فان هذه «النحن» تشمل الجميع : الحكومات والقيادات السياسية والحزبية والمفكرين والمثقفين والاكاديميين والنقابيين والطلاب والعسكريين والجميع. . كلنا مسؤولون وان بدرجات متفاوتة، ولا يجدي من قريب أو بعيد ان نلقي باللوم على الغير، على الآخر او «الهو». . صحيح ان «الهو» لا يتركنا وحدنا، وصحيح ان هذه «النحن» الكبيرة يمكن ان تتجزأ الى «نحن» معين و«نحن» ثان وثالث، الا ان هذا لا يعفينا نحن المثقفين خاصّة من المسؤولية.

لا بد لنا من ان نبدأ بعملية نقد واسعة لسلوكنا ونمط حياتنا وتفكيرنا، ولا بد لنا من ان نحاكم قياداتنا السياسية عقلياً وفكرياً متسائلين عن أسباب الهزيمة وكيف استطاعت اسرائيل بعد ٣٥ سنة على تأسيسها ان تصبح دولة مهيمنة على المنطقة، ولم يستطع العرب رغم ثرواتهم الطائلة المادية والبشرية ان يقفوا في وجه الزحف الاسرائيلي الوحشي الذي يتهدد كل جوانب حياتنا : الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بل والذي يتهدد وجودنا كمجتمعات وأفراد. .

لا بد لنا من ان نحاكم افكارنا ونظرياتنا. . لا يكفي ان نقول ان الامبريالية تساند الصهيونية واننا مغلوبون على أمرنا امام خصوم، خصوم أقوياء. . . لماذا لا نكون نحن الاقوياء. . وما هو مصدر قوة خصومنا واعدائنا. . ؟ وكيف السبيل الى امتلاك القوة التي يملكها العدو، اضافة الى القوة المادية والبشرية التي نمتلكها. . ؟

في هذا المضمار وفي معرض حديثنا عن مراجعة افكارنا ومراجعة دور المثقفين احب ان اتناول موضوعين على علاقة مباشرة بالثقافة والمثقف ودوره : الاول، تصحيح معنى العروبة، والثاني، ضرورة الحداثة. .

٢ ـ تصحيح معنى العروبة

من شأن الهزائم والانتكاسات ان تدفع بالشعوب، والمثقفين بخاصة، الى اعادة النظر فيما هم عليه من افكار ونظريات وفلسفة. بعد هزيمة عام سبع وستين وتسعمائة والف مثلا وجدنا بعض المثقفين العرب من الاتجاه القومي يتخلون عن مواقفهم الفكرية التي كانت قد تشكلت على امتداد عقدين من الزمان بعد هزيمة فلسطين وقيام دولة اسرائيل. وكان ان انقسم هؤلاء بين اتجاهين رئيسيين متقابلين : الاول يسار تخلى عن الفكر القومي لمصلحة المزيد من الاقليمية، وكان هذا الاتجاه قد أخذ بالتبلور والظهور بعد انتكاسة الوحدة بين مصر وسوريا خاصة، والثاني يميني تخلى عن مواقفه المتقدمة لمصلحة الفكر الديني والسلفي، وقد بدأ هذا الاتجاه ضعيفاً نسبياً ثم اشتد تدريجياً وبلغ أوجه مع الثورة الايرانية.

ولما كانت الناصرية عنصر استقطاب في الفكر العربي حتى هزيمة عام ٦٧، فقد اصبحت حركة المقاومة الفلسطينية عنصر استقطاب بديل بعد ذلك حتى هزيمة بيروت عام ٨٢. واليوم ونحن نسمع اللوم والنقد ينصبان على العرب، نتلمس نغمة التخلي عن العروبة والقومية العربية لمصلحة الاتجاهين السابقين اضافة الى اتجاهات اخرى أكثر خطورة وأكثر دلالة على فداحة ما وصلنا اليه. فاللوم المحقّ والانتقادات المحقة تتضمن عن وعي أو عن غير وعي ادانة الفكر القومي وتحميله مسؤولية ما جرى في لبنان خاصة وما زال يجري فيه وما ترتب وما قد يترتب على كل ذلك من نتائج.

هكذا ودون تفريق بين عرب وعرب، بين حكومات وشعوب، بين عروش وقبور، بين مصالح ومصالح، بين حاضر ومستقبل. . . هكذا مع ادانة الانظمة العربية تدان العروبة، ومع ادانة التقاعس العربي تدان العروبة، ومع ادانة التخلف العربي تدان العروبة، ومع ادانة الامراء والشيوخ يدان الفكر

القومي، ومع ادانة مصالح الافراد والاسر والقبائل والعشائر والبطون والافخاذ والطوائف تدان القومية العربية.. هكذا تختلط الاوراق ويحتجب وضوح الرؤية.. هكذا يتساوى صمود بيروت مع تخاذل غيرها مثلا، وتتساوى القضية العادلة مع التكتيك الخاطىء، وتتساوى البطولة مع الخيانة والنقيض مع النقيض.

الا ان القومية العربية ليست الانظمة العربية وليست الامراء والشيوخ وليست الحكام والمؤسسات الحاكمة، وليست اصحاب المصالح والامتيازات، بل ان هؤلاء جميعاهم النقيض الحقيقي للمفهوم العلمي للقومية، وادانة هؤلاء ليست ادانة للقومية، بل هي عكس ذلك تماماً، انها في مصلحة القومية وفي مصلحة العروبة.. فكما كان التنديد بالأسر الحاكمة في اوروبا وانتقاد سلطتها وسلوكها هو أحد التجليات الاولى للقوميات الاوروبية كذلك فان ادانة الانظمة العربية هو في الحقيقة في مصلحة القومية العربية نفسها.

والعروبة ليست التقاعس العربي، فقد نهضت العروبة الحديثة على انقاض التقاعس الشديد عندما اعلن العرب مقاومتهم الصريحة لسياسة السلطان عبد الحميد الاستبدادية وآثروا التضحية والاستشهاد على القبول بالتخلي عن نهجهم الجديد في ان ينتظم المجتمع انتظاماً حديثاً يأخذ بالقومية العربية بدلا من الجامعة الاسلامية التي كان يدعو لها السلطان العثماني ويشجعها. كما ان معركة القوميات في اوروبا كانت معركة الحريات العامة والديموقراطيات وحقوق الشعوب في مقابل استبداد الملوك كذلك كانت معارك القومية العربية منذ البداية، معارك ضد التخاذل والتقاعس والطغيان..

والعروبة ليست التخلف العربي في أي مظهر من مظاهر هذا التخلف، فلقد نهضت العروبة الحديثة ضد التخلف وضد اللامساواة ومن أجل بناء مجتمع معاصر جديد يدخل العرب في الحداثة ويخرجهم من ظلمات التخلف، فقد كانت البدايات الاولى للعروبة الحديثة عندما ثار صغار الفلاحين على المقاطعجية والاستبداد، وعندما وجد المثقفون منهم ان المنهج العلماني هو وسيلتهم لمعارضة الدولة العثمانية ونظمها البالية، وعندما قادهم هذا المنهج العلماني الجديد الى تبني القومية العربية كإطار جديد ينظم المجتمع العربي تنظيماً حديثاً يساوي بين الطوائف والافراد..

والعروبة ليست الاسلام، صحيح ان العروبة بمعناها التاريخي القديم ارتبطت بالاسلام، الا ان العروبة تاريخياً شيء والقومية العربية شيء آخر. والواقع ان حركة القومية تسير في خط معاكس مع الدين، سواء في الغرب أو في الشرق وسواء في اوروبا أو في البلاد العربية، فالقومية تنشد قيام مجتمع جديد يستمد شرقيته التامة من الشعب ويستمد سلطته العلمانية من الارادة المشتركة للمواطنين، فمشروعية الدولة القومية تقوم من الداخل، من مصلحة الناس وارادتهم وحقهم لا غير..

عندما تدعو القومية العربية الى تأسيس مجتمع جديد يخرج العرب من التخلف ويدخلهم في الحداثة، وعندما يتمسك العرب بالقومية العربية بديلاً من الجامعة الاسلامية، وعندما ينشدون مشروعية جديدة للدولة تأتي من الداخل لا من الخارج، سواء كان هذا الخارج ديناً أم غيباً أم قداسةً أم حقاً الهياً، فان المجتمع المنشود ليس هو مجتمع اي نظام من الانظمة العربية الراهنة. وليس هو مجتمع مصالح الاقلية على حساب الاكثرية، وليس هو مجتمع الاقليمية التي تتشدق بالحديث عن المصالح العربية والتضامن العربي، وليس هو مجتمع تبديد الثروات الطائلة، وليس هو مجتمع التواطؤ مع الاستعمار والامبريالية، وليس هو مجتمع الخيانة، وليس هو هو مجتمع الديكتاتورية وانتهاك الحريات وكم الافواه وشراء الضمائر.

عندما يدان العرب في واقعهم اليوم فليس في ذلك ادانة للعروبة او ادانة للقومية العربية أو ادانة للفكر القومي.. ذلك ان مجتمعات العرب اليوم هي مجتمعات الاقليميات والدكتاتوريات ومصالح الأسر والعشائر والطوائف والاتوقراطيات، وواقعهم هو واقع التخلف والتمزق والتفكك.. ونهضتهم لن تكون الا بخروجهم مما هم فيه وتأسيسهم لدولة قومية حديثة..

والثقافة العربية المطلوبة هي الثقافة التي تستطيع التصدي لمعنى العروبة وتحديد معالم المجتمع الجديد..

والثقافة القومية هي الثقافة التي تتصدى للتحدي الحضاري الذي يواجهنا وهي الثقافة التي تحدد شروط النهوض وتضع برامج الخروج من التخلف..

والثقافة الوطنية هي الثقافة التي لا ترضى ان تكون مختلفة عن ثقافة العصر الذي نعيش فيه، وهي على هذا ثقافة القرن العشرين وعلومه ومكتسباته.. فالثقافة لا تكون ثقافة الا اذا كانت في صميم العصر الذي تعيش فيه، والمثقف لا يكون مثقفاً اذا كان على هامش حياة عصره أو خارجها، والمثقف العربي لا يكون مثقفاً دون

الـدخـول في ثقـافـة العصـر، ولا يكـون متحضـراً دون الـدخول في حضـارة العصـر، ولا يكـون عـالمـاً دون ان يكون علمه من علم العصر الذى يعيش فيه . .

والثقـافـة الـوطنية ليست ثقـافـة الـطائفة او الانتـماء الـديني، وليست ثقـافـة التعصب وضيق الافق، وليست ثقافة الكراهية والحقـد، ولا ثقافـة الخنوع والاستسـلام، ولا ثقافة الهيمنة الخارجيـة اسرائيلية كانت ام امـريكية، ولا ثقافة الفكر الفاشي . . لقد لعب لبنان دوره الـطليعي في البلاد العربية عندما كان واحة الحرية الوحيـدة او شبه الوحيدة في صحراء مصادرة الحريات والـطغيان الفكـري وكمّ الافـواه . . ولن يستطيـع لبنان ان يلعب هـذا الدور الا اذا عـاد تلك الـواحـة التي كـانها . . واذا كـان ابن خلدون قد أدرك في وقت مبكر أن «الـظلم مؤذن بخراب العمران» كما أدرك رفـاعة الـطهطاوي منـذ قـرن ونصف القـرن أن الازدهار والتقـدم لا يكونـان بدون الحـرية . . وكـما أدرك خيـرالـدين التـونسي العـلاقـة الجـدليـة بـين الاستبـداد والتخلف من جهة والحـرية والتقـدم من جهة أخرى، فإن لبنان لن يستطيع ان يحتل مكانه الطليعي في البلاد العربيـة الا بالحـرية التي عـرف بها . . بـدون تلك الحرية يفقد لبنان دوره، لا في مجال الثقافة فقط، بل وفي كافة المجالات الاخرى أيضاً . لأن لبنان انمـا نجح فيـما نجح فيه بسبب تلك الحرية، وهذا ما تدركه اسرائيل . .

واستطراداً فإن العـروبة الحـديثة والقـومية العـربية بمعناهما العلمي وباعتبارهما حركة تجديد وتحديث في الفكر العربي يستلزمان الحرية .

لا بد من الحداثة

تتكـرر هزائم العـرب . . وتتكرر مجـدداً . . وتزداد وتفدح . . ويتكرر السؤال على امتداد قرنين عـلى الاقل، قرناً بعد قرن وعقداً بعد عقد وحربـاً بعد حـرب وهزيمـة بعـد هـزيمة . . ويعـود السؤال تـردده الاجيـال، اجيـال المثقفـين خاصـة، ويتكرر من جـديد ويجـول في الاذهـان تحوكه العقول وتلوكه الالسن وتردده الشفاه : كيف يمكن الخـروج من اللجّة وكيف يمكن تجنب الغـرق؟ منـذ حملة نابليون على مصر في نهايـة القرن الثـامن عشر الى الغـزو الاسـرائيـلي للبنـان في صيف ١٩٨٢، مـروراً بـاحـتـلال الفرنسيين للجـزائر سنـة ١٨٣٠ والبريـطانيين لمصر سنة ١٨٦٢ ومروراً بالانتداب وقيام دولة اسرائيل وغيرهـا من الهـزائم والانتكاسـات والضربـات والصفعات، والسؤال يتكرر بعد كل هزيمة، وكل انتكاسة، وكل تراجـع، وكل وقفة، وكل تهادن يسمح بالتفكير والتساؤ ل . .

وتتكـرر الأجـوبـة : متعـددة، متشعبـة، متفـاوتـة ومتباينة، تتراوح بين سلفية عمياء وتجـديديـة بلهاء، بـين تبعيـة المـاضي وتبعيـة الغـرب، بـين هـروب الى الـوراء وهروب الى الامام، بـين الانكفاء الى المـاضي واستعجال المستقبل، بين طرفين متباعدين متقاربين كـلاهما يـرى انه قارب شاطىء النجاة ليكتشف انه سراب في سراب .

ولا يعني هذا بحال ان جميع الاجابات كانت مجانبة للحقيقـة، فمنذ البـدايات الاولى للفكـر العربي الحـديث استطاع حاكم مستنير كمحمد علي باشا في مصر أن يدرك جدلية العلاقة بين الاصالـة والتحديث، وان الاصـالة لا تعني العودة بالمجتمع الى نمط من الحياة يتجاهل منجـزات ومكتسبـات الانسان المعـاصـر والحضـارة الـراهنـة، وان الاصـالـة انمـا تعني الابـداع والابتكـار وخلق الشـروط اللازمة والضرورية لـلازدهار والنهـوض والتقدم ومـواكبة العصـر والمساهمـة في الحـركـة العلميـة، تمـامـاً كـما فعـل السابقون من العرب ابّان نهضتهم وتبوّئهم مركز الصدارة في الحضـارة العربيـة ـ الاسلاميـة التي ضمت الى جـانب الثقافة العربية ثقافات الشعوب الاسلاميـة الاخرى والتي افـادت من الثقـافـات الاخـرى واسـتـوعبت الحضـارات المـزامنة والسـابقـة، وان التحـديث لا يعني التقليـد دون الـفـهـم أو الـنـقـل دون الادراك او الاسـتـعـارة دون الاستيعاب، وانما يعني الاقتباس مع المساهمة والاخـذ مع العطاء والافادة من تجارب الامم الاخرى بما يلائمنـا بعد تكييفـه وتعديله بمـا يضيف اليه، فـلا نكون كـالببغاوات نـردد ما يتـلى على مسـامعنا، أو كصغـار العقـول نـطلب الجديد لجدته لا لنشوء الحاجة اليه .

وهكـذا عندمـا ادرك محمد عـلي بفـطرتـه السليمـة ووعيـه المتميز البسيط انـه لا بد من جيش حـديث يقارع الجيوش الاوروبية الغازية شرع في بناء ذلـك الجيش، الا انـه سرعـان ما ادرك ان الجيش الحـديث لا يكون بـدون الدولة الحديثة وان ذلك انما يكون بالعلم والمعرفة . فشيد المـدارس والكليـات وأرسـل البعثـات واستقـدم الخبـراء والمعلمين وبنى المصانع وأقام التـرع وقضى على التفكـك الاجتماعي ونظم الاقتصاد وعقلن الزراعة لتؤمن المصادر المالية اللازمة للصناعة والبناء . . وباختصـار وضع محمـد علي باشا مصر على ابواب الحداثة ليرتفع بها بعد ذلك الى مصاف الدول العظمى في عصره مـوسعـاً دائـرة نفوذه من مصر الى السودان والجزيرة العربية وبلاد الشام .

لم يضطر محمد علي باشا او المجتمع الى التخلي لحظة واحدة عن الاسلام والايمان في سبيل الحداثة الا ان محمد علي ودولته الجديدة لم يسمحا لأحد من رجال الدين أو غيرهم ان يقف في وجه الحداثة باسم فهم خاص ضيق للاسلام والايمان. لقد ادرك الرجل بحسه البسيط ووعيه الذاتي كيف يمكن الخروج من التخلف وكيف يمكن الدخول في الحداثة، واستطاع بعد ثلاثة عقود من العمل المتواصل الدؤوب ان ينتقل بمصر من واقع التخلف الذي لا جدال فيه الى واقع الحداثة بكل معنى الكلمة، هذا اذا اخذنا طبيعة ظروف العصر بعين الاعتبار. ولم تتقوض تلك التجربة الرائدة الا بعد ثلاثة عقود أخرى عندما دخلت بريطانيا الى مصر وبدأت بافراغ مصر من مكتسبات وانجازات دولة محمد علي، وتلك قصة أخرى.

كان لتأسيس محمد علي دولة حديثة الفضل الاول في ظهور الجيل الاول من الرواد المفكرين الذين نظروا للخروج من التخلف والدخول في الحداثة وعلى رأس هؤلاء رفاعة الطهطاوي، تماماً كما كان لمحاولات الباي أحمد تأسيس دولة حديثة في تونس الفضل الاول في ظهور مجموعة من الرواد المفكرين الآخذين بضرورة التحديث على رأسهم خيرالدين التونسي.

لم يجد هؤلاء جميعاً بديلاً للخروج من التخلف والهزائم والانتكاسات الا الدخول في الحداثة.. ولم ير هؤلاء جميعاً ان الحداثة تكون بالتقليد دون الاصالة او بالاتباع دون الابداع او أنها الاخذ بمظاهر الحياة الغربية وبهرجها الخارجي، كما انهم لم يروا ان الاصالة تكون بالعودة الى السلف في أفكارهم ونظمهم واهتماماتهم وهمومهم.

لقد حاول كل من الطهطاوي والتونسي على سبيل المثال ان يقدما لمعاصريهما فكراً يفلسف الحداثة ويثبت انها لا تتعارض مع الشريعة بل وانها من متطلبات الشريعة، فالشريعة كما يقول التونسي «لا تنافي تأسيس التنظيمات السياسية المقوية لاسباب التمدن ونمو العمران..» فلقد قدم كل من الطهطاوي والتونسي تقريراً دقيقاً مفصلا عن الحياة الاوروبية يبين ضرورة الافادة من التجربة الاوروبية استناداً الى حتمية التطور وتبدل الازمنة وصيرورة تواريخ الشعوب والامم، بل لقد ادرك كل من الرجلين ان البقاء في التخلف وعدم الدخول في الحداثة سينتهي بنا الى ما نحن فيه اليوم. واليوم ونحن نستعيد تجربة هؤلاء الرواد لا بد لنا من ان نحذو حذوهم، فلقد قدم كل من هؤلاء برنامجاً كاملا حدد شروط النهضة وطريقة الخروج من التخلف والدخول في الحداثة وفقاً للمرحلة التاريخية التي عاشوها.. وعندما قدر لكل من الطهطاوي والتونسي الظروف الملائمة لتحقيق بعض من برامجهم وجدنا المجتمع يتقدم تقدماً ملحوظاً. ومهما يكن من أمر فقد ساهم هؤلاء في تغيير صورة مجتمعاتهم تغييراً ملحوظاً، وقد استمر اثرهم في ميدان النظر والعمل حتى يومنا هذا.

ولكن يبقى السؤال الأهم وهو: ما هي الحداثة؟

لا شك ان الاجابة عن هذا السؤال ليست بالبساطة التي تبدو لأول وهلة. فالخصائص التي تحدد الحداثة ذات شقين رئيسيين: خارجي وداخلي. الاول يتعلق بالبيئة والمحيط والعمران الخارجي، والثاني يتناول سلوك الانسان وقيمه ونظام تفكيره ومشاعره.

معالم الحداثة الخارجية سهلة التحديد نسبياً ويمكن تلخيصها بالعناوين التالية: العمران، والتعليم، وتطور وسائل الاتصال، والتصنيع، وتأسيس المؤسسات الديمقراطية الحديثة مع شرط اساسي وهو ان يتم ذلك كله وفق احتياجات المجتمع ومصلحته.. ولكن ومع السهولة النسبية في تحديد هذه المعالم الخارجية للحداثة، الا أن البحث في مضامينها اوسع من ان يستعرض في هذه العجالة.. وما يمكن الاشارة اليه هنا هو أن هذه الحداثة الخارجية تفرض انظمة اقتصادية واجتماعية وسياسية وادارية وتعليمية جديدة تتناول كافة اوجه الحياة الانسانية الفردية والجماعية بما فيها علاقة الفرد مع الجماعة ونمط تلك العلاقة وطبيعة انتماء الفرد وانتقال هذا الانتماء من الاسرة أو العشيرة او القرية او الطائفة الى مؤسسات من نوع جديد كالنقابة والحزب والدولة والأمة..

ومع هذا كله نقول بأن هذه المعالم لا تشكل الحداثة، انها تأتي مع الحداثة الا انها ليست الحداثة. صحيح أن العمران والصناعة والتعليم وتحديث المؤسسات تحمل بعداً تحديثياً وتساهم في انتقال الانسان من التخلف الى الحداثة، الا ان الحداثة لا تكون الا بالتفكير العلمي والعقلي وبالسلوك والشعور والقيم الجديدة التي يقتضيها هذا التفكير.

* أول مظاهر التفكير العلمي والعقلي الحديثين ان **ندرك اننا نعيش في عالم جديد** يتغير بسرعة، انه غير العالم الذي تصفه لنا كتب التاريخ والجغرافيا، غير العالم

الذي عرفه اباؤ نا وأجدادنا. . ان هذا المظهر من مظاهر الحداثة هو أقرب الى الحالة العقلية او الذهنية الجديدة. . انها الاستعداد لقبول تجارب جديدة. انها حالة انفتاح العقل للتجديد قبل ان تكون اي شيء آخر. . انها ليست الكومبيوتر مثلاً وانما العقلية التي تستطيع ان تستخدم الكومبيوتر على أحسن وجه ممكن.

* المظهر الثاني هو حالة عقلية ونفسية أيضاً، الا انه يتناول **عناية الانسان بالحياة العامة** على المستوى الوطني والقومي بل وعلى المستوى العالمي. الانسان المتخلف يكتفي بما حوله من بيئة ضيقة، تنظيم صغير على مستوى الحي أو المدينة أو الطائفية مثلا. . اعتباراته الاولى ضيقة ومحلية رغم اهماله الكلي لما هو وطني وقومي وعالمي. .

* نأتي بعد ذلك لما هو أهم وهو استعداد الانسان الحديث للأخذ **بالحرية** والديموقراطية بأعمق معانيها، فهو اكثر استعداداً للقبول باختلاف وجهات النظر وأكثر قبولا لحق الآخرين في حرية آرائهم ومعتقداتهم السياسية والدينية خاصة، دون سقوط الروابط الوطنية والقومية والانسانية التي تربطه بهم، ودون الخوف من ان يضطر الى التخلي عن وجهة نظره الخاصة في أي أمر من الامور، ولا سيما رؤ يته للعالم والحياة والحاضر والمستقبل. .

ومبدأ **الحرية** هذا يعني في التطبيق العملي انه ليس على الانسان ان يقبل آراء من هم فوقه أو ان يفرض آراءه على من هم تحته في الاسرة او العمل او المجتمع ككل. . ولا يكفي هنا القبول النظري او الظاهري بالحرية والديموقراطية، فان المحك الفعلي لهذا المبدأ انما هو السلوك الفعلي والعملي للانسان. .

* نأتي بعد ذلك لقضية **الزمان**، فعلاقة الانسان مع الزمان هي أحد المعايير الرئيسية التي تحدد ما اذا كان الانسان محدثاً أم متخلفاً، فاذا كان الفرد، وأكثر من ذلك المجتمع، يعنى بحاضره ومستقبله اكثر من عنايته بماضيه فانه يقترب بذلك من الحداثة ويبتعد عن التخلف. . اضف الى ذلك ان الانسان حديث التفكير هو الذي يحترم الوقت، وقته ووقت الآخرين، وهو الذي يبرمج عمله رابطاً بين العمل والزمان.

* ويقترب موضوع **التخطيط** من موضوع الزمان، فالانسان الحديث والمجتمع الحديث هما ذلك الفرد والمجتمع المؤمنان بالتخطيط والتنظيم في مقابل التخبط والارتجال.

* يأتي بعد ذلك **الاتقان**. . الاتقان في العمل هو طريق النجاح. . والاتقان في النضال هو طريق النصر، والاتقان في المجتمع هو طريق التقدم. . ويرتبط بالاتقان الدقة واعتماد القياس الكمي في مقابل الحكم العشوائي.

* يأتي بعد الاتقان **الايمان بالعلم** والتكنولوجيا.

* ويأتي بعد الايمان بالعلم والتكنولوجيا **احترام الانسان** كقيمة في حد ذاتها، فالانسان حديث التفكير هو الانسان الذي يحترم الانسانية. . من خلال معاملته للآخرين من بين جنسه على قدم المساواة دون تفريق، ولعل محك ذلك تعامل الرجل مع المرأة، والكبير مع الصغير. .

* وأخيراً لا آخراً فإن الحداثة انما تعنى **العدالة** في إتاحة الفرص والعدالة في التوزيع. . وذلك يعني ان تكون مكافأة الانسان على انتاجه لا على أي اعتبار آخر. .

وقد يكون هناك معالم أخرى للحداثة غير ما ذكرت، كما قد يكون هناك طرق أخرى لتعريف الحداثة غير التي اخترت. . وقد يرى البعض ضرورة اضافة موضوع حرية المرأة أو كيفية معاملتنا لاطفالنا ونسائنا. . وقد يرى البعض الآخر ضرورة التركيز على العوامل الروحية على حساب المادية أو غير ذلك. .

ولكن ومهما غيرنا او بدلنا من معالم الحداثة، فإن الحقيقة تبقى وهي اننا، افراداً ومؤسسات، بعيدون جداً عن الحداثة بمعانيها الحديثة، ولا ضرورة هنا للدخول في التفاصيل، فان استعراضاً سريعاً لسلوكنا وتعاملنا مع الامور كفيل بأن يرينا الهوة الشاسعة التي كانت وما زالت تفصلنا عن الحداثة. .

ولما كان موضوع الحداثة على صلة مباشرة بالثقافة، فان المثقف لا يكون مثقفاً عندما يكون خارج الحداثة، ولا تكون مهماته مهمات ثقافية عندما تكون خارج مهمات الدخول في الحداثة، ولا يكون هدفه هدف المثقف عندما لا يكون على علاقة مباشرة بموضوع الحداثة. .

اما اذا استعرضنا الوسيلة التي يمكن عبرها الولوج الى الحداثة فاننا لن نجد الا التعلم والتعليم بمعناهما الواسع وباشكالهما المختلفة. . وسواء كان توجهنا اشتراكياً أم رأسمالياً، يمينياً أم يسارياً، فان التعلم والتعليم، أو بتعبير آخر التربية، هي وسيلتنا الى الدخول في الحداثة. . والتربية هنا ليست مقصورة على التعليم كما

ان التعليم هنا ليس مقصوراً على التعليم المدرسي وحده التعليم المدرسي هو أحد اشكال التعليم.

* التعليم عبر وسائل الاتصال الموجهة هو شكل آخر من اشكال التعليم. التعليم في المصنع هو شكل ثالث من اشكال التعليم..

* التربية الوطنية في الجيش هي شكل رابع من اشكال التعليم..

* التعليم عبر المؤسسة السياسية والحزب السياسي هي شكل خامس من اشكال التعليم..

ولكن ومهما اختلفت اشكال التربية واشكال التعليم فانهما يظلان على اتصال مباشر بالثقافة والمثقف.. ولا تستطيع الثقافة ان تكون بعيدة عن هذه المهمة ولا يستطيع المثقف ان يكون على هامش هذه المهمة دون ان يفقدا معناهما ودورهما.. فالثقافة والحداثة امران متداخلان لا ينفك احدهما عن الآخر.. واذا كان موضوع بحثنا هو المثقف والثقافة ومهماتها، فان هذا البحث - في رأيي - لا يكون بحثاً جدياً دون البحث في الحداثة ومعالمها وكيفية الدخول فيها..

٤ - ازمتنا أزمة قيادة

عندما أتحدث عن الحداثة هنا فانني لا اتوقع ان ينتظرنا العالم وان ينتظرنا عدونا حتى يتم تحديث المجتمع بجميع فئاته وأفراده.. فذلك أمر مستحيل لأن العالم يسير دون الالتفات الى الوراء، ولأن عدونا فوق رؤ وسنا يريد الاجهاز علينا. انما قصدت من بحثي هذا ان أحدد مواصفات القيادة التي كنا وما نزال نفتقدها.. ولا أريد الدخول في التفاصيل هنا، كما لا اريد عقد المقارنات بين المواصفات التي طرحتها قياداتنا السياسية والحزبية والتنظيمية، بل وقياداتنا الفكرية والاكاديمية والثقافية أيضاً.. ما اردته هو ان أبين الهوة الكبيرة التي تفصل قياداتنا عن الحداثة.. اما اذا دخلنا في التفاصيل وعقدنا المقارنات فاننا سنكتشف العجب العجاب..

الدرس الاول والأهم الذي يمكن استخلاصه من تجربة محمد علي الريادية التي أشرت اليها هو أهمية القيادة ودورها، فعندما توفرت هذه القيادة لمجتمع مفكك مشرذم ومتخلف كالمجتمع المصري الذي كان خارجاً لتوه من حكم فلول المماليك الذي دام طويلاً وانتهى بالحملة الفرنسية ثم بتسلم محمد علي لمقاليد الامور، عندما توفرت هذه القيادة الواعية الحازمة تجنب المجتمع الكثير من الاخطاء والانحرافات والسير في الطرق المتعرجة واتجه مباشرة نحو الهدف المباشر وهو تأسيس دعائم الدولة الحديثة. ونحن الآن عندما نقوم بمراجعة شاملة لحساباتنا مع أنفسنا نكتشف ان أزمتنا الراهنة يمكن ان تتلخص في كلمة واحدة هي : القيادة.

والدرس الاول الذي يمكن ان نتعلمه من عدونا القابع فوق رؤ وسنا، عدونا الذي استطاع في فترة وجيزة من الزمن ان يوحد مجتمعه بفئاته المتباعدة وان يعبيء هنا هذا المجتمع وان يسلحه ويجعله قادراً على الانتصار، عدونا المتسلح بالعلم والتكنولوجيا الحديثين، هو القيادة: القيادة التي أصرت على اقامة دولة ليس لها شروط الدولة.. والقيادة التي خططت وناضلت لتثبيت دعائم هذه الدولة.. والقيادة التي عملت كل ما في وسعها لجعل هذه الدولة قوية.. القيادة التي تقاتل وتستشهد.. القيادة التي تتقدم الصفوف.. القيادة التي تدرك ان القيادة تعني المزيد من المسؤوليات لا المزيد من المكتسبات وان القيادة تعني المزيد من الاعباء لا المزيد من الصلاحيات..

والدرس الاول الذي يمكن ان نتعلمه من هزيمتنا الاخيرة هو انه لا ينقصنا الصمود ولا تنقصنا البطولات ولا تنقصنا الشجاعة ولا تنقصنا الامكانات المادية ولا الامكانات البشرية... وان ما ينقصنا هو القيادة التي تستطيع ان توظف هذا الصمود وهذه البطولات وهذه الشجاعة الخارقة وتلك الامكانات التي لا حدود لنا..

القيادة الحديثة التي تدرك طبيعة العالم الذي معين فيه وصراعات هذا العالم وحدود هذه الصراعات وحدود دعم حلفائنا لنا.. والقيادة التي تنقل معاركنا من المستوى الاقليمي الى المستوى القومي.. القيادة التي لا تستدرجها المكتسبات الاقليمية الضيقة.. والقيادة المؤمنة بالانسان كقيمة في ذاته والمؤمنة بحق هذا الانسان في الحرية وحقه في التعبير وحقه في القول وحقه في التفكير وحقه في العمل.. القيادة التي تخطط وتتقن وتؤمن بالعلم.. القيادة التي تخرج من حدود التفكير القبلي والعشائري والاقليمي..

القيادة التي تستطيع ان تضع المجتمع على طريق الحداثة، السلاح الاول والامضى.. السلاح الذي لا بد منه لاحراز النصر..

بيروت

و . ب . ييتس مسرحياً

إي . نورمان جيفرز

ترجمة فاروق هاشم

إننا نفكر بييتس في المقام الأول على أساس أنه شاعر ، ومع ذلك ، فقد كرس وقتاً طويلاً من حياته المديدة وصرف طاقة كبيرة لكتابة المسرحيات ، وقد قضى جلَّ وقته لعدة أعوام كمدير لمسرح (الآبي) بـ « أعمال تتعلق بالمسرح ، وادارة الناس » . فالطبعة الثانية لأعماله المجموعة ، التي ظهرت عام ١٩٥٢ ، بعد موته ، وبالرغم من أنها لا تتضمن كل أعماله المنشورة في مجال الكتابة المسرحية[1] ، تحوي أكثر من سبعمائة صفحة من النصوص ، وهذا بحد ذاته يعطي بعض الدلالة حول حجم أعماله المتعلقة بالمسرح .

بدأ ييتس بكتابة المسرحية الواحدة إثر الأخرى مقلداً سبنسر[2] وشيلي ، في سني مراهقته . وقد اعتاد والده ، الذي كان له تأثير قوي عليه في هذه الفترة من حياته ، أن يقرأ بصوت مرتفع الصفحات الأكثر درامية لأية مسرحية أو قصيدة تجذب انتباهه وتجعله يستغرق في فهمها فهماً دقيقاً وأصيلاً وتأملياً . وكان ابنه يقرأ قصائده الخاصة بصوت مرتفع وهو منهمك في صياغتها ، وبما أنه لم يكن وقتها شديد الفهم لعلم العروض ، فقد اكتشف أنه بحاجة لمستمع ما ، للحضور ، لكي يخلق نوعاً من الموسيقى لأبيات شعره . وقد تطورت لديه عادة تمثيل كل ما يكتبه أو يقوله . وفي الحقيقة ، عندما تخرج من المدرسة الثانوية وانضم الى مدرسة الفنون في دبلن ، كان أحياناً يتبنى مشية مصطنعة ، يرى نفسه فيها كنوع من هاملت يفتش عن رباطة الجأش البطولية ، في الوقت الذي كان فيه داخله ممزقاً شر ممزق بالصراعات المعتملة فيه .

وكان اهتمامه بالدراما منصباً على كل ما هو بطولي . فمسرحياته المبكرة . كانت رومانسية الطابع ومليئة بالحزن ، تهتم بالعزلة والجمال ، فمثلاً ، نجد أن المسرحية المسماة (جزيرة التماثيل) التي كتبها عام ١٨٨٥[3] ، ومع أنها تتخذ الشكل الدرامي ، ليست سوى قصيدة رومانسية ذات محتوى درامي ضئيل . وحوالي عام ١٨٨٦ ، وتحت تأثير (جون أوليري) وفهمه الخاص للقومية المتطورة ، قرر أن يكتب مستمداً موضوعاته من عواطفه الخاصة ؛ وقد بدأ يدرك بأن البلاد بحاجة لنوع جديد من الأدب الايرلندي .

وفي الفترة التي بدأ فيها اكتشاف عالم جديد للأدب الغالي Gaelic ، والاستحواذ أيضاً على معرفة عميقة للكتابات الايرلندية باللغة الانجليزية في القرن الثامن عشر ، طرح جانباً المواضيع التقليدية والرومانسيات الثانوية .

وتشهد مسرحية (الكونتيسة كاثلين)[4] ، ١٨٩٢ ، هذا التغير في أسلوبه وأهدافه . وكان من أسباب وقوعه في غرام مود غون عام ١٨٨٩ وادراكه انه بحاجة « لموهبة شعبية جداً » لكي تعجب به هذه الثورية الجميلة العنيفة متحجرة القلب ، ان كتب هذه المسرحية الشعرية من أجلها . ولكنه كان أيضاً عميق التأثر بطريقة القاء الشعر الذي تتفوه به فلورانس فار وهي إحدى الممثلات في مسرحية (قصة من صقلية) (لجون تود هنتر) ، التي مثلت في بدفورد بارك عام ١٨٩٠ . وقد اعتمد ييتس في كتابة الكونتيسة كاثلين على قصة كان قد وجدها وظنها مناسبة من اجل مسرحية شعرية في الوقت الذي كان يحضر لكتابه (حكايات وقصص خرافية لدى الفلاحين الايرلنديين) ، ١٨٨٨ . وقام بكتابة مسودتها نثراً ، بادئاً العمل في شباط أو آذار من عام ١٨٨٩ ، وأنهى النسخة الأولى شعراً في تشرين الأول من عام ١٨٩١ .

وتملك المسرحية حبكة تعتمد على الأحداث العرضية البسيطة . وتتخلى الكونتيسة عن أحلامها عندما تصطدم بالواقع ، وتعارض جهود تاجرين شريرين يجدان في شراء أرواح فلاحيها الجائعين . وفي النهاية تبيع روحها كي تمنع وقوع ذلك . وقد كتب ييتس (الكونتيسة كاثلين) طامحاً في خلق « أدب شعري متميز » مستمد من التراث الايرلندي الوثني والمسيحي . وعلى العكس من قصيدته الطويلة (تطواف أوزين) ١٨٨٩ ، التي انصبت على الاهتمام بالأساطير الوثنية ، نجد هذه المسرحية تستهدف المزج بين أفكاره الشخصية الخاصة ومشاعره مع معتقدات وعادات ايرلندا المسيحية . وكان يعتقد بأن العناصر الوثنية والمسيحية في التراث الايرلندي تشكل نوعاً من الينابيع الالهامية ذات الرأس المزدوج . وتبرز مشاعره الخاصة في المسرحية عندما يحاول الشاعر (كيفين) عبثاً منع

الكونتيسة من بيع روحها ويقدم نفسه فداءً لذلك . وهو يعتقد بأن عليها أن تترك الخلاص النهائي للفلاحين الى باني السموات ، وأن يظل اهتمامها موجهاً نحو الزواج وانجاب الأطفال . وكانت هذه الفكرة رسالة غير مباشرة إلى حبيبته مود غون[٥] ، وتشتد هذه الفكرة فيما بعد في النسخ المعدلة لهذه المسرحية ، حيث يدعي كيفين ، وقد تحول إلى (ألبل) ، بأن أهداف الحياة الذاتية (وهي حياة الفنانين الجميلة التي كان ييتس يتمناها لمود غون) تتعارض مع الواقع الشاحب لـ « شرور الأزمان » .

أعاد ييتس صياغة النص بشكل جذري في أعوام ١٨٩٥ ، ١٩٠١ ، ١٩١٢ ، ١٩١٩ ، وأجرى تعديلات طفيفة في أوقات أخرى . وأولها التعديلات الرئيسية[٦] هذه أثارتها مسرحية (أرض أمنية القلب) ١٨٩٤ ، عندما مُثلت في الأفينو تياتر ذلك العام . وقد كتب ييتس هذه المسرحية الخفيفة بناءً على اقتراح من فلورانس فار قدمته لكي تستطيع ابنة أخيها دوروثي باجيت أن تلعب دور جنية طفلة تغري امرأة شابة وتبعدها عن زواج محترم كان من المقرر أن يتم في أحد الأكواخ وتحضرها الى رفقة الجنيات ولهوهن الذي لا ينتهي .

وتسبر (المياه الظليلة)[٧]، ١٩٠٠ ، وهي أيضاً مسرحية تمت صياغتها مراراً ، وقد عمل ييتس على تأليفها من عام ١٨٨٥ حتى ١٩٠٥ أو فيما بعد[٨] ، نوعاً مختلفاً من الأوضاع : فهي دراسة عن الايحاءات البطولية ، واتحاد القلوب . وهي مجموعة من الطقوس والمشاعر أكثر منها مسرحية ، طبقاً لكلام ييتس ، وهي مسرحية رمزية تمثل الهروب ، حيث يجدُّ البطل والبطلة ، وهما السوسن والوردة ، بحثاً عن الموت والحياة على التوالي . ويقصد من الرموز - كتلك التي تظهر في قصائده التي أنتجها في التسعينات من القرن الماضي - أن تعطي وزناً للمعنى الخفي . فعبر تلك الظلال ، تظهر أحلام العشاق المتضاربة عن الحب ، وكذلك ترمز إلى حب أبعد من هذا الحب ، حب من نوع غير بشري .

وقد تحول السأم الذي أحس به ييتس في نهاية القرن الى واقعية جافة بعد بداية القرن ، وقد كرَّس معظم طاقته ، وقسطاً كبيراً من شجاعته لإدارة وتنظيم أمور الحركة المسرحية الايرلندية . وكان قد التقى بليدي جريجوري[٩] في عام ١٨٩٦ وقضى الصيف التالي وهو يجمع الحكايات الفلكلورية معها في مدينة كول ، في غربي أيرلندا ، وقد وجد فيها الحليف الذي كان يفتش عنه من اجل خلق المسرح الايرلندي . وقاما معاً بتأسيس المسرح الأدبي الايرلندي ، مع (ادوارد مارتن) و (جورج مور) كمديرين مساعدين ، وفي عام ١٨٩٩ مُثلت مسرحية مارتين المعروفة باسم (حقل الخلنج) ومسرحية ييتس (الكونتيسة كاثلين) في مدينة دبلن . وقد حدثت حرائق من اجل المسرحية الأخيرة ، وكأنها تعميد لهذا العمل ، وخلقت معارضة دينية وسياسية وأخلاقية على أساس أن شعب أيرلندا لن يبيع روحه ، وتم تمثيل المسرحية تحت حماية الشرطة .

ظل المسرح الأدبي الايرلندي يقوم بعمله حتى نهاية عام ١٩٠٢ : وفي تلك الأثناء انسحب (مارتن) و (مور) من الحركة ، ولكن ليس قبل الشجار العنيف الذي نشب بين ييتس ومور بسبب مسرحيتهما المشتركة (ديارمويد و جرانيا) Diarmuid and Grania[١٠] وبسبب قصة أخرى كان المؤلفان ينويان جعلها نواة لعمل مشترك فيما بعد . وقد سارع ييتس إلى كتابة (حيث لا يوجد شيء)[١١] ١٩٠٢ ، ليمنع مور من استخدام الموضوع في عمل خاص به . وتتحدث المسرحية عن سيد ريفي فوضوي ينضم إلى مجموعة من العمال غير البارعين ، ثم يتزوج من إحدى بناتهم وينفصل عن جيرانه المحترمين ، ويدخل أحد الأديرة حيث تتلبسه أفكار هرطقية ويتم إبعاده ويُقتل أخيراً من قبل الغوغاء . ومن الممكن أن يكون الفيلسوف نيتشه ، الذي بدأ ييتس بقراءته عام ١٩٠٢ ، قد أثر على الكاتب لابتداعه هذا العنصر السوبرماني في شخصية بطل المسرحية .

ثم قامت الجمعية الدرامية الوطنية الايرلندية ، وتولى رئاستها ييتس ، بالحلول محل المسرح الأدبي الايرلندي ؛ وقد ضمت هذه المجموعة الجديدة من بين أعضائها الاخوان (فاي) ، وقد زودت ييتس بالممثلين الايرلنديين والممثلات الذين كان بحاجة لهم . وتقدم ييتس بمسرحيته القصيرة (كاثلين في هوليهان)[١٢] عام ١٩٠٢ ، وقامت مود غون بالدور الرئيسي فيها . وقد لاقت المسرحية نجاحاً هائلاً ، خصوصاً للرسالة الثورية التي تضمنتها ، ورسمها لايرلندا كامرأة عجوز لاقت الكثير من الأهوال والمصاعب وارتكبت بحقها أخطاء كثيرة ، وهي تناشد أبناءها ليهبوا لمساعدتها . ففي أثناء تردد الأنباء عن هبوط قوة فرنسية في مدينة (كيلالا)[١٣] ، يرى الناس هذه العجوز وقد ارتدَّت إلى ميعة الصبا وهي « تسير كملكة » . والمسرحية بسيطة ورائعة التأثير من الناحية الدرامية فعلاً . وفي فترة الشيخوخة ، كان ييتس ، وهو يتذكر التأثير الطاغي الذي حازت عليه هذه التمثيلية على المشاهدين ، يتساءل :

هل سببت مسرحيتي هذه أن يذهب الكثير من الرجال ليُعدموا برصاص الانكليز ؟[١٤] .

كانت مسرحية (وعاء الحساء)[١٥] محاكاة لقصة شعبية أعدت الليدي جريجوري لها بعض الحوار . أما (الساعة - الكأس) عام ١٩٠٣ ، فكانت أصلاً مسرحية أخلاقية نثرية ، يظهر فيها رجل حكيم وعاقل وقد تواضع حتى بدا أحمق مغفلاً ويتلقى الخلاص بذلك[١٦] ، ثم أعاد ييتس صياغتها شعراً . وكان لهاتين المسرحيتين الهدف الذي قصدته ليدي جريجوري وييتس من أجل إظهار التقليد الشعري المتوارث الذي يظهر في كلام سكان الريف وإحضاره الى المدينة . وكانا ، بالإضافة إلى سينج ، يفكران :

كل ما فعلناه ، وكل ما قلناه أو غنيناه
لا بد أن يأتي كنتيجة للاحتكاك بالتربة ،
من ذلك الاحتكاك الذي جعل أناتيوس قوياً[١٧] .

كانت أولى مسرحيات سينج التي مُثلت في دبلن هي (في ظل الوادي) ١٩٠٣ و (الراكبون إلى البحر) ١٩٠٤ . وقد اتجهت عبقرية سينج الحيوية والحزينة (التي كان ييتس يشعر بأنه قد اكتشفها وقادها إلى مجالاتها الصحيحة) الى استخدام مغاير للغة الفلاحين وتعابيرهم ، وقد أدرك ذلك ييتس تماماً وكتب بحماس مؤيداً مزايا تلك اللغة[١٨] . وجنباً إلى جنب ليدي جريجوري ، قام ييتس بالدفاع عن مسرحيات سينج بلا أنانية ، خصوصاً مسرحيته المعروفة باسم (فتى الغرب المدلل) عام ١٩٠٧ ، ذات الأحاسيس الكوميدية ومع ذلك المليئة بالحماسة والمرح ، والتي أحدثت عداوة وبغضاء عنيفة ضدها من قبل بعض وجهات النظر الايرلندية ، وفيما بعد الايرلندية ـ الأمريكية . ومع ذلك ، فإن الصفة الشاعرية التي تتحلى بها مسرحية سينج المذكورة تعتبر فذة وفريدة sui generis . وبعد نجاح مسرحيات (الكونتيسة كاثلين) ، (وعاء الحساء) و (الساعة ـ الكأس) وكذلك مسرحية ليدي جريجوري (خمس وعشرون) في لندن عام ١٩٠٣ ، افتتح مسرح الأبي في مدينة لندن عام ١٩٠٤ ، وكان ييتس في تلك الأثناء نوعاً مغايراً جداً من المسرحيات .

ففي عام ١٩٠٣ تم عرض مسرحية (عتبة الملك) لأول مرة ، ونشرت في العام التالي ، وهي تعتمد على قصة ايرلندية من العصر الوسيط وتتحدث عن مطالب الشعراء في بلاط الملك جوير Guaire في مقاطعة جالوي ؛ وكانت تدين ببعض أجزائها أيضاً لمسرحية إدوين إليس (الشاعر سانكان) التي نشرت عام ١٩٠٥ . وتسجل هذه المسرحية، طبقاً لـ (س. ب. بوشروي)[١٩] تحول ييتس من الإنفعالية ـ كما ظهرت في مثالية كيفين في (الكونتيسة كاثلين) ، وعزله فور غايل في (الحياة الظليلة) ـ إلى عالم الواقع وفي هذا العمل ، يستعد سينشان الشاعر ليصبح جزءاً من العالم الحقيقي ويناضل ضد التفاهات الموجودة فيه لكي يؤكد وجهة نظره عن مكان الشعر في حياة الأمة . إن هذه وجهة نظر أرستقراطية للشعر . وقد ابتعدت عن الرغبة المكافحة لتصبح أداة للسياسة القومية . وكما أشار ج . أ . م . ستيوارت ، فقد كان « ييتس على الأقل فطناً بقدر ما كان صوفياً » ، وربما يكون قد أدرك بأن القوى التي كانت مود غون ترغب في إظهارها ربما ستكون في النهاية معادية لمنتزه كول مثلما هي معادية لقلعة دبلن ذاتها[٢٠] .

لقد انتهت أحلام ييتس الرومانسية بعد أن تزوجت مود غون من جون ماك برايد عام ١٩٠٣ . وأخذ شعره الغرامي الجديد ، الذي فقد الآن زخارفه وزركشاته ، يسجل بشكل مؤثر الخسارات التي سببتها له الرغبة المكتومة . لم تكن مود غون تفهم أهدافه نحو أيرلندا ، وحتى أيرلندا نفسها بدت وكأنها لا تريد الثقافة الجديدة التي كان يخلقها مع رفاقه . ومثل الشاعر (سينشان) ، كان ييتس على أتم استعداد لدخول العالم الجديد ؛ وقد أصبح مديراً لمسرح الأبي وصبَّ جام غضبه وسيل لعناته على المسرحيات التي :

يُمكن أن تمثل بخمسين طريقة
في يوم الحروب مع الأوغاد والأغبياء . . . .[٢١]

ولكن بالرغم من اهتمام ييتس بكل ما هو فتان من ناحية الصعوبة ، لم تكن مسرحياته محبوبة من قبل حضور مسرح الأبي :

عندما نبلغ الذروة والسماء يقول المئات
اذا أردتم التمسك بذلك الطيران والتحليق
فسوف نغادر المكان[٢٢]

كان الحضور يرغبون بالواقعية ، ولم يكن ييتس أنانياً بما فيه الكفاية كي يعمل من اجل المسرحيات التي يؤلفها جيل المسرحيين الشبان . ولكن جلَّ اهتماماته كانت ما تزال منحصرة بكل ما هو بطولي .

في عام ١٨٩٢ كان قد كتب (موت كوشولان) وهي قصيدة تعتمد بشكل واسع على مصادر حكايات فولكلورية ومن أعمال السير صاموئيل فيرغسون وستانديش أو جراندي . وقد بقي (كوشولان) كموضوع يحتل جانباً كبيراً من تفكيره طوال حياته ، خصوصاً في الأوقات الحرجة[٢٣] . وفي عام ١٩٠١ كان منهمكاً في تأليف مسرحيته المسماة (على شاطىء بيل) ، التي نشرت عام ١٩٠٣[٢٤] ، والتي تعالج أيضاً موضوع كوشولان وقتله غير المتعمد لابنه . وقد بين (بيرجت بجيرسبي) كيف أن موضوع كوشولان يكبر كلما تقدمت السن بييتس نفسه ؛ وفي النسخة المعدّلة من (على شاطىء بيل) عام ١٩٠٥ (عندما كان ييتس في الأربعين من عمره) نقرأ أن البطل كان في الأربعين ، مع أنه ، من الناحية التراثية المتواترة ، كان في السابعة والعشرين عندما لقي حتفه[٢٥] . فهذه ، إذن ، مسرحية لها بعض انعكاسات غرام ييتس عديم الجدوى ورغبته الفاشلة في الحصول على إبن له : وقد بدأ في هذه المسرحية بتأليف الإطار الذي يحوي هذه القصة وأسلوبها ، ولكي يجعل الشخصيات تعكس الأخطار المجردة التي كانت تقض مضجعه[٢٦] ، لأن شخصية الأحمق وشخصية الأعمى ما هما إلا ظلال شخصيتي كوشولان و(كونشوبار) ، واللذين سيصبحان فيما بعد الرمزين الهامين في (رؤيا) عام ١٩٢٦ ثم ١٩٣٧ . إنهما يؤثران على حوادث المسرحية ومع ذلك فهما منفصلان عنها : إنهما يعكسان اهتمام ييتس المتزايد في تطرفه ومعارضاته . وفي المسرحية إحساس بالنهاية المتوقع حدوثها ؛ وتذكرنا مسحة السخرية فيها والعناد المتصلب بالمأساة الاغريقية .

عالج ييتس في مسرحية (ديردر) ١٩٠٧ موضوعاً أكثر صعوبة ، وهو يركز في فصل واحد على الخيانة والرعب اللذين قتلا

(ناويز)[٢٧]، والشفقة التي يثيرها انتحار ديردر . والإثارة في هذه المسرحية متقنة الحبكة ، والشعر فيها حسي وصادق . وهي قصة شجار لا يعرف له أي صلح ، أسطورة « امرأة ورجلين » ، وقد استمدت من ظروف حياة ييتس قوتها في براعة تصويرها المجازي . ويلعب (ناويز) دور شخص واع لذاته ، ولكن ديردر تنتصر في النهاية على كوشولان ؛ وأحزانها « أحزان متعارضة » . وبالفعل ، كان من المفروض أن ينصبّ اهتمام الحضور على التركيز على ديردر ووضعها . ومع أن المسرحية تبتعد عن البساطة الكامنة في مصادرها ، فإن لها وقاراً غريباً ومترفعاً خاصاً بها .

ومع أن ييتس رجع إلى موضوع كوشولان في مسرحيته التالية ، فإن معالجته للمادة الغالية Gaelic البطولية كانت مختلفة تماماً . فمسرحية (الخوذة الذهبية) ١٩٠٨ ، والتي أعيد كتابتها شعراً بعنوان (الخوذة الخضراء) ١٩١٠ ، تستمد موضوعها من حكاية ايرلندية قديمة وهي « عيد بريكريو » ، وتعتبر مسرحية هزلية ساخرة ، هزلية بالنسبة لييتس لكونها « لحظة من الحياة القاسية » . ومع أن المسرحية تعكس المشاجرات والتعارضات ، فانها تمتدح قتال كوشولان البهيج وقوى المصالحة لديه :

وأنا أختار الحياة الضاحكة التي لن تكف عن الضحك ، مهما حدث من تقلبات ؛

وأختار القلب الذي لا يشعر بالمرارة مع أنه الخيانة
قد لحقته من الجميع ؛
واختار اليد التي تحب وتوزع الحب ؛
والحياة كضربة نرد المقامر . . . .[٢٨] .

وكانت مسرحية (أحادي القرن[٢٩] القادم من النجوم) عام ١٩٠٨ إعادة صياغة لمسرحية (حيث لا يوجد شيء) : فهي تستبدل النشاطات العرضية غير المقنعة لبطل المسرحية الأولى بعمل جديد أشد تركيزاً وببطل أكثر اقناعاً ، وهو (مارتن هيرنه) . وهذا الباني للعربات الشاب يملك رؤ يا عن الحيوانات الخرافية هذه والتي ستدمر نظام الأشياء القائمة ؛ إنه يجمع الشحاذين ، ويتحول إلى سكير عربيد ، ويدرك أخيراً ، قبل أن تطلق النار عليه ، أنه كان مخطئاً لأنه استجاب لنشوة العنف المدمر .

إن اهتمام ييتس بنهاية حقبة زمنية وبداية حقبة أخرى ، التي تتخذ رمزاً لها الحيوان ذي الحوافر الحديدية في (حيث لا يوجد شيء) والحيوانات الخرافية أحادية القرن في (أحادية القرن القادم من النجوم) ، قد عاد من جديد في مسرحية (الملكة اللاعبة) عام ١٩٢٢ ، والتي أصلها موصوف في احدى الملاحظات :

« لقد بدأت ، كما أعتقد ، في كتابة مأساة شعرية عام ١٩٠٧ ، ولكن في تلك الأثناء كانت الفكرة التي استعملتها في (القمر الصامت الحبيب

تبرز في رأسي ، وقد وجدت أمثلة عديدة منها في كل مكان وكنت قد أضعت أفضل أشهر العمل لعدة سنوات محاولاً أن أكتب مسرحية شعرية حيث تصبح كل شخصية فيها مثالاً لاكتشاف أو ضياع ما قد دعوته بالنفس المتناقضة .

ولأن العاطفة ، وليست الفكرة هي التي تخلق المأساة ، وإن ما أنجزته لم يكن يملك البساطة أو الحياة التي كنت أطلبها . كنت أعرف بالضبط ما هو الخطأ الذي حصل ، ومع ذلك لم أستطع أن أهرب من تلك الفكرة ولا أن أتخلى عن مسرحيتي . وأخيراً برز في رأسي فجأة قرار بأنني أستطيع التخلي عن المسرحية إذا ما حولتها الى قطعة هزلية ساخرة ؛ ولم أقم في حياتي بمثل هذا العمل السهل من قبل ، لأنني أظن أنني قد كتبت المسرحية الحالية خلال شهر من الزمان . . . . . »[٣٠] .

وهذه (الكوميديا الوحشية) ، التي مُثلت لأول مرة عام ١٩١٩ ، كانت مؤثرة جداً فوق خشبة المسرح . ويمكن التمتع بها كقطعة هزلية ساخرة بالإضافة إلى امتداد نظرية القناع التي تجد تعبيراً لها في مسرحية (من أجل القمر الصامت الحبيب) ١٩١٨[٣١] . وهناك عناصر غامضة أخرى في (نظام) ييتس في هذه المسرحية . فشخصية (ديسيما)، طبقاً للناقد (يور) هي عاهرة وفنانة في الوقت نفسه تفتش عن نفسها ـ النقيضة ، ويمكن أن نجد لها تفسيراً في قصة ييتس المعروفة باسم (تتويج الساحرة) ، التي كُتبت عام ١٨٩٧ ، ونشرت عام ١٩٢٥ . وطبقاً لرأي الناقد ف . إي . سي . ويلسون ، فإن الحيوان الخرافي المجنح هو الشكل الذي تتخذه العناية الألهية لتهبط به إلى (ديسيما)[٣٢] (كما تنزل البجعة الى ليدا) ، ولكن البروفسور يور يناقش معارضاً هذه الفكرة (لأن ديسيما لا تتزوج الحيوان المجنح بل رئيس الوزراء) ويقترح بأن المأساة كامنة داخل هذه المسرحية الهزلية الساخرة ، وأن ديسيما تجد ، بدلاً من الموت ، نفسها النقيضة والسعادة ، ولكن ، كشرط ليتم ذلك ، تجد نفسها مضطرة للاتحاد بأحد المهرجين[٣٣] .

وكانت الصعوبة الحقيقية تكمن في ايجاد الممثلة المناسبة للاخراج الأولي لمسرحية (ديردر) . وقد اختيرت المس داراه (لتيسيا ماريون دالاس) ؛ وهذا التعيين أزعج ممثلي مسرح الآبي ؛ وبعد ذلك لعبت المسز كامبل ذلك الدور . أما بالنسبة لدور (ديسيما)، فقد كان ييتس يفكر باسناد الدور للمسز باتريك كامبل عندما بدأ كتابة المسرحية التي أسماها فيما بعد (الملكة اللاعبة) وهناك سبب محتمل لهذا الانتقال من المأساة إلى الهزلية الساخرة المسماة (الخوذة الذهبية) و (الملكة اللاعبة) يمكن أن يكون رغبة لتقديم مسرحيات تناسب مسرح الآبي وممثليه . ومع ذلك ، فإن ما كان يريده ييتس هو أن يكون لديه جمهور وحضور وممثلون يلائمونه ، وهذا ما تم له في صالون الليدي كونارد في ٢ مايس ١٩١٦ . وهناك مُثلت مسرحية (عند بئر الصقر)[٣٤] ١٩١٧ ، وهي المسرحية الأولى من أربع مسرحيات بعنوان (مسرحيات للراقصين) ١٩٢١ . وقد كتبت هذه المسرحيات من خلال اهتمامه بالدراما اليابانية المعروفة باسم (نو)

Noh ، والتي وجهه للاهتمام بها الشاعر الأشهر ازرا باوند . وقد منحته هذه المسرحيات تكنيكاً جديداً وبسيطاً . كان بإمكانه أن يستغني عن المسرح المتزمت ـ فالمسرح غير المألوف كان أفضل له بما أنه كان يبحث عن الفن الغامض ، وهذه الاحتفالات الطقوسية ظهرت ترافقها الموسيقى وشتى أنواع الرقص. وقد ساعده ذلك أيضاً على خلق حوادث غريبة يمكن تصديقها وبقالب من الكلمات المنمقة .

وتلخص مسرحية (عند بئر الصقر) بعض الخلاص من الوهم وعدم التأكد الشخصي . وهي ترمز إلى بحث الانسان عن الشيء الذي يصعب الحصول عليه ، ويدل الصقر على المضايقة التي تفرضها المجردات ، أما كوشولان فإنه يرمز إلى طبيعة المجزرة المتناقضة . أما مسرحية (غيرة إمير الوحيدة)[٣٥] ١٩١٩ ، فتظهر تركيباً أكثر تعقيداً ، وعرضها لنكران الذات من قبل إمير أمام كوشولان ، وهو عمل وحيد من أعمال التضحية ، والذي يجهله زوجها ، تعوقه المغريات الغامضة التي تقدمها فاند زوجة سيدهي. أما (حلم العظام)[٣٦] ١٩١٩ ، فإنها أكثر نجاحاً في مزجها لكل ما هو غير طبيعي مع ما هو سياسي . ففيها جندي ثوري يقابل أشباح ديرموت Dermot وديفوركيلا Devorgilla اللذين كانا مسؤولين عن جلب سترونغ بو[٣٧] والنورمان إلى أيرلندا في القرن الثاني عشر . يكشفان شخصيتهما ، ويمكن لانفصالهما المحزن أن ينتهي اذا ما قام شخص ما من سلالتهما بالصفح عنهما . ولكن الجندي لا يستطيع أن يقسر نفسه على القيام بذلك ، وتنتهي المسرحية برقصة منهما تدل على الندم والشوق للعودة إلى شعبيهما .

وبالنسبة لمسرحية (مكان صلب المسيح)[٣٨] ١٩٢١ ، نجد أنها تحوي أغاني للموسيقيين ، والرقصات والممثلين المقنعين ، وهي مجموعات الصور والخيالات في المسرحيات التي تتخذ أسلوب (النو) إطاراً لها . ومع ذلك ، فإن موضوعها يجعلها تختلف ، وهي تتطلب بعض المعرفة لموضوع مسرحية (رؤيا) لكي تُفهم تمام الفهم . فالمسيح ، والذي هو نفسه ضحية لليأس الفكري ، لا يستطيع أن يساعد الجنود الرومان ، الذين هم شكل من أشكال الموضوعية ، أو (لعازار) ، أو (يهوذا) ، وكذلك مالك الحزين أو الصقر والبجعة ، الذين يقتنعون بوحدتهم وعزلتهم . وتتألف المسرحية ، حسب تعابير البرفسور يور من « أربع تنويعات على موضوع عجز المسيح عن انقاذ أولئك الذين يمكن أن يعيشوا بدون خلاص » .

كتبَ ييتس مسرحية (القط والقمر)[٣٩] ، التي مُثلت عام ١٩٢٦ ، وهي تدريب قصير وغريب ، شبيهة بأسلوب سينج[٤٠] ، وقد تبع ذلك ترجماته لمسرحيتي سوفوكليس (أوديب ملكاً) ١٩٢٨ و (أوديب في كولونيا) عام ١٩٣٤ . وانشغل ييتس بمسرحية (البعث)[٤١] ، عام ١٩٣١ ، من عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٣٠ ؛ وهي تطور وجهات النظر غير المتغيرة في مسرحية (مكان صلب المسيح) وتجعلها مسرحية أكثر حيوية ، وأكثر تأثيراً ، وتتضمن تركيباً جيداً وتطوراً للشخصيات والفكرة . وتستقر فكرة المسرحية على وجهة نظر ييتس بالنسبة للتاريخ على أساس أنه النقيض ؛ فقد كان يعتقد بأن المسيحية قد جلبت معها فكرة راديكالية ، ومعها فترة تاريخية جديدة . إنه يجعل نظامه المجرد في التأليف حيوياً ، عبر المحاورات الايضاحية أولاً ، ثم بوساطة التوتر المتفجر الذي يتولد بسبب الوضع ، ذلك التيار التحتي ذي القوة اللاعقلانية الديونيزية (الشهوانية المعربدة) ، الذي يتردد عبر المسرحية ، ويتعارض بشكل ساخر مع حديث الشخصيتين الرئيسيتين ، اليوناني والعبري . وهذه القطعة المسرحية عبارة عن رائعة في دراميتها الدقيقة والمختصرة . وتتضح فيها أيضاً الثقة التي أوجدتها براعة المسرح ، وكان الحوار فيها تأكيداً على اظهار التأثير الذي كان لكتابة مسرحية (رؤيا) ، « ينتظم الطل » ، على شعر ييتس .

ونفس المهارة المسرحية الفائقة تعمل عملها في (الكلمات المكتوبة على لوح النافذة) ، ١٩٣٤ . ويسمح إحساس ييتس بالحوار وبناء المسرحية بتنويع التوتر الحاصل في المسرحية ، وكي يستفيد إفادة واقعية من جلسة تحضير الأرواح لإيصال الرعب الذي يحس به من جراء عذابات سويفت[٤٢] الروحية :

. . . تتلاطم على صدره بعمى محموم وعرّافيّ
لأن القلب في صدره المجبول بالدم
قد جرَّه الى طريق الانسانية[٤٣] .

وحسب ما قاله ييتس نفسه ، فإن مسرحية (ملك برج الساعة العظيمة) ، ١٩٣٤ ، كانت « أشهر مسرحية من مسرحياتي الراقصة » ، ومسرحية « القمر التام في آذار » ، ١٩٣٥ ، كانت نسخة ثانية عن الفكرة التي اعتمد عليها أوسكار وايلد في (سالومي). والشخصيات ليست مقنعةكأناس حقيقيين؛انهم في الحقيقة أجزاء من شعائر تؤدى. أما مسرحية (بيضة الهيرن) The Herne's Egg ، ١٩٣٨ ـ « أغرب شيء كتبته في حياتي » ـ فقد كانت تبدو لييتس أكثر مأساوية وفلسفية بعمقها من مسرحية (الملكة اللاعبة) . وبطلها ، كونجال ، في حرب ضد الطائر ـ الاله ، هيرن العظيم : ولكنه لا يفهم تماماً ما هو الشيء الذي يحاربه . إنه متبلد الذهن والحس ، ويخطر في باله أن يغتصب (أتراكتا) ويحسب بذلك أن الأمور ستعود الى نصابها الطبيعي مثلما كانت قبل أن يسرق بيضة الهيرن وهكذا بدأ الشجار الذي قاد إلى قتله آييد Aedh . وكانت جولة « القتال الأولى » مع الإله قد قادت الى الفوضى ، أما الجولة الثانية فقد سببت انتهاك حرمة (أتراكتا) ، وهذا ما جعل كونجال يفشل في فهم المعنى الكامل وراء هذا كله . وتؤدي الجولة الثالثة في ذلك الصراع إلى مقتله هو نفسه حسب اللعنة التي صبت عليه وذلك على يدي أحمق ، وإعادة تقمصه على شكل حمار . إن (كونجال) شكل من الأبطال المأساويين من النوع الذي أسماه شكسبير أوتيللو (عطيل) أو (كوريولانوس) ، محدود القوى لأن

فضائله هي ذاتها أخطاؤه ؛ فهو يرتكب الأخطاء ويسيء فهم الموقف الذي تقوده اليه أخطاؤه . والإله هيرن لديه غموض وغير مجسم مما يكون له دور فعّال في إلغاء نشاطات كونجال البطولية ، ذلك الشخص الذي يفشل في التمييز بين القتال ضد الانسان والقتال ضد الإله .

وتعبر مسرحية (المطهر)[٤٤] ، ١٩٣٩ ، بطريقة مسرحية عن بعض عناصر قصة خيالية كان ييتس قد تحدث عنها حول قلعة دارجان ، قرب مدينة سليجو ؛ وفي المسرحية يكون البطل بائعاً متجولاً ، يقص على ابنه الوغد حكاية البيت المدمر وساكنيه . وتظهر الأشباح التي تقطن ذلك البيت للرجل العجوز ـ وبعد ذلك ، في النهاية ، تظهر للولد ، وهما يتشاجران معاً ، بسبب نقود البائع المتجول . وتفشل جريمة قتل الولد ، مع ذلك ، في تخفيف لعنة الأشباح في ذلك البيت ، تلك اللعنة التي تركزت حول حلم الأم . وهذه مسرحية ، تشبه في موضوعها الأوريستيا[٤٥] ، وتدور حول مشكلة التطهير المحتمل لعائلة وعن العمل الجنسي الذي بدأ بها . إن السخرية الظاهرة في تكرار النموذج لجرائم القتل يضيف الى الرعب الذي تظهره المسرحية ؛ ولا يمكن للدائرة أن تتحطم بواسطة البشرية ، ويصلي الرجل العجوز ، في النهاية ، طالباً من الله أن يخفف من بؤس وتعاسة الأحياء ، بالإضافة إلى بقايا الأموات .

كتب ييتس (موت كوشولان)[٤٦] ، ١٩٣٩ ، بوقت قصير قبل موته . وهنا عاد من جديد إلى المادة التي زودته بها ليدي جريجوري في كتابها (كوشولان مدينة موريثم) ؛ وقد وازن المسرحية أيضاً وجعلها على غرار (رؤيا) . فكوشولان يُعطى رسالة مزيفة من قبل عشيقته (آيثنه) ، الواقعة تحت تأثير سحر آلهة الحرب ، وتلك الرسالة تقوده إلى معركةلا أمل فيها؛ إنه يواجه إمكانية الموت بشجاعته المعتادة ، ويصفح عن (آيثنه) بكرم أخلاق أقرب إلى السخرية . ثم يُصاب بجرح قاتل ، ومع أن أويفه على وشك أن تنتقم منه لمقتل ابنها (كونلايش)، فان الموت الفعلي يتم على يد رجل أعمى ومن أجل جائزة تافهة ، وهذا من دواعي السخرية . (فكوشولان) هذا ، الذي أعمته البطولة ، يتم ذبحه من قبل مهرج ، يظهر في الأغنية الأخيرة للمسرحية وهو يستعيد مكانه في الذاكرة الفولكلورية للتراث الأيرلندي مع حدوث ثورة عيد الفصح عام ١٩١٦ :

ما الذي وقف في مكتب البريد
مع (بيرس)[٤٧] و (كونالي)[٤٨] ؟
ماذا يخرج من الجبل
حيث سفح الرجال عليه دماؤهم ؟
من ذا الذي فكر بأن (كوشولان)
سوف يقف حيث وقفوا فعلاً ؟
لا أحد أنجب مثله
من زوجته الحديثة ،
ولكن رجلاً عجوزاً ينظر إلى الحياة بتشاؤم
يتصوره باحتقار .
تمثالاً هناك لتخليد ذكرى المكان ،
أقامه (أوليفر شيبرد) .

كان ييتس يهدف إلى « جعل القصص القديمة مألوفة لدى الايرلنديين كما هي الحال مع قصص الملك آرثر وفرسانه لدى كل قراء الكتب » . وفي عمله هذا ، فقد ساعد على ايجاد أمة متجددة حديثاً ، وكان من المناسب أن يواجه بطله حتفه بالاحتقار المتكبر الذي كان هو نفسه ينوي انجازه[٤٩] .

الحواشي

(١) من اجل تفصيلات حول بعض المخطوطات غير المنشورة ، أنظر ج . ب . ساول (مقدمة نقدية لدراسة مسرحيات ييتس) Prolegomena to the study of Yeat's Plays (١٩٥٨) صفحات ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٢) ادموند سبنسر (١٥٥٢ ـ ١٥٩٩) الشاعر الانجليزي ، عُين في منصب رفيع في أيرلندا . من أشهر أعماله الشعرية (تقويم الرعاة) و (الملكة الجنية) . . . (المترجم) .

(٣) متضمنة في (مجلة جامعة دبلن The Dublin University Review أعداد : ابريل ، مايس ، حزيران ، وتموز ١٨٨٥ .

(٤) غيرت تهجئة الاسم الأصلي Kathleen إلى Cathleen في عام ١٨٩٥ ، وهذا ما استخدم في الطبعات اللاحقة .

(٥) من أجل معرفة بعض التفاصيل عن علاقة ييتس بمود غون ، انظر ترجمة هاني الراهب لكتاب هارولد بلوم (ييتس) ج ١ و ج ٢ دمشق ، ١٩٧٩ (المترجم) .

(٦) مذكورة بالتفصيل في كتاب بيتر يور (ييتس المسرحي) Peter Ure, Yeats the Playwright (١٩٦٣) صفحات ١٣ ـ ١٥ .

(٧) نشرت أول مرة في (مجلة أميركا الشمالية) North American Review مايس ، ١٩٠٠ .

(٨) مثلت أول مرة في قاعة مولزوورث ، دبلن ، في ١٤ كانون أول ، ١٩٠٤ . أما نسخة التمثيل فقد نشرت لأول مرة عام ١٩٠٧ .

(٩) Lady Augusta Gregory (١٨٥٢ ـ ١٩٣٢) الكاتبة المسرحية الأيرلندية ، أوجدت مع صديقها ييتس (المسرح الوطني الأيرلندي) تزوجت من السير وليام جريجوري ، ١٨٨١ . من أشهر أعمالها (كوشولان مدينة موريثم) ١٩٠٢ (مسرحيات تاريخية ـ شعبية أيرلندية) و (الصورة ومسرحيات أخرى) ١٩٢٢ . ومن أشهر مسرحياتها القصيرة (بزوغ القمر) و (نشر الأنباء) (قاعة العمل) . . . . (المترجم) .

(١٠) نشر النص بعناية و . بيكر في (مجلة دبلن) The Dublin Magazine أبريل ـ حزيران ١٩٥١ .

(١١) نُشرت لأول مرة كملحق لمجلة (الأيرلندي الموحد) United Irishman ١ تشرين الثاني ١٩٠٢ .

(١٢) أنظر ترجمتي لها في مجلة الآداب البيروتية ، عدد ٥ ـ ٦ ، أيار / حزيران ، ١٩٨١ . (المترجم) .

(١٣) تعتمد المسرحية على قصة شعرية شعبية تسمى Shan Van Vocht تخلد ذكرى مساعدة الفرنسيين للثوار الأيرلنديين . وقد هبط الجنرال همبرت مع رجاله في كيلالا عام ١٧٩٨ .

(١٤) و . ب . ييتس (الإنسان والصدى) من مجموعة (القصائد المجموعة) ١٩٥٦ ، ص ٣٩٣ .

(١٥) نشرت لأول مرة في مجلة الغال The Gael ، أيلول ١٩٠٣ ، ثم في كتاب (الساعة ـ الكأس ومسرحيات أخرى) ١٩٠٤ .

(١٦) اعتمدت على قصة بعنوان (روح القسيس) ، سجلتها ليدي وايلد في كتابها (الأساطير القديمة في أيرلندا) ١٨٨٧ ، مجلد ١ ، الفصل الثاني ص ٦٠ ـ ٦٧ .

(١٧) و . ب . ييتس (إعادة زيارة متحف البلدية) ، (القصائد المجموعة) ص ٣٦٨ .

(١٨) قارن و . ب . ييتس (مسرحيات شعرية ونثرية) طبعة ١٩٢٢ ، ص ٤٢١ : « إن الاستخدام الأول للهجة الأيرلندية ، الفنية والوفيرة والصحيحة ، من اجل أهداف الفن الخلاّق ، كانت في مسرحية ج . م . سينج (الراكبون الى البحر) وفي مسرحية ليدي جريجوري (نشر الأنباء .) » .

(١٩) « عتبة الملك » : دفاع عن الشعر . (مجلة الأدب الانجليزي) المجلد الرابع ، العدد ٣ ، تموز ١٩٦٣ ، ص ٨٣ .

(٢٠) (ثمانية كتاب من العصر الحديث : تاريخ أوكسفورد للأدب الانجليزي) ١٩٦٣ ، ص ٣٢٦ .

(٢١) و . ب . ييتس : (سحر ما هو صعب) ، القصائد المجموعة ، ص ١٠٤ .

(٢٢) و . ب . ييتس (في مسرح الأبي) ، القصائد المجموعة ، ص ، ١٠٧ .

(٢٣) كانت هناك سبع معالجات رئيسية : « موت كوشولان » ، قصيدة ١٨٩٢ ؛ «على شاطىء بيل» ١٩٠٣ ، « الخوذة الذهبية » ١٩٠٨ و « الخوذة الخضراء » ١٩١٠ ؛ « عند بئر الصقر » ١٩١٧ ، « غيرة إمير الوحيدة » ١٩١٩ ؛ « محاربة الأمواج » ١٩٣٤ ؛ « موت كوشولان » ، ١٩٣٩ ، و « كوشولان معزى » قصيدة ، ١٩٣٩ .

(٢٤) نشرت أول مرة في (الغابات السبع) The Seven Woods عام ١٩٠٣ .

(٢٥) (تفسير أسطورة كوشولان في أعمال و . ب . ييتس) The Interpretation of Cuchulain Legend In The Works of W. B. Yeats. (١٩٥٠) ص ٧٩ .

(٢٦) قارن و . ب . ييتس (الدواليب والفراشات) ، ١٩٣٤ ، ص ١٠٢ .

(٢٧) إسم Naoise يُلفظ (نيشه) هو ابن (أوزنا) ، وأحد المحاربين تحت قيادة كوشولان . (المترجم) .

(٢٨) و . ب . ييتس : (الخوذة الخضراء) في(المسرحيات المجموعة)١٩٥٢، ص ٢٤٣ . ومسرحية (الخوذة الذهبية) مُثلت لاول مرة في ١٦ اذار ١٩٠٨ ، أما (الخوذة الخضراء) ففي ١٠ شباط ١٩١٠ ، كلاهما في مسرح الأبي ، دبلن .

(٢٩) Unicorn أحادي القرن ، حيوان خرافي له جسم فرس وذيل أسد وقرن وحيد في وسط الجبهة (المترجم) .

(٣٠) و . ب . ييتس : (مسرحيات شعرية ومسرحيات نثرية (١٩٢٢ ، ص ٤٢٨ .

(٣١) أنظر و . ب . ييتس (Ego Dominus Tuus) ، القصائد المجموعة ، ص ١٨٠ وكذلك (أشكال القمر) ، نفس المجموعة ص ١٨٣ ، وهي عرض مشابه « لنظام » ييتس .

(٣٢) ف . إي . ويلسون : (ييتس والتراث) Yeats and Tradition ١٩٥٨ ، ص ١٨٢ .

(٣٣) ب . يور (ييتس المسرحي) ١٩٦٣ ، ص ١٤٤ .

(٣٤) نشرت لأول مرة في (سوق هاربر) Harper's Bazaar آذار ، ١٩١٧ .

(٣٥) نُشرت أول مرة في مجلة (شعر) Poetry شيكاغو ، كانون الثاني ١٩١٩

(٣٦) في كتاب (مسرحيتان للراقصين) ١٩١٩ .

(٣٧) Strongbow (؟ ـ ١١٧٦) ساعد في عام ١١٧٠ ديرمونت ، ملك لانيستر ، وحصل على دبلن وأعاد تثبيت ديرموند كملك ، وقد تزوج من أخت ديرمونت وأصبح ملك لانيستر بعد وفاة أبيها . (المترجم) .

(٣٨) في (أربع مسرحيات للراقصين) ١٩٢١ .

(٣٩) نشرت أولاً في (المحك) The Criterion ، تموز ١٩٢٤ ، و (المزولة) The Dial تموز ١٩٢٤ .

(٤٠) تصف المسرحية الصداقة مع (جورج مور) و (ادوارد مارتن) قارن : و . ب . ييتس (سيرة حياة) ١٩٥٦ ، ص ٤٨٢ .

(٤١) نشرت لأول مرة في مجلة (أدلفي) Adelphi ، حزيران ١٩٢٧ ، ثم في (قصص ميخائيل روبارتس وأصدقائه) ١٩٣١ .

(٤٢) جوناثان سويفت (١٦٦٧ ـ ١٧٤٥) الكاتب الانجليزي الشهير بروايته (رحلات جيلفر) وهو ذو أصل ايرلندي . (المترجم) .

(٤٣) و . ب . ييتس : (الدم والقمر) ، القصائد المجموعة ، ص ٢٦٧ .

(٤٤) في (القصائد الأخيرة ومسرحيتان) ١٩٣٩ .

(٤٥) (الأوريستيا) وهي الثلاثية المسرحية التي كتبها (اسخيلوس) وتتألف من (أجاممنون) و (شيوفوري) و (إيومينيدز) . (المترجم) .

(٤٦) في (القصائد الأخيرة ومسرحيتان) .

(٤٧) باتريك هنري بيرس (١٨٧٩ ـ ١٩١٦) شاعر أيرلندي وقائد ثوري ، أُعدم رمياً بالرصاص لاشتراكه في ثورة عيد الفصح ١٩١٦ ، عندما كان رئيساً للحكومة المؤقتة . (المترجم) .

(٤٨) جيمس كونالي (١٨٧٠ ـ ١٩١٦) قائد نقابي وأحد مؤسسي (الجيش الموطن الأيرلندي) وقد أعدم أيضاً في ثورة عيد الفصح ١٩١٦ (المترجم) .

(٤٩) هذا النص عبارة عن مقدمة (و . ب . ييتس : مسرحيات مختارة) بان بوكس ، ١٩٧٤ (المترجم) .